على طريق النهوض بالمجتمع

عقبات للتذليل

للدكتور عزة النص

معالجة جذرية لتطبيق المفاهيم الديموقراطية ـ ونقد ذاتي جراحي لاوضاع سورية راهنة ، تقاس عليها اوضاع عربية مماثلة ـ انه بحث نموذجي من ابحاث مثقفينا

مفارقات في الغلاف البشري

كتبت اكثر من مرة ان الحرية هي قيد قبل ان تكون اي شيء آخر ، قيد لأنها في جوهرها نهوض كامل بالمسؤولية ، سواء في موقف الفرد من نفسه وفي موقفه من غيره ام في سلوك الحاكين تجاه المحكومين وبالعكس . وعلى ذلك فان الديمقراطية ، القائمة في مضمونها على الحرية ، لايمكن ان تكون سوى المسؤولية الشاملة ، مسؤولية الدولة في تعميم الطمأنينة والعدل والرخاء ، ومسؤولية الأفراد في اختيار حكامهم تبعاً لمقدرتهم على تعميم الطمأنينة والعدل والرخاء .

وليست غايتي هنا تقرير منطق الديمقراطية في حدوده ومحتواه ؛ وانما تعمدت هذا الاستهلال لأنتهي الى الالحاح على تبعات الدولة الديمقراطية المتزايدة في الشمول والتعقيد . وأول

هذه التبعات التزامها الدائم بتكييف هيكلها تكييفاً مستمراً لتستطيع تكييف ضوابط المجتمع ومقوماته على اساس الربط بين تلك الضوابط والمقومات وبين تقدم العلوم وامتداد تطبيقاتها .

ولا ضرورة الى افتعال البينات لتوكيد على ان الحريات السياسية المبذولة للملايين تظل هذراً اجوف ان لم تتحول الى طاقات مجندة للارتفاع بذهنية الجماهير الى مستوى العلم الحديث ، واذا لم يكن مآلها تمكين هذه الجماهير من الانتفاع على مقياس عام بمعطيات العلم الحديث ومبتكراته .

أقول هنا وفي نفسي تساؤل مرير : لئن كان المحراث القديم يرافق في تصورنا عهد الامبراطوريات الغابرة ، فهل تمكن الفلاح ، كل فلاح ، في ظل الديمقراطيات المعاصرة التي شهدت مولد المحراث الآلي الحديث ، ان ينتفع بآلاء هذا الاختراع وان يبدل طراز معاشه بمقدار يتناسب مع المسافة العلمية الفاصلة بين المحراثين ؟؟.. هل أصبح ذا يسار ؟ هل غدت له دار تصلح للآدميين ؟ هل اضحى ينام على سرير ويستطيع تعليم ابنائه حتى قمة التعليم ؟ هل تطور غذاؤه وكساؤه الى خير مما كان ؟؟

أشك أن يكون الجواب ايجابياً كل الشك .

وفي الواقع ، ليس أدنى الى العجب في عصرنا الذي نعيشه من **ذلك التفاوت المتطاول بين خطوات الكشف العلمي ومراحل التطور الاجتماعي : الكشف العلمي يندفع بتسارع مذهل نحو سبر المجهول ومغالبة الطبيعة ، والتطور الاجتماعي يدرج متثاقلاً لا يكاد يتبين المرء في مساره طفرة فجيئة شاملة في حياة الناس ، وارتقاءاً واثباً في أنماط معاشهم ومقادير كسبهم ، وتقارباً مديداً في سلم علاقاتهم ودرجات ترابطهم .**

أردت أن أقول : إن العقل الخلاق ، في تناميه المضطرد ، لا يجد حرجاً رادعاً أو معاندة صامدة في معالجة المادة وتحديها والتجربة فيها وتسخيرها . ولكنه حين يواجه الواقع الاجتماعي يتهيب أو يعجز أن يبدل مافي النفوس ويغير المسلمات ويقلب التوازن المألوف ويرفع الحواجز بين الطبقات والصنوف ويصمم نهجاً حصيفاً ومعايير عقلانية في التعامل الانساني .

وبتعبير آخر ، إن الفكر الذي يبدع كل يوم آلة عجيبة تفتح الآفاق المغلقة في عالم الاشياء ، يجد طاقته شبه مغلولة حين يحاول الدفع والتغيير في عالم الأحياء .

وعندما يشتد التفارق بين قفزات العقل وتهادي المجتمع ، وتتعثر عملية المواءمة ، تبدو مشيئة التغيير على صورة ثورات وانقلابات . وبذلك تطرأ قوة السلاح لتسريع حركة التبديل أو لكبحها .

والغريب هو أن بناة الديمقراطية عقدوا آمالاً رحيبة على منجزات العلم في إسعاد الجماهير والارتفاع بكرامة الانسان . غير أن موج التفاؤل كان أبعد مدى من حصاد الواقع .

ويدهي أن الشعوب المتفتحة على التسامي العلمي تكون أشد قدرة على تسوية بنيانها الانساني ؛ بمعنى أن التمرس بكشف علاقات جديدة بين الأشياء يقود بالضرورة الى تصور علاقات جديدة بين البشر . مثل هذه الشعوب تحقق ، على أضعف احتمال ، الموازنة المطمئنة بين تكاثر السكان وتزايد الموارد ، وتبطل النبوءات الكئيبة التي يرتقبها للبشرية المتضخمة فلاسفة الشؤم الأسود . وأما المتخلفون عن التدبر والخلق في رحبات المادة فهم ، دون استثناء ، المتخلفون في التحريك والاغناء في مجالات الانسان . هؤلاء الذين تحتضهم البيئة الطبيعية بوقرها الأزلي لايخالجهم التفكير في زحزحة البيئة الاجتماعيـــة عن مواضعها . فاذا كان ركب التقدم الاجتماعي في بلاد التنشط العلمي لايزال قصير الخطو فهو يسير على كل حال . ولكنه يراوح في مكانه حيث لايجد أمامه مسيرة علمية تغريه وتستحثه وتشق له الطريق .

هنالك إذن في مصائر الفلاق البشري على الارض احتمالات منوعة لهاحجمها ولها ايضاً مفارقاتها:

قد تتصرف الفئة العالمة في تسيير الشعوب ، فيهيمن اسلوب التخطيط الكلي ، ويربط العلم مابين التنمية التربوية والتنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية برباط حسابي دقيق . **والخطر هنا أن يتحكم المهندسون وحدهم في أقدار البشر ، فتدفعهم نشوة الظفر على المادة الى اعتبار الانسان مجرد حذاذة من الفلذات ، وإخضاعه للمبادىء ذاتها التي تخضع لها الآلة البكماء** ، وبسط الدساتير المتحكمة في الحجارة والمعدنيات على العلاقات القائمة بين الأنفس .

واذا كفل امر الشعوب جهـــاز متعاون متكافىء من الاخصائيين بالوشائج الانسانية والاخصائيين بالقوانين العلمية ، أمكن هذا الجهاز المثقف أن يوائم في التنهيج الاجتماعي بين دواعي الروح ومعطيات المادة . والثقافة الطوباوية الحالمة وحدها قد تحرف الفرد والجماعة عن صميم الحياة وتقلص قدراتهم المعاشية ، بقدر ما يهبط بهم الى مهاوي الضياع المادي العلم الجامد وحده .

ومهما كانت أمزجة الشعوب ومناخاتهـــا الروحية في تقبل التقييد أو التسييب ، القسر أو الاختيار ، فان فكرة تحكيم الدولة العالمة العادلة في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية — ضمن حدود شاملة أو ضيقة — أصبحت قضية مستـــاغة لدى الأقوام الواعية كافة .

والديمقراطيات الحديثة ، حين انتهضت فوق الهشيم المتراكم عن التنظيم الذي تهاوى — التنظيم المشاد على النبالة وحيازة الأرض ومن عليها — كان مطمحها تثقيف السلطة العليا وتأميمها وتعميم الخير والانتفاع ، وبالتالي صنـــع موازين جديدة للقيم والجدارات وتكريسها على صورة

حقوق وواجبات . ولكنها ، حينما وقفت عند تلك التخوم وحجرت المكتسبات في تمثال نهائي مقدس ، تراخى التلازم بينها وبين شطحات العلم المادي ، ووجدت صلة الرحم بينها وبين الكثرة — الطامحة أبداً — تنقلب الى موجدة أو شبه عداء .

لقد أتى على الديمقراطيات حين من الدهر احتجز فيه دفة القيادة رجال القانون ، بفضل مواهبهم الخطابية في جذب الجماهير ، وباعتبار قدرتهم على نصرة الحق وإزهاق الباطل ومؤالفتهم تخريج النصوص وصياغتها . وكان دورهم متناسباً في حينه مع مفهوم الدولة المتقادم : **الدولة الشرطة** . ولكن منحدر الأحداث في العالم يدل على أن سلطان المحامين سوف يأخذ في الانزياح حيث يعم المفهوم الجديد للدولة : **الدولة المنتجة والدولة المخططة** ، تلك التي يجاوز عملها حفظ النظام وترسيخ الحقوق وضمانة المسؤوليات الى المشاركة في الاقتصاد أو احتكاره والتدخل كلياً أو جزئياً في تنهيج الصلات بين عناصر المجتمع .

وفي الحق ، إن الحريات الأساسية التي نسج الفلاسفة خيوطها قد اضطلع رجال القانون بتركيزها في الحياة العامة . غير ان استمساكهم بحرفية النصوص وبالدفاع عن الواقع المكرس أبعدهم في أكثر من مناسبة عن المبادرة في تعديل العلاقات التقليدية بين الكتل الاجتماعية نوعاً وكماً.

واذا كان انتقال السلطة الى الفنيين يعتبر في ذاته ظفراً للتخصص العلمي ، فانه قد يعني بالاضافة الى ذلك تحول الجماهير من سلوك التنافس الحر الى سلوك التعاون النمط وتخطيهم عهد الفروق الاجتماعية المستمدة من التملك الفج الى عهد الفروق المستندة الى قيم الابداع وخبرات الانتاج . ويرافق هذا الانتقال ايضاً هزيمة **بيروقراطية الدواوين** وانتصار **تقنوقراطية المخابر والمواسم** .

هذا الصراع المكشوف بين الديوان والمختبر ، بين البيروقراطية والتقنوقراطية ، يبدو شيئاً محتوماً . على ان جميع الفروض ممكنة في محاولة التأليف بينهما ، على نحو يخضع الديوان لمبادىء الانتاجية العلمية ، باستئصال الروتين وتهوية الأساليب وفتح النوافذ على الضوء المجدد .

وإذن ، فان الديمقراطية مظنة البقاء هي الديمقراطية المشدودة الى العلم التكنيكي والمسؤولية الأخلاقية من جهة ، والوفية لذممها نحو العدد الأكبر من جهة ثانية ، والمتباعدة عن الثرثرة اللفظية والجدل البيزنطي والخداع السياسي والصراع السطحي العقيم .

والشعوب الطفلة والمراهقة تعتريها أزمات حادة في محاولتها اختصار العمر واختطاف النضج من أجل اللحاق بالشعوب المكتهلة . والطفل لايبلغ مبلغ الرجال بمجرد أن يرتدي رداءهم .. ونعني

هنا الشعوب التي فاتها عصر الديمقراطيات ودار حولها موكب الانبعـــاث العلمي دون أن يمس أرضها ، وبقيت حتى ظهيرة القرن العشرين سجينة الاطارات السياسية الموصدة والقوالب الاجتماعية الصلودة ، وعاشت ـ ولاتزال تعيش بنسب متفاوتة ـ في دوامة الطبيعة المتجبرة المأفونة : تعبث بها وتسترقها ، تحبس عنها ماءها حيناً وتغرقها بطوفانها حيناً آخر ، تجيعها وتطعمها دونما ترقب وعلى غير مقياس .

مثل هذه الشعوب ندعوها الشعوب المتخلفة ، واذا نهدت للتقدم نسميها تفاؤلا بالشعوب الآخذة في النمو او النامية . وهي ذاتها الشعوب القابلة للاشتعال والتفجر حين تكشف تخلفها وتعي المفاوز الزمنية الرهيبة والباعثة على اليأس التي تفصلها عن الخليقة القادرة العالمة .

والذي يحدث في اكثر من احتمال ان المخترعات الصناعية الحديثة تغزو أرض تلك الشعوب، فتجتر الشعوب ثمرات العلم ، تستهلكها دون أن تعرف سر ابداعها ، تعيش على محصول العقل عند غيرهـا ، وتتفتح فئة قليلة منها على الثقافة عن طريق المدارس المنشأة في بعض المدن ، وتتيح لها الكتب والرحلات ووسائل الاعلام السمعية والبصرية أن تقيم موازاة بين نقصها وا كتمال غيرها من الأقوام ، فتنبت فيها بذور التبديل مع بذور النقمة .

ولامحيد هنا للأساليب الديمقراطية الموذجية من أن تعرف مرحلة امتحان وقلق وارتكاسات ، اما بسبب انكماش الحكام التقليديين عن مسيل التيار ، أو بسبب بدهية الشعب وفتر وعيه ، وتأرجح انفعالاته وتأخره عقلياً واجتماعياً عن المركب المقحم فيه .

هذا المخاض الديمقراطي قد يطول أو يقصر ؛ ولكن الديمقراطية مدرسة للشعوب ، اذا عجزت في بداية أمرها فهي مهيأة لان تصلح نفسها بنفسها وتتعرف بعد لأي على النهج السوي لتستقيم فيه متى توافر لها النصيب المقدور من التكنيك الحديث .

على أن **التخلف البدائي البسيط** ليس أخطر أنواع التخلف ، كما هو موهوم ، وانما هو **التخلف المعقد المركب** ، هو التمايز والتناقض في المستويات ، جميع المستويات :

بين المدن والأرياف ، بين البدو والحضر ، بين العلماء والأميين، بين الحكام والمحكومين، بين المتخمين والجائعين ، بين القصور والأكواخ ، بين السفسطائية الديمقراطية والتسلط الواقعي ، بين طموح الفرد وخير الجماعة ، بين الآمال والوعود وبين الصدق والجهد في تنفيذها ، بـــين العقيدة وبين الوفاء لها والتقيد بها ، بين المعرفة والتطبيق ، بين القول والعمل الخ ..

ولئن كان التخلف البدائي ألصق التحاما بالمؤثرات الجغرافية ، فالتخلف المعقد تختلط فيه العوامل ، ويحمل طابع العهود التاريخية المتراكبة وأنقاض الحضارات المتداخلة . وهو في كل مكان يدفع الى الاصطراع والتلهب ، ويكون بالتالي أشد عوقاً لاستواء الديمقراطيات .

مثل ذلك التخلف المشتبك تعانيه سورية والبلدان العربية عامة .

وا كتفائي هنا بتناول التناقض بين قرانا وأمصارنا معناه ان هذا الصدع في تركيب كياننا هو المنفذ الاكبر الذي تلفحنا منه رياح الوهن والاضطراب .

وفي اعتقادي ان كل اصلاح في قوامنـــا يجب أن يبدأ من هنا ، وذلك لجملة مبررات أعد منها :

١ ـ ان الريفيين يمثلون الكثرة الغالبة من أهل بلدنا .

٢ ـ ان دورهم رئيسي في اقتصادنا الوطني .

٣ ـ انهم حتى الآن الفئة الأطول حرمانا والأشد تخلفا بين المواطنين.

٤ ـ ان محاولات الانعاش الريفي لم تقطـــع بعد عندنا شوطاً محسوس الاثار .

٥ ـ ان الريفيين هم المستند في تصريف منتجات الصناعة ، وكل سياسة تصنيعية يجب أن تعتمد بالدرجة الاولى على رفع كفاياتهم الاستهلاكية .

٦ ـ ان الأرض الزراعية في وطننا الصغير واسعة الحدود الحيوية ، بمعنى أن فاعلية الاستثمار الفلاحي يمكن ان تتنامى الى درجة كبيرة .

٧ ـ ان ديمقراطيتنا السياسية تظل شوهاء عرجاء مادام الريفيون عاجزين ، تحت كابوس الشروط المادية والمعنوية ، عن المشاركة في تبعات المواطنة واعبائها .

٨ ـ ان المبادهة الشخصية والانتهاض الذاتي يمكن توفرهما في المدن ولكنهما ضعيفان في الارياف .

وليس من خافية الامور اليوم قياس قرينة التخلف عند الشعوب . وأصح معيار لذلك هو مدى البعد الزماني بين انسان المدينة وانسان القرية ، على تقاربهما وتعايشهما في المدى المكاني .

وفي بلادنا على وجه التخصيص لانستطيع ان نتحدث عن (نهضة زراعية) كما نتحدث عن (نهضة صناعية) . **وأوضح ملامح ريفنا بطء التبدلات التي طرأت عليه منذ أعرق العصور حتى الآن** ، تستوي في ذلك الطرق والوسائل ونوع المنتوج ومردوده وحياة

المزارع وعاداته وأعرافه وذهنيته وقناعاته، والانطباع الذي يوحيه كل هذا هو الجمود والركود. وليس مجازاً تصويرياً مقارنة فلاحنا في القرن العشرين بفلاحنا في القرون الوسطى، في مشيته وهيئته وتعابيره وأدواته وطعامه ومسكنه.

والمتابعون لتاريخ اليقظات الانسانية يلاحظون ان الارياف هي مواطن السكون في كل انتفاضة حضارية، ومراكز الحركة تكون في المدن. ذلك ان الفلاحين في كل امة وفي كل زمان هم عاجزون عن التجديد والابداع. والعقل يجب أن يتحصر لكي يصعد الى القمم. والمخاطرة والمغامرة يرفضها الطبع الريفي لأنه يتهيب كل مجهول. والدرع الذي يقي الريفي من الغوائل هو التجربة العملية المكتسبة بالارث، اما التغيير فهو شبح غير موثوق قد يودي بالموارد ويحرم من المحصول. ولذا كان جميع المخترعات التي اقتبسها الفلاحون او فرضت عليهم انما جاءتهم من الخارج، اي من المدن المتطلعة المتصنعة. وهذا يعني ان النهوض بالريف يجب ان يبدأ بالمدن، ومصلحو الارياف هم في اكثر الاحوال من المتحضرين.

والنتيجة المنطقية لهذه الحقائق المدركة هو ان ريفنا السوري متخلف لأن المدن لا تقوم بواجبها الوطني والعلمي نحوه كما يجب ان يكون القيام بالواجب، متخلف لأن الحاكمين تركوه الزمن الأطول حبيس الجبرية الجغرافية، كما يكون السمك حبيس الماء. والسمك وحده لا يعرف انه مبتل، والريفي وحده لا يحس كم هو عبد المحيط الطبيعي لأنه جزء من المحيط الطبيعي.

●

تحت عنوان «مدن عامرة وقرى غامرة» كتبت عام ١٩٥٠ عن اضطراب التوازن بين ريفنا وأمصارنا (١) فقلت: ان المدن عندنا أشبه برؤوس ضخمة ترزح تحتها اجسام شاحبة ضاوية؛ واستشهدت بكلمة للفرنسي (جاك ويلرس) يقول فيها: «ان المدينة في سورية والشرق الادنى هي جسم طفيلي يعيش عالة على الريف، يستثمره ويحكمه. ان المدينة تأخذ الكثير ولا تعطي سوى النزر القليل..»

ومما يبعث على البهجة ان الامور اتخذت اتجاهاً مطمئناً منذ ذلك التاريخ، فهناك مدارس تقام في السهول والصرود، وآبار تحفر، واقنية تشق، وسدود تشاد، وكهرباء تعم، وأرض موات تصلح، ومزارع تردم، وملكية واسعة تفتت وتمنح لمن يسقونها بعرقهم، والتعاون يمتد، والبذور تجود، والصحة بسبيل التحسن..

غير ان جميع ما صنعنا حتى الآن لايجب ان يعتبر سوى تمهيد لما يجب ان نصنع. ذلك ان النقص كامل والجهد المبذول جزئي، والألوان الزاهية المضافة اضعف

(١) مجلة المعلم العربي. دمشق. عددا نيسان وتشرين الأول ١٩٥٠

من ان تغير معالم اللوحة القاتمة . ويظل صحيحاً مائة بالمائة ماقلت سابقاً : ان أوضح ملامح ريفنا بطء التبدلات التي طرأت عليه ؛ وازيد الآن : ضآلة الخدمات المقدمة له بالنسبة الى ضخامة الحاجات.

وقبل أن أبدأ بتخير الأمثلة لابد من أن ألح على **خلل مبدئي في تصميم غدنا ، وهو نقص المعرفة الاحصائية الموثوقة عن حاضرنا** . فنحن لانزال نرسم مشروعاتنا في ضوء معطيات عددية غير سليمة ، وبالتالي لانضمن الدقة في عملية البناء .

من ذلك اننا لاندري على وجه محقق كم هو عدد الريفيين في جمهوريتنا ، ونعني بهم اولئك الذين يستمدون جل مواردهم من نتاج الارض والماشية . والقياس الرسمي الذي لانزال نعتمده في التفريق بين الريفيين والمدنيين هو المقيـــاس الاداري . بمعنى ان المواطنين المسجلين في مراكز المحافظات والمناطق هم حصراً المدنيون في اعتبارنا ، مهما كان عددهم وحتى لو كانت الزراعـــة مرتزقهم الوحيد . وبالارتكاز الى هذا الاساس تكون تدمر مدينة اليوم لأنهـــا أضحت عاصمة منطقة ، وكانت بالأمس قرية عندما لم تكن سوى مركز ناحيــــة ... بالرغم من أن الطبيعة الاقتصادية والاجتماعية لسكانها لم تتبدل . وكذلك فان يبرود بألوف سكانها هي قرية ، والقطيفة وعين العرب ومنبج ويبرود وصلخد وشبها هي مدن لأنها عواصم مناطق ..

بمثل هذا التفريق الشكلي نقرر بأن عدد مدننا عام ١٩٦١ هو ثلاثة وأربعون ، يقطن بها نحو ١،٨٨١،٠٠٠ مواطن . وعلى هذا يكون رصيدنا القروي لذلك العام هو رسميـــاً ٣،٠٩٣،٠٠٠ ، يضاف اليهم ١٤٠،٠٠٠ من البدو الرحل الذين تشير المستندات الرسمية الى أنهم لم يدخلوا حتى اليوم في السجل المدني ، ويضاف اليهم أيضاً العدد الكبير من المكتومين .وحتى توضع النتائج النهائية لتعداد أيلول عام ١٩٦٠ تحت تصرف الباحثين لامحيد لنا من أن نأخـــذ بالنسبة الرسمية لسكاننا الزراعيين والرعويين وهي ٦٣،٠٢٪ من جملة السكان . وكذلك لامناص لنا في عرض نماذج التفاوت في الحظوظ بين قرانا وعواصمنا من استنطاق الارقام الرسمية المتصلة بالشؤون التي نتطرق اليها .

١ ــ الحظوظ التعليمية

قد لانتطلب أن تشتمل معاهدنا العالية على عدد متناسب من أبناء الريف وأبناء المدن ، وإن كان مبدأ تكافؤ الفرص يفرض علينا في أضعف حدود العدل أن نمنح الموهوبين من مواليد الأرياف فرصة الخلاص من ضريبة المولد والانعتاق من اسار التراب ، وإفادة الوطن بعبقرياتهم المنطوية ، عن طريق تخصيصهم باعانات مالية وافية تكفل لهم التحصيل في الجامعات .

وقد لانتطلب أيضاً مراعاة النسب العددية لابناء الريف وأبناء المدن في المدارس الاعدادية

والثانوية ، وإن كان في ذلك الحق والعدل والمصلحة الوطنية . وليس عسيراً ولا مرهقاً أن يكون في مركز كل منطقة ادارية مدرسة ثانوية داخلية مجانية لتعليم المتفوقين من طلاب القرى والدساكر .

ولكننا نطلب ، ونلح في الطلب الى أبعد مدى الالحاح ، أن يعم التعليم الابتدائي الالزامي المجاني في كل مكان ، وأن تشمل المجانية ، على الاقل ، الكتب واللوازم المدرسية إن لم تشمل الغذاء والكساء .

فهل حققنا هذا النصيب الأدنى أو دنونا من تحقيقه ؟

أخشى ، الخشية كلها ، أن نكون مبهورين بالنشاط التعليمي في العاصمة ومراكز المحافظات وأن يدفع بنا الوهم الى الظن بأن الحركة ذاتها تسود الارياف ، وحتى الارياف القريبة جداً من المدن . والنشرات الرسمية ، اذا درست بشيء من الصبر ، ترفع عن أعيننا تلك الغشاوة المضللة . ولن أستعين بها هاهنا الا بالقدر الذي يكشف إعياءنا في الوفاء بأبسط حقوق الانسان والمواطن ، أقصد التساوي المطلق في الزامية المعرفة الابتدائية بالنسبة الى ابناء الوطن جميعهم .

ولعل في مثال مدينة دمشق ومحافظتها ما نسترشد به في درب الانصاف والتشدد في العدل . والبيانات الرسمية تسجل أن سكان محافظة دمشق عدا المدينة يفوقون عدداً سكان المدينة ، ومع ذلك فان عدد الطلاب والطالبات في المدارس الابتدائية القائمة في المدينة يرتفع تقريباً الى ضعف ما عليه هذا العدد في المحافظة ... ، ويصل الفرق الى ثلاثة أضعاف تقريباً في تعليم البنات ...

فأين هو التطبيق القانوني لمفهوم العدالة والمساواة ؟ وكيف نوفق بين معنى الجدارة الانسانية وواقع التمايز الجائر في أقدس حق وطني ، حق التحرر من الامية ؟ وهذه هي الارقام الناطقة المذهلة :

	المجموع	الذكور	الاناث
سكان مدينة دمشق عام ١٩٦١ :	٥٠٧،٥٠٣	٢٥٩،٠٤٣	٢٤٨،٤٦٠
سكان محافظة دمشق عدا المدينة :	٥١٤،٥٧٨	٢٦٣،٢٠٠	٢٥١،٣٧٨
عدد الطلاب المنتسبين الى المدارس الابتدائية الرسمية والخاصة في مدينة دمشق :	٧٨،٦٧٨ (١٥،٥٪ من مجموع السكان)	٤٣،٨٦٨ (١٧٪ من مجموع السكان الذكور)	٣٤،٨١٠ (١٤٪ من مجموع السكان الاناث)

	المجموع	الذكور	الاناث
عدد الطلاب المنتسبين الى المدارس الابتدائيـة الرسميـة والخاصـة في محافظة دمشق عدا المدينة :	٤٧،٧٢٠ (٩،٢ ٪ من مجموع السكان	٣٤،٥٠٧ (١٣،١ ٪ من مجموع السكان الذكور)	١٣،٢١٣ (٥،٣ ٪ من مجموع السكان الاناث)

والأرقام الرسمية لعـام ١٩٦١ أيضاً ، بعد تحويلها الى نسب مئوية ، تفجؤنا بالصورة المفجعة التالية لمجمل الوطن العربي السوري :

	عواصم المحافظات	جميع سورية بما فيها مراكز المحافظات
نسبة الأطفال المسجلين في المدارس الابتدائية الرسمية والخاصة الى جميع المشمولين بسن الالزامية :	٧٧ ٪ (١٣،١ ٪ من مجموع سكان العواصم)	٥٦ ٪ (٩،٤ ٪ من مجموع سكان سورية)
نسبة البنين :	٩٠ ٪ (١٥،٣ ٪ من الذكور في العواصم)	٧٧ ٪ (١٣،١ ٪ من سكان سورية الذكور)
نسبة البنات:	٦٤ ٪ (١٠،٩ ٪ من الاناث في العواصم)	٣٣ ٪ (٥،٥ ٪ من سكان سورية الاناث)

وبأسلوب أكثر تبسيطاً نقول **ان أطفالنا الذين يتابعون الدراسة في المرحلة الابتدائية لايزيدون كثيرا من حيث الوسطي العـام عن نصف من يجب أن يتعلموا . ولكن النسبة قد تتدنى الى أقل من النصف في المحافظات التي يسود فيها المواطنون الريفيون ،** كمحافظة الرشيد مثلاً (٥،٥ ٪ من مجموع السكان = ٣١،٧ ٪

ممن هم في عمر التحصيل الابتدائي) ، بينما تقفز الى نحو الثلثين في محافظة يسود فيها عددياً السكان المدنيون (يتعلم من ابنـاء محافظة دمشق مع المدينـة ١٢،٤ ٪ من السكان = ٧٢ ٪ من المشمولين بالالزامية) .

وتعليم البنات هو بوجه عام أضعف كماً من تعليم البنين في جميع محافظات سورية ؛ وثلث بناتنا فقط يذهب الى المدرسة الابتدائية ، بينما يتابع التحصيل الابتدائي من البنين ثلاثة أرباعهم

ولذا نقول مع الأسى ان الأمية تزداد انتشاراً بين نساء بلدنا بوجه عام ،

وإن كان ذلك لا يصـدق في عواصم المحافظات . وفي محافظة الرشيد — حيث لاتزيد نسبة السكان المدنيين عن ٩،٥ ٪ — نلحظ أن عدد البنات المسجلات في المدارس الابتدائية لا يجاوز ٩ ٪ من البنات في سن التحصيل الابتدائي ، أي ١،٤ ٪ من مجموع نساء المحافظة .

وهذا مثال أخير غني عن التعقيب ، نسوقه بسبيل وضع الأصبع فوق عوامل الفرقة في تمازجنا الثقافي :

عام ١٩٦١	محافظة دمشق مع عاصمتها	محافظة الرشيد مع عاصمتها
عدد السكان في مقابل كل معلم ومعلمة في التعليم الابتدائي الرسمي :	٣٤٦	٨٠٢
عدد السكان الذكور في مقابل كل معلم في التعليم الابتدائي الرسمي :	٣١٤	٤٨٩
عدد السكان الاناث في مقابل كل معلمة في التعليم الابتدائي الرسمي :	٣٨٨	٢٤٦١

ومن يستطيع الاقتناع بأن توفير العـدد الضروري من المدرسين والمدرسات لكل قرية مطلب معجز ؟ انه لأقل من القليل تأسيس معهد مختصر للمعلمين وآخر للمعلمات في مركز كل منطقة لتابعه ويعيش فيه بالمجان طلاب القرى المجاورة وطالباتها بعد اتمامهم التحصيل الابتدائي . وجميع البلدان التي جازت طور التخلف الى طور التقدم اعتمدت في مرحلة الانتقـال اسلوب الاعداد المعجل للمعلمين .

٢ ـ الحظوظ المعاشية :

جاء في التقارير الحكومية أن الدخل الزراعي القطري لعام ١٩٦١ هو ٨٠٥ مليون ل . س ؛ فاذا افترضنا ان هذا الدخل هو من نصيب سكان الأرياف وحدهم ، لايشارك فيه الملاك من ابناء المدن ـ وهو افتراض لاأساس له من الصحة ـ ، وجدنا أن الدخل الفردي لكل مواطن مزارع لم يزد في تلك السنة عن ٢٦٠ ل . س . ويعني ذلك ، بكل مافي الحساب من بساطة ، ان الفرد الفلاح يجب أن يتدارك غذاءه وكساءه ومسكنه وسائر احتياجاته بمبلغ اجمالي عام قدره ٧٠ قرشاً سوريا في اليوم ...

ولابد من التذكير بأن هذا النصيب اليومي الزهيد مرتبط ايضاً بتزوات الطبيعة ، وبالتالي غير مضمون على الاطلاق . ولقد هبط عام ١٩٦٠ مثلا الى ٥٧ قرشاً في اليوم ..

ولنأخذ الآن القطاعات الأخرى ، الصناعية والتجارية والحكومية وغيرها . وقد قدر دخلها لعام ١٩٦١ بمبلغ ١٥٠٢ مليون ل . س . ولايشك أحد في أن هذا المورد الكبير نسبياً هو من نصيب أهل المدن وحدهم ، فنصيب الفرد منهم وسطياً ١٠٢٥ ل . س أي نحو أربعة أضعاف حصة الريفي . وكانت مديرية الاحصاء السورية قد قامت عام ١٩٥٦ بدراسات ميدانية على دخل الاسرة في مدينة دمشق ، فتحرت أحوال عيلات مختلفة من السكان ، وانتهت الى أن المستوى المعاشي الوسطي للأسرة في المدينة يقدر بنحو ٤٢٧ ل . س شهريا . فاذا اعتبرنا الاسرة مؤلفة من خمسة أفراد يكون الدخل الفردي وسطياً نحو ٨٥٦ ل.س في السنة أو ٢٣٢ ق.س في اليوم .

وماكان هذا الواقع المفضوح يحتاج منا الى برهان . ومادام جذعنا المندس في الارض مبتلى بالجمود واليبس فلا رجاء لاغصاننا أن تسمق وتعطي الثمر النضير .

والمعول عليه في النهوض بالمستوى المعاشي القروي هي امور ثلاثة رئيسية :

آ ـ الارتفاع بمستوى الوعي عن طريق التعليم .

ب ـ التوسيع الافقي للزراعة بزيادة المساحة المزروعة وتعميم الري الدائم .

ج ـ التوسيع الرأسي للزراعة ، اي تحسين المردود باستخدام الأسمدة والادوات الحديثة وتجويد البذور والغراس وتنظيم الدورة الزراعية .

أما التعليم فقد رأينا البطء في انتشاره وحاجته الى الامتداد الذارع ، وأما التوسيع الافقي للزراعة فهو حتى الان يكاد يراصف التكاثر المطرد في عدد الافواه الآكلة ، ولايترك مزيداً لتنمية الدخل . فبين عامي ١٩٤٧ و ١٩٦١ ازداد عدد سكان سورية بمقدار

١٦٩٢٩٠٠٠٠ نسمة ، وازدادت الرقعة المزروعة فعلا ١٢٥٠٠٠٠٠٠ هكتار ، اي أن نصيب المواطن من الأرض المنتجة كان ولايزال ٠٫٧٦ من الهكتار . ولئن ارتفعت نسبة المساحة المزروعة سقياً بين العامين المذكورين من ١٢٫٨٪ الى ١٤٫٢٦٪ من مجموع الأرض المزروعة فان المحصول الزراعي بكثرته الكبرى لايزال عالة على رفد السماء . والسماء تتأرجح في رحمتها من سنة الى أخرى . وصحيح انه اصبح لدينا عام ١٩٦١ جرار آلي لكل ٧٣٠ مواطن (في الاتحاد السوفيتي جرار لكل ٢٢٠ مواطن) ، الا ان معدلنا الانتاجي لايزال من اضعف المعدلات العالمية ، ولم يزدد أي ازدياد منذ عشرات السنين . ففي البلاد المتطورة تصل غلة الحنطة مثلا الى ٢٢ كنتال بالهكتار ، وغلتنا قد تعلو الى ٦ أو ٩ وتهبط الى ٣ كنتال بالهكتار . وتاجنا من القطن في الوحدة المساحية ذاتها لايبلغ الى ثلث او ربع ماينتجه الهكتار في البلادذات الزراعة المصنعة كالولايات المتحدة الامريكية .

وقد يبدو ان الارتقاء الزراعي يعتمد قبل كل شيء على السخاء في بذل المال . والمهم ان ندرك شأن الارادة والتنظيم والعلم والتوجيه في التخفيف من ضرورة المال **ولامناص لنا على كل حال من حصر حاجاتنا الملحة وترتيب الانفاق عليها وفقاً لتخطيط الاولويات .** وفي كثير من البلاد حشدت ممكنات الدولة ، عزماً ومادة وعلماً ، في تنفيذ مشروع متكامل لانعاش الريف على مدى عدد معين من السنوات . وقد يكون مرتكز هذا المشروع صندوق خاص ترفده نسب مقدرة من حصيلة الضرائب والجمارك والرسوم المتنوعة .

ولابد ايضاً من اجتناب الخطر الاكبر في مثل هذه المشروعات وهو ان تمتص رواتب القائمين على الادارة وتقديم الخدمات الجزء الاوفى من الموارد المخصصة أصلا للانعاش والخدمات .

٣ ـ الحظوظ الصحية :

نعمة العافية ، كنعمة العلم ، تحتكرها في بلادنا طوائف المواطنين المتجمعين في المدن ، لاسيا اولئك الذين كتب لهم أن يعيشوا في عواصم المحافظات الكبيرة . وقد يكون هذا الاحتكار باعثاً على الأسف والأسى ، بل هو كذلك على التحقيق ، ولكنه ليس موضع استغراب بحال ما. والصحة كما نعرف طرف معادلة رياضية تجمع بين الوعي وارتقاء مستوى المعيشة وتواجد الطبيب والمشفى والدواء . وجميع هذه العناصر يفتقر اليها الريف السوري بقدر مايفتقر الى النظافة والماء النقي والمسكن اللائق .

في البلاد المتقدمة يهرع الناس الى المعيشة في الريف لينعموا بطول العمر ، وفي بلادنا لايختصر أمل الحياة الا في الارياف ...

تحت يدي تقرير مطبوع عام ١٩٤٥ لمديرية الصحة والاسعاف العام ، وكانت تابعة لوزارة الداخلية حينذاك ، أقرأ فيه ان عدد أطباء الجسم المسجلين في سورية لم يكونوا يبلغون رقم ٦٠٠ ، أما الآن ـ عام ١٩٦١ ـ فقد اصبح تعدادهم ١٠٠١ ، وبعملية بسيطة نستخلص أن جهازنا الطبي ينمو سنويا بمعدل ٢٤ طبيباً ، بينا نحن نتزايد سنويا بمعدل مائة ألف ...

محافظة الحسكة كان سكانها ١٤٩,٠٠٠ عام ١٩٤٥ فارتفعوا الى ٣٠٥,٠٠٠ عام ١٩٦١ ، وفي الوقت ذاته ارتفعت ثروتها بالاطباء من ١٤ الى ٤٥ ... فهل تسمي ذلك خطو عملاق أم دبيب سلحفاة ؟ !

ومحافظة درعا تضخم عدد أطبائها الصحيين في الأمد ذاته من ٩ الى ١٣ ... فكان فيها مقابل كل طبيب ١٢٩٠٧ من المواطنين ، وأصبحت النسبة الآن بعد سبعة عشر حولا : طبيب لكل ١٦٠٤٩ من المواطنين ... فهل من الممكن أن يكون لهذا الوضع اسم غير التقدم الى الوراء ... أما محافظة دمشق ، حيث تربض المدينة العاصمة ، فقد ازداد فيها الاطباء من ٣١٧ الى ٤٥٠ ؛ وهكذا ارتفعت نسبة المواطنين فيها مقابل الطبيب الواحد من ١٩٧٢ سنة ١٩٤٥ الى ٢٢٧٢ عام ١٩٦١ .

ان العوز الى الاطباء تشتد حدته اذن عاماً بعد عام .فأين التنهيج ، وأين التخطيط التعليمي المتماسك مع التخطيط الاجتماعي ؟؟

ومهما يكن من أمر ، فان التمايز في امتلاك الاطباء ضخم ، وضخم جداً ، بين محافظة يكثر فيها سكان المدن ومحافظة أخرى ذات مجتمع ريفي غالب . فبينا المعدل الوسطي لسورية جميعها يصل عام ١٩٦١ الى ٤٩٦٧ ساكن مقابل طبيب واحد ، نجد هذا المعدل يرتفع الى ١٣٤٦٤ في محافظة الرشيد و ١٤٧٤٢ في محافظة ادلب و ١٦٠٤٩ في محافظة درعا و ٢٨٩١١ في محافظة السويداء .

ويجب أن نعترف لوزارة الصحة بالكثير من الجميل ، لتوزيعها أسرة مشافيها بنسب متقاربة في المعدل بين مراكز المحافظات ، رغم أن التفاوت لايزال يصل الى ضعفين او ثلاثة من ناحية المقابلة بين عدد الأسرة وعدد السكان ، ورغم أننا لانعثر في النشرة الاحصائية الرسمية على ذكر لسرير أو لمشفى في محافظة الرشيد .

يبقى أن نقول : ان المشافي كلها تقريباً مقامة في عواصم المحافظات ؛ وقد لايمتلك القروي

المريض أية قدرة مالية أو جسمية على الانتقال اليها من مثواه البعيد . ويبقى أن نقول أيضاً أن نسبة سرير واحد لكل ٩٠٠ مواطن في سورية تفوق النسبة المثلى بخمس مرات . ومن العدل أن تعمم نسبة مدينة دمشق (سرير واحد لكل ٢٧٦ مواطن) في مراكز سائر المحافظات والمناطق والنواحي .

أما مشكلة الاطباء فالطريق الى حلها أن توسع طاقات معاهدنا الطبية ، وأن يقلب فيها - ولو موقتاً - اسلوب قبول الطلاب من الاصطفاء بتسلسل الدرجات الى الاصطفاء على أساس المحافظات وفقاً لتسلسل حاجاتها . والمعوزون من الطلاب تتعهدهم الدولة بالمساعدة ، لأن الفقر لايجب أن يكون حاجزاً عن تنمية الفكر في بلد يدين أهله بالولاء لعقيدة العدل في الحظوظ .

تخطيط التخطيط

وها نحن اولا نعود الى ما انطلقنا منه ، وهو ان الديمقراطية تقيد قبل أن تكون أي شيء آخر : تقيد بالعلم وبالفضيلة ، بالتقدم وبالعدل .

والتقيد ليس بالنسبة الينا بدعة مستحدثة تحتمل المناقشة واختلاف وجهات النظر ، فان تراثنا العربي ينطوي في مضمونه كله على القيد والتنظيم ، وتوثيق التماسك المتزن بين متطلبات الجسم ودواعي العقل ونوازع الروح في بنية الفرد ، وبين مستلزمات العدالة والتكافل والرغد العام في قوام المجتمع .

والتخطيط هو في مبناه تقيد الدولة والمجتمع والفرد بتجويد الحاضر وتوجيهه نحو مستقبل امثل فأمثل . وان التخطيط الناجح هو الذي يعمد التسوية على النواشز ويزيل التناقضات ويسمح بأعظم استفادة من الطاقات العلمية والفنية والروحية في سبيل السمو بكرامة الانسان .

واذن ، يجب ان نفسح الميدان للتقنية العلمية ، بشرط ان يكون لها مفعول اجتماعي واخلاقي ، وان لاتكون قوة جديدة بيد القوي وحده وثراء مضافاً للثري على حساب المستضعف القديم .

وأعيد القول مرة اخرى ان التخطيط هو قبل كل شيء رسم للاولويات ؛ وبذلك يجتنب التبديد في الجهود والأموال . فقد يكون بناء مدرسة او مشفى خير في مرحلتنا الحاضرة ، بل وفي كل مرحلة ، من تشييد مسبح او فندق او ملهى ، وليس مقبولا ان نضج مدنتنا بالمباهج وتستنيم قرانا في احضان العدم والحاجة والظلام .

●

الجامعيون... والتفرغ للبحث العلمي

للدكتور عزة مريدن

المعرفة : تدعو الحكومات والمثقفين الى هذا الموضوع

للجامعة رسالات عديدة ، عليها ان تحققها للمجتمع الذي تقوم فيه، لعل أهمها ثلاث : التحصيل العالي ، والثقافة العامة ، والبحث العلمي ، ولئن قضي على الجامعات في أوائل العهد بتأسيسها ، أن تكون مصانع لتخريج عدد من المثقفين ثقافة عالية ، يملأون المراكز التي تحتاج اليهم في العهود الانشائية ، فتجعل من الجامعيين ، حملة شهادات تستخدم جوازاً للمرور الى وظيفة أو وسيلة للاسترزاق ، أو لثقافة عالية كثيراً مايظل حاملها مكتفياً بما تلقاه على مقاعد الجامعة ، متمتعاً بحياة ثقافية رتيبة ، لايزيدها شيئاً ولا تزيده - فلئن اذا كانت الجامعات مضطرة في العهد

الاول من انشائها ، لأن تكون مصنعاً للخريجين ، فانه لا يصح ابداً ان تستمر كذلك ، ذا ماتوفرت لديها وسائل الدراسة الواسعة ، وأدرات البحث العلمي والثقافة العالية . واذا كانت تقاس ثروات الامم ، فيما مضى من الزمن، بما في أرضها من كنوز وخيرات ، فانما تقاس اليوم بعدد العلماء والجامعيين والباحثين والمنتجين كماً وكيفاً ، وبما يقوم في عقول هؤلاء جميعاً من اتساع في آفاق الفكر ، ومثل عليا قيمة ، تكون المحور الذي تدور حوله حياة الأمة التي يعيشون فيهـــا ، في حاضرها القريب ومستقبلها البعيد ، في سمعتها ومنعتها ومركزها بين الامـم ، في قدرتها على الحياة والاستمرار في معارج النهوض ، حتى تكون سيدة نفسها وأمثولة ناطقة للامم الحية الراقية . ولكن ماهي الاهداف البعيدة ، التي يجب ان ترمي اليها الجامعة ، من وراء العلم والثقافة ؟ فأما اذا كانت الغاية منحصرة في إعداد الخريجين الذين يحملون الشهادة العالية، فان الهدف يظل ضيقاً محصوراً بفئة معينة من الشباب، قد لا تكون غايتهم من التحصيل الجامعي ، اكثر مما ذكرنا في المرور الى وظيفة، او السعي وراء مرتزق، او المتعة واللذة بالعلم، وهذا نادر جداً. اذ لا تكون للعلم لذته الكبيرة مالم تتسع آفاقه وتنمو غاياته وتكبر نتائجه ، ومن هنا برزت فكرة البحث العلمي في النطاق الجامعي ، وهو الهدف الأجل والغاية الأسمى في اطار الاهداف والغايات الجامعية ، وعلى الجامعيين ان يؤمنوا في قرارة نفوسهم ، ان واجبات كبرى تنتظرهم نحو العلم والعالم والانسانية جمعاء ، وإنما يطلب العلم العالي ، ليكون اداة فعالة للملاءمة بين صاحبه وبين المحيط الذي يعيش فيه ، وليحدد به مكان نفسه ومكان أمته في المجتمع الانساني ، وليقوى ببأس وشدة ، على تسخير ماحوله من وسائل وامكانات في سبيل سعادتـــه وأمنه وسلامته ، حتى اذا تحقق له ذلك شعر شعوراً غريباً وبلذة لا تعد لها لذة ، بأنه قد قام بواجبه لاسعاد نفسه وبني قومه والناس اجمعين.

ولا يتم هذا كله إلا بالانكباب على البحث العلمي والعمل على ابداع قوى جديدة ، تضاف كل يوم ، الى ماتفتقت عنه عقول العلماء والباحثين، فكيف يتحقق للجامعيين ذلك ؟

لا أريد أن أبحث الموضوع بصورة عامة ، بسبب الاختلاف الكبير بين حاجاتنا وحاجات الامم الاخرى ، وإنما أحب ان أنظر لهذا الأمر على صورته الموضوعية ، فنحن ما زال بحاجة قصوى الى عدد كبير من الأساتذة والأطباء والمهندسين والعلماء والمعلمين ، وما لم نسدد جهودنا الكبرى — نحن الجامعيين — نحو تقديم الاعداد اللازمة من هؤلاء جميعاً ، الى الامة التي هي بأشد الحاجة اليهم ، فاننا لا نستطيع ان نشرع مشروعا وافياً بالغرض في القيام بأبحاث علمية هامة ، وفضلاً عن ذلك ، فان البحث العلمي ، يتطلب تخصصاً ضيقاً بعد الثقافة العامة مازلنا عاجزين عن اللجوء اليه ، لاسباب عديدة ، لعل أهمها نقص العدد الكافي من الأساتذة ، واضطرار القائمين على التدريس الجامعي ، الى الاحاطة بكل كبيرة وصغيرة تتعلق بموضوعاتهم التي يحملون أعباءها ، وليس هذا لعمر الحق ، هنة في وقتنا الحاضر ، بل محمدة أخذ العلماء والباحثون يدعون اليها ، ليعيدوا الى الثقافة العامة بهجتها السابقة ، يوم كان العالم الواحد ، ملماً بأطراف كثيرة من الموضوعات المختلفة ، يوم كان ابن سينا مثلاً ، فيلسوفاً وطبيباً وموسيقياً وشاعراً ومؤلفاً كبيراً ، ويوم كان العالم نيوتن حجة في الفيزياء والميكانيك والرياضيات وغيرها ، ويوم كان كذلك كثيرون وكثيرون ممن عرفنا وممن طوى التاريخ اسماءهم وأفعالهم ـ وفي المحاضرة التي القيتها على مدرج جامعة دمشق ، عن فضل العرب على الانسانية في الميادين العلمية ، اوردت عدداً ضخماً من علماء العرب الاعلام ، الذين كانوا منارة الهدى في ايامهم ، وكانوا يجمعون الفلسفة والدين والادب الى الطب الموسيقي والرياضيات ويجمعون الفلك والهندسة والكيمياء الى جانب الشعر والطب والفلسفة ـ

على أن الاختصاص الضيق بعد الثقافة الواسعة ، يصبح ضرورياً للراغبين في ورود مناهل البحث العلمي ، إذ أصبح لكل علم أقسام كثيرة ، ولكل قسم اصول وفروع ، ولكل أصل أو فرع ، بحوث مختلفة ونواح عديدة ، وبتنا نرى في كل العلوم ، البحثة والتطبيقية ، من احاط نفسه باختصاص ضيق وضيق جداً ، ليسهل عليه النفوذ الى ناحية معينة من النواحي التي ارادها لبحث علمي ، وما من شك في ان هذا الاسلوب ، من الاختصاص الضيق ، قد خدم النهضة والكشوف والبحوث العلمية ، خدمة كبرى في مجالات كثيرة ، علمية وفنية وصناعية وزراعية واجتماعية ، وليس يمنع هذا ، مطلقاً ان يكون الاختصاص الضيق ، وليد اختصاص واسع وثقافة عليا بل هو كذلك في الواقع ، وهذا ما يجب ان يكون ، ولئن كنا نشاهد في بعض الامم اليوم ، كالأمتين الاميركية والروسية ، من يحاول ان تبقى الثقافة أيا كان نوعها ، محصورة في إطارها الضيق الممعن في الضيق ، فانها مع ذلك تحاول ان توسع هـذا الاطار الضيق في حدود الموضوع نفسه ، بحيث يكون الاختصاص الضيق علامة في الفرع الذي أحاط به نفسه ، لا يجاريه مجار فيه ، اما اذا خرج عن دائرته فانه يكاد يكون غريباً عن كل شيء آخر ، بل يكاد المشتغلون على هذا النحو يشبهون في عملهم آلة صماء ، تدور في دوامة ، لتصل الى انتاج قد يحمل طابع الجدة والابتكار . وبذلك ، كما نعتقد ، اسلوب الثقافة الواسعة العامة اولاً ، فالاختصاص الضيق بعد ذلك ، أجدى وأنفع لخير الانتاج والبحث العلمي ، لان الثقافة الواسعة العامة ، التي لا بد لتكونها من شروط وصفات عقلية وفكرية تظل المنطلق الاكبر ، نحو الشمول والاتساع الافق في العاميين ، الذين يتمتعون بتكوين عقلي سليم واستقامة في التفكير ونظرة موضوعية للحقائق العلمية الثابتة ، اذ لا بد في جميع ذلك ، من اقامة رباط بين الثقافة العامة والثقافة الخاصة ، وبين الحقائق التي ظلت ثابتة بعض الزمن ، ثم علاها التاريخ ودخلت في باب الخرافات

والاوهام . والجامعي الحق هو الذي يتابع بأستمرار ، تطور العلوم التي يعمل فيها ويساير ركب الزمن في هـذا التطور ، ويقبل على كل مستحدث فيه ، وبذلك يستطيع إساغة اختصاصه ، ويجعله جزءا لا يتجزأ من كيانه ووجوده ، فيسبيل الوقوف على المعرفـة الانسانية والقضايا العلمية الكبرى ، وأثرها العميق في حياة الانسان وتفكيره . ولا يمكن ان نتصور عالماً في الكيمياء ، لا يعرف أين وصل العلم بالذرة وتفكيكها ، ولا عالماً بالفيزياء ، لا يعرف طرق الاستفادة من الطاقة الشمسية ، ولا طبيباً كبيراً ، مهما كان علامة في فرعه ، لم يحط بالقدر اللازم عن السرطان وعوامل تكوينه وطرق مكافحته . وفوق ذلك كله ، فان العلم لم يعد في وقتنا الحاضر ، محصوراً في دائرة — محدودة ، ذات قواعد ثابتة لا تتغير ، ففي كل يوم كشف جديد ، وفي كل عام آراء ونظريات مستحدثة ، قضت على الكثير الكثير مما كان الى عهد قريب ، معدوداً بين الحقائق العلمية الثابتة ، فلا بد اذن ، ان يكون الجامعي منسجماً مع مستوى الزمن الذي يحياه ، وان يكون ملماً بكل القيم الجديدة التي ينغمس فيها عصره ، لا في بيئته المحدودة وحدها ، بل في كل ما يجري على سطح هذه الارض ، إذ المعرفة كل لا يتجزأ ، ووحدة تتصل جميع أطرافها بعضها ببعض ، والعلماء الجامعيون هم القادة في مصنع الرجال ، وعلى قدر ادراكهم لبواطن العلوم وظواهرها ، يكون ادراكهم لمشاكل أمتهم وبني قومهم ومشاكل البشرية جمعاء وبمقدار ما يقبلون على البحث العلمي ويتعمقون في اسرار العلم ومعطياته ، تكون قدرتهم على أداء رسالتهم في الحياة أعم وأشمل ، وأقرب الى الحق والكمال .

ولنعد بعد هذا ، الى الهدف الذي صوبنا نحوه ، وهو البحث العلمي وتفرغ الجامعيين له ، لنرى شروطه ووسائله وامكانات تطبيقه ؛ قلنا أن البحث العلمي يعد من الاهداف الهامة للجامعة والجامعيين ، ومهما علا شأن التعليم الجامعي ، وارتفعت

مكانة الخريجين ، فان الجامعة تظل بعيدة عن أهدافها السامية ، مالم تصدر عنها مايدل على تعلق الاساتذة بالبحث العلمي ، وقيامهم ببحوث وتجارب ، يكون لها صداها العلمي وفوائدها ، للعلم عامة ولحاجات البلاد التي تقوم عليها الجامعة خاصة . فالمشاكل الصناعية والزراعية والكهربائية والاجتماعية والتعليمية ، يجب ان تجد حلولها الاولى في محيط الجامعة قبل سواها ، ولابد لجعل هذه الحلول ايجابية مثمرة من أن تستند الى اسس علمية صحيحة ، تتطلب من الباحث جهداً ودقة ودأباً طويلاً ، ولايمكن أن يتوافر للجامعي كل ذلك ، مالم ينقطع للبحث ويتفرغ له تفرغاً كافياً ؛ ولئن كانت المؤسسات الصناعية والكهربائية والكيمياوية وغيرها، تحقق للباحث في البلاد الراقية ، المخابر اللازمة للدرس والبحث والانتاج، فان الوسط الجامعي يجب ان يظل المكان الافضل للبحث العلمي ، هذا البحث الذي لابد ان تتم فيه شروط التفرغ حتى يؤتي الثمرة المطلوبة ، فكيف يمكن تحقيق هذا التفرغ؟ ليس يعني التفرغ دائماً أن ينقطع الاستاذ أو الباحث ، انقطاعاً تاماً للعمل الذي يقوم بحثه عليه ؛ بل لابد أن تبقى بينه وبين الحياة الجامعية العامة، صلة ولو صغيرة، فالجامعيون الباحثون في البلاد الراقية ، لايكلف احدهم باكثر من ساعة اوساعتين من التدريس الاسبوعي ، وذلك في خلال ٢ — ٣ شهور في السنة ، وأما مابقي من الوقت ، فيقسم بين المحاضرات العامة التي يلقيها في البلاد التي تدعوه اليها للاستفادة من معارفه وبحوثه ، وبين التفرغ للكشف والبحث العلمي في مخبره الجامعي ، أو في أي مخبر آخر يصلح لهذا الغرض .

أما شرط هذا التفرغ ، فنجملها فيما يلي :

١ — ان يبدأ الباحث حياته العلمية ، بملازمة من سبقوه للكشف والبحث ، حتى يتعلم اساليب هذا البحث ، ثم يعمد الى ممارسته بنفسه ، في ضوء

تجارب الآخرين واعمالهم ، وبذلك قد يستطيع ان يضيف الى ماجاء به غيره ، شيئاً جديداً .

٢ ـ لايمكن ان يتم البحث العلمي الا في مخابر تتوافر فيها وسائل البحث بشكل مستقيم ، حيث يجد الباحث جميع مايحتاج اليه من أدوات ومواد وأجهزة كافية وحيوانات تجربة ، ومكتبة كبيرة تضم احدث الكتب والدوريات العلمية ، للرجوع دائماً الى ماعرفه ونشره السابقون في الموضوع نفسه ، بالاضافة الى عدد كاف من المساعدين الفنيين والخريجين الذين ندبوا انفسهم للبحث العلمي .

٣ ـ يجوز ان يقوم الباحث بتجاربه في مخابر غير جامعية ، كشركات الكهرباء اوسكك الحديد أو المؤسسات الميكانيكيه اومعامل السيارات اومراكز الطاقة النووية او المراكز القومية للبحوث ، او أي مؤسسة أخرى من مؤسسات البحث العلمي ، وكذلك في المستشفيات والعيادات والمخابر الكيمياوية أو الجرثومية ومراكز الطب الشرعي ومخابر علم النفس وسواها مما هو ملحق بالوزارات المختلفة او بالشركات الخاصة التي تسعى لتحسين الصناعة وادخال طرق جديدة عليها .

٤ ـ يختلف الامر بالنسبة للبحث الطبي ، ولا سيما مايتعلق بالمعالجات الدوائية الحديثة ، وبدراسة السرطان والامراض المستوطنة ، بين الأمم المختلفة التي تتسابق كثيراً في هذا المضمار . ففي فرنسا مثلاً ، تبذل الدولة الجهد الاكبر للقيام بهذه البحوث والدراسات كما تقوم المخابر والمؤسسات الخاصة بجزء غير قليل ايضاً ، وأما في البلاد الامريكية والدول الانكلوسكسونية ، فان الشركات والمؤسسات والمعامل والاثرياء ، هي صاحبة الحظ الأوفر بتمويل مشاريع الكشف والبحث المختلفة ، وذلك لتستفيد فيما بعد ، من النتائج العلمية التي أفضى

اليها البحث المطلوب ، وليستفيد العلم والناس جميعاً ، ويعتبرون عملهم — في كثير من الاحيان — احساناً واجب الأداء .

٥ — لا بد لتحقيق العمل المثمر لدى الباحثين ، من ان تحقق لهم شروط مادية ملائمة يحيط بها الكرم والسخاء على اوسع نطاق ، بحيث يحيا الباحثون حياة كريمة فيها كل اسباب الرفاه والهدوء النفسي ، وفي البلاد الراقية تكاد تكون الشروط المادية التي تصيب الباحثين خيالية جداً ، ولا سيما في امريكا وروسيا وغيرها من الامم الراقية ، حتى ان الجامعات هناك ، كثيراً ماتضم الى حظيرتها ، بعض الباحثين غير الجامعيين ،للاستفادة مما قاموا به في المراكز غير الجامعية ،من كشوف وبحوث هامة ، ثم تتدفق عليهم العز والاكرام والمال الوفير . وتحيطهم بكل اجلال وتعظيم ، وبدون هذا لايمكن ان يتفتح ذهن الباحث ، ولا أن تصفو قريحته ، لانه بغير ذلك ينصرف الى التفكير في تدبير مشاكل معيشته وتربية اولاده ، وشؤون حياته الخاصة وهذا مالا يتفق مع اساليب البحث العلمي وشروطه .

٦ — لا بد لتحقيق الغاية من البحث العلمي ، ان تقوم عليه هيئة تشرف على تسيير البحوث وتوجيهها ينتخب اعضاؤها ممن سبق لهم القيام بأعمال البحث في المراكز الهامة ، وهم الذين يشرفون على الباحثين البادئين ، سواء من شاء منهم الحصول على شهادات أعلى ، كالدكتوراه في الاختصـــــاص ، أو من كانوا من تلك النخبة الخيرة ، التي نذرت نفسها للبحث العلمي .

يتبين من جميع ذلك ، ان البحث العلمي ، ليس تسلية ولا ملهاة ، وانما هو عمل جدى ، يهدف الى غايات سامية نبيلة ، تضيف الى العلم الحاضر ، حقائق جديدة ، تضم الى الحقائق العلمية المقررة ، وتؤدي للعالم خدمة انسانية كبيرة ،

وفوق ذلك ، فهي ترفع من شأن الباحثين ، وشأن الأمة التي ظهرت فيها الكشوف الجديدة ، وتعلي قدرها ومكانتها بين الامم .

ولئن كنا وكان العرب جميعاً ، من الأمم المتخلفة بعد في مضمار البحث العلمي ، فان ماضينا يدل على طول باعنا بين الأمم في ذلك العهد ، ولا بد ان يعيد التاريخ نفسه ، حتى اذا تحقق ايفاد عدد كاف من الشباب الجامعيين ، في الفروع والاقسام المختلفة ، الى حيث يرون ويمارسون اساليب البحث العلمي ، وأقيمت في جامعاتنا وسائل البحث وأجهزته وادواته ، وتفرغ فريق غير قليل من الاساتذة الحاليين ، بعد ان تتوافر لهم الشروط المادية اللائقة ، باكرامهم وتزويدهم بالفنيين والشباب المؤمنين بفائدة البحث العلمي وضرورته ، وتحققت لهم كل الشروط الأخرى التي اوردتها ، فحينئذ لا تبقى هناك حجة قائمة للعزوف عن الانخراط في هذا السلك الذهبي الثمين ، وقدلا يمر وقت كبير بعدئذ ، حتى نرفع رؤوسنا عالية ببحوثنا وكشوفنا العلمية الهامة .

العلم الحديث
وأثره
في المجتمع

للدكتور كامل عياد

التفكير العلمي الذي نريده هو تفكير علمي ايضاً . ولذلك يجب التخلي عن التلاعب بالمفاهيم المجردة.

كان اليونانيون القدماء ، باستثناء (آرخميدس) ، يقصدون بالعلم المعرفة النظرية وحدها . لقد كان المجتمع قائماً على نظام الرق الذي يساعد أقليةمن الأحرار على أن يعيشوا في رفاهية باستثمار جهود الآخرين . فكانت الأعمال اليدوية محتقرة، ولم يكن هناك أي اهتمام بالفنون التطبيقية . وهنا يكمن أهم عامل في توقف التقدم العلمي لديهم بعد فترة قصيرة من الازدهار .

وقد أراد أجدادنا العرب أن يجمعوا بين المعرفة النظرية والتطبيق العملي ولا شك في أن علماءنا القدماء قد أحرزوا نجاحاً كبيراً في هذا الميدان وقاموا بكثير من المشاهدات والتجارب العلمية وتوصلوا الى اختراعات هامة في الهندسة

والميكانيك . ولكن من المؤسف ان الاتجاهات الغيبية استطاعت السيطرة في آخر الأمر . فظل أكثر العلماء العرب يخلطون بوجه عام ، بين العلم الصحيح وبين العقائد السحرية والخرافية ، عدا أنهم أخذوا يوجهون اهتمامهم الى مسائل لم يكن التطور العلمي ليسمح بعد بالتفكير في حلها ، مثل صنع الذهب من المعادن غير الثمينة أو تربيع الدائرة أو الحركة الدائمة . لذلك وبتأثير عوامل أخرى ، سياسية واجتماعية ، توقف التطور العلمي عند العرب وظلت الفنون الصناعية في مرحلة الطفولة .

وفي أثناء ذلك استيقظت البلاد الاوربية ، بعد احتكاكها بالعرب ، وبدأت في اقتباس الفلسفة والعلوم عنهم ، ثم أقدمت على إحياء التراث القديم، وسارت في طريق النهضة والتحرر .

كان في مقدمة الذين تحرروا على الطريقة « المدرسية » القديمة الفيلسوف والسياسي الانكليزي (فرانسيس باكون) في اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر . وهو من أبرز الممثلين للتفكير العلمي — الانتقادي الذي كان له تأثير كبير في العصور الحديثة . وقد قال (باكون) : إن الثقافة ليست مجرد زينة أو وسيلة للتفاخر . إنها ليست نزعة الى الجدل والى الالاعيب اللفظية وإفحام الخصوم . إنما الحكيم ، في رأيه، هو الذي يستفيد مما درس وتعلم . فالمعرفة لاتفيد بذاتها ، بل ينبغي أن نكون قادرين على تطبيقها عملياً . وبذلك يصبح العلم قوة . وقد أدرك (باكون) بوضوح أهمية العلم في الصناعة وفي الحرب ، ودعا الى الاعتماد على العلم في تحقيق خير الانسانية .

ذهب (باكون) الى أن العلم الصحيح هو الذي نتوصل اليه عن طريق مشاهدة الواقع واستقراء حوادثه وبعد التجربة والاختبار . لذلك يجب أن نتخلى

عن التلاعب بالمفاهيم المجردة وأن نتجه الى دراسة الطبيعة واكتشاف قوانينها . ولا بد أن نبقى عبيداً للطبيعة مادمنا نجهل القوانين السائدة فيها . ولكننا اذا عرفنا هذه القوانين واستطعنا مجاراتها نتوصل الى السيطرة على الطبيعة واستخدامها لخير البشر ورفاهيتهم .

إن معرفة هذه القوانين هي الأساس سواء للبحث النظري أو التطبيق العملي . والنظر والعمل لايجوز الفصل بينهما لأن الواحد منهما دون الآخر لافائدة منه ، بل قد ينجم عنه الضرر .

بتأثير (باكون) برز مفهوم جديد للعلم وانتشرت ، في انكلترا خاصة ، الطريقة الجديدة للبحث التي دعا اليها وهي الطريقة الاستقرائية — التجريبية . وكانت الطريقة السائدة في البحث العلمي منذ عهد آرسطو هي طريقة الاستنتاج وعلى الأخص القياس . وهذه الطريقة إنما تصلح للبرهان على صحة الحقائق المعروفة . ولكنها لاتفيد شيئاً في اكتشاف حقائق جديدة .

وفي الواقع فانه الى الطريقة الاستقرائية — التجريبية يرجع الفضل الأول في تقدم العلم واستخدام تطبيقاته العملية وفي اختراع الآلات الجديدة التي أحدثت « الثورة الصناعية » في انكلترا قبل غيرها . لاشك في أنه كان هناك في مختلف البلدان الاوربية ، مخترعون قبل القرن الثامن عشر . الا إن اختراعاتهم كانت في الغالب محصول الصدف والخيال ونتيجة المحاولات العملية المحضة دون الاستناد الى أساس علمي متين . والباحث ، المخترع الوحيد الذي يشذ عن ذلك هو الفنان العبقري (ليوناردو دافنشي) في القرن السادس عشر . فقد كان مفكراً حديثاً بكل معنى الكلمة ، امتاز بالروح العلمية والمهارة الفنية وجمع بين النظر والعمل . وقد قال : « إن اولئك الذين يعشقون الناحية العملية دون الاهتمام بالعلم

النظري ، إنما يشبهون الربان الذى يقود مركباً دون بوصلة أو دفة والذي لا يعرف أبداً بالضبط الى أين يسير . »

ان الصفة البارزة في العلم الحديث هي الجمع بين النظر والعمل . فالعلم يبدأ أولا بمشاهدة حوادث الطبيعة واستقرائها وتصنيفها ثم يضع الفرضيات لتفسير هذه الحوادث وذلك بالكشف عن الأسباب أو ادراك العلاقات بين الاسباب والنتائج ، وبعد ذلك يقوم بالتجارب للتأكد من صحة التعليل . فاذا نجحت هذه التجارب ينتقل الى التطبيق العملي .

مثل هذه الطريقة في البحث كانت تتطلب في بادىء الأمر روحاً ثورية تنبذ التقاليد الموروثة وتتحرر من العقائد السحرية والاساطير والخرافات والأوهام . كان يجب الشك في الآراء المتناقلة والتخلص من الاحكام السابقة والتقيد بالحقائق الواقعية التي نستطيع مشاهدتها والبرهان عليها عن طريق التجربة .

ولم يكن من الممكن أن يتسع نطاق مشاهداتنا قبل اختراع الآلات والأدوات الدقيقة مثل المنظار والمجهر . وهذه الوسائل إنما تنتجها الصناعة الحديثة التي تستند بدورها الى التقدم العلمي النظري والى المهارة الفنية .

واذا استعرضنا التطور العلمي الحديث نرى أن رجال الأعمال هم الذين أدركوا قبل غيرهم أهمية العلم وامكانية الاستفادة منه في تقدم الزراعة والصناعة، لنأخذ مثلاً الجمعية الملكية الانكليزية التي انقلبت فيما بعد الى المجمع العلمي البريطاني، فهي إنما أسسها في سنة ١٦٦٢ بعض التجار وأصحاب الأعمال في لندن. ثم ظهرت بعدها جمعيات مماثلة في المدن الصناعية الكبيرة، هي التي ساعدت على تقدم العلوم في القرن الثامن عشر اكثر من جامعات كمبريدج واكسفورد ولندن التي ظلت محافظة على تقاليد القرون الوسطى . وحتى اليوم مازالت المعامل والشركات الصناعية

الكبرى في البلاد الغربية تنشيء معاهد للبحث العلمي ملحقة بها أو تتبرع بمبالغ ضخمة من المال للمعاهد العلمية القائمة . ذلك لأن أبحاث هذه المعاهد تعود عليهم وعلى بلادهم بأعظم الفوائد. نذكر مثالاً واحداً من أعمال معهد الأبحاث العلمية في برلين . فقد كانت ألمانيا تستورد قبل الحرب العالمية الأولى من سماد (نترات الشيلي) ما قيمته (٥٠) مليوناً من الماركات في العام ، ولكنها بعد أن توصل بعض علمائها أمثال (هابر) و(بوش) الى استحصال الآزوت من الهواء لم تقتصر على توفير ذلك المبلغ ، بل أخذت تصدر الأسمدة الآزوتية وتجني من ذلك أرباحاً طائلة .فكم نحتاج نحن اليوم الى معاهد للبحث العلمي تتولى دراسة الوسائل اللازمة الى زيادة الانتاج وتحسينه ! إنه من الممكن تنمية أنواع من القمح تصمد للجفاف الذي تتعرض له بلادنا في الغالب ، كما إنه من السهل اعداد أجناس من بذور القطن تقاوم مختلف الحشرات والأوبئة ، كذلك تساعدنا الأبحاث العلمية على تهيئة أغراس من أشجار الفاكهة تعطي محصولاً أوفر وأفضل .

ان الأموال التي قد تبذلها الدولة أو أرباب العمل للقيام بالأبحاث العلمية في سبيل تسخير الطبيعة لحاجاتنا ومصالحنا لا تذهب سدى وإنما تعود علينا بأضعاف أضعافها من الفوائد .

وهكذا فالبحث العلمي الحديث يمكن ان يصبح من أهم العوامل في زيادة الانتاج ورفع مستوى الشعب . وبذلك يؤثر تأثيراً عميقاً في تطور المجتمع وتحسين أوضاعه .

ثم ان الاختراعات الحديثة التي مازال العلم يفاجئنا بها كل يوم من شأنها أن تحدث تغييرات جوهرية في بيئتنا الطبيعية ونظام معيشتنا وطرائق انتاجنا وشروط حياتنا واساليب سلوكنا . وها هو العلم مازال يسعى سعياً حثيثاً للسيطرة

على الأمراض والتغلب على الشيخوخة ، كما انه سار خطوات جبارة في غزو الفضاء ومعرفة أسراره لفائدة البشر . وقد كان همّ الناس قبلاً ان يؤآلفوا الطبيعة ويتلاءموا مع مقتضياتها ، ولكننا الآن ، بعد تقدم العلم والسيطرة على الطاقة الذرية ، أصبحنا نفكر في تكييف الطبيعة وتحويرها لتلائم هي اهداف الانسان ومتطلباته.

ان رسالة العلم الحديث لا تقف عند زيادة الانتاج وتطمين حاجات الانسان الضرورية ، بل انها ترمي الى تغيير المجتمع واصلاحه من الأساس . فالعلم الحديث الذي اقتصر حتى اليوم على دراسة الطبيعة أخذ يتجه الى دراسة الانسان والمجتمع ليتوصل الى معرفة حقيقة الانسان وعلاقاته مع أبناء جنسه ثم ليعمل على تنسيق هذه العلاقات وتقويتها . ولا شك في أن المشاكل التي تعانيها المجتمعات البشرية ، وهي من صنع الناس أنفسهم ، شديدة التعقيد ومختلفة عن مظاهر الطبيعة ، ولكن من الممكن دراستها دراسة علمية تقوم على مشاهدة الواقع ووصفه بصورة موضوعية ، ثم السعي الى معرفة الأسباب والعوامل الحقيقية دون التقيد بالأحكام السابقة والعقائد المتوارثة ودون التأثر بالرغبات والأذواق والمصالح الذاتية المتضاربة .

انه بعد هذه الدراسة العلمية نستطيع أن نتقدم خطوات اخرى في سبيل اصلاح المجتمع بصورة مباشرة ، واعية . والنتائج التي وصل اليها البحث العلمي الحديث في العلوم الانسانية مما يشجع على متابعة البحث ويبشر ببلوغ الهدف .

ومن الضروري أن لا يقتصر التفكير العلمي الانتقادي على المثقفين بل أن يشمل جماهير الشعب على أكبر مقياس ممكن . فهو وحده يستطيع تحريرنا من رواسب الماضي والسير بنا في طريق الحضارة والتقدم .

●

البحث العلمي وعصره الذهبي

بقلم: وجيه السمان

لمحة عن تطور حركة البحث العلمي في هذا القرن وتضامن العلماء وتعاونهم

تدين فيزياء الذرة للعالم الانكليزي ارنست رذرفورد بدين كبير ، فقد كرس لها كل سني الانتاج من حياته العلمية ، وقد دامت قرابة اربعين عاماً ، فتنقل ما بين جامعة مونتريال في كندا (١٨٩٨ — ١٩٠٧) وجامعة مانشستر (١٩٠٧ — ١٩١٩) وجامعة كمبريدج حيث القى عصى الترحال في عام ١٩١٩ في مختبر كفنديش خلفاً للفيزيائي الكبير : ج ج طومسن، وبقي فيه حتى مات في عام ١٩٣٧ .

وقد نال عدة جوائز علمية كبيرة منها جائزة نوبل ، والقاب تشريف منها لقب لورد .

أستطاع رذرفورد في جميع أدوار حياته العلمية ان يجمع حوله عدداً من الاعوان والمساعدين من الطراز الاول ينفخ فيهم من حماسته واندفاعه ، ولما اصبح مديراً لمختبر كفنديش في جامعة كمبردج صار يعتبر مساعديه كاولاده اذ لم يكن له اولاد .

لذلك فقد وفق في عدد كبير من الاكتشافات العلمية الاساسية وحفظ لبلاده قصب السبق في بحوث الذرة خلال ثلاثين عاماً تقريباً .

وكان البحث العلمي لايزال يجري بمعزل عن السياسة والتقلبات الاجتماعية، فيروى ان رذرفورد غاب يوما خلال السنة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى عن جلسة للجنة الخبراء البريطانيين ، التي كانت مكلفة بدراسة الوسائل الجديدة الممكنة لحماية المواصلات البحرية من غواصات العدو . فلما عوتب بعد ذلك على غيابه اجاب معاتبه الرسمي :

— على رسلك ! ان التجارب التي كنت منهمكا فيها اثناء اجتماعكم تجعلني اؤمل بان يكون الانسان على ابواب تحطيم الذرة ، فاذا صح هذا الاكتشاف ، فانه اهم بكثير من حربكم هذه وما اليها .

وقد دام البحث العلمي حتى ذلك الحين بمعزل عن السياسة ، ولكن الحرب العالمية الاولى ابانت بعد ان طبقت فيها الاسلحة الجديدة التي نتجت من تطبيق الاكتشافات العلمية،ان المختبرات يمكن ان تكون المرحلة الاولى من تهيئة الحرب ، وانه لايمكن كسب الحرب بدون الاستفادة من مكتشفاتها .

وكانت الحرب قد بلغت برزاياها حتى مختبر رذرفورد ، فاستنفر مساعدوه وطلابه ، الذين كان متعلقاً بهم تعلق الوالد بالولد ، واصيب احسن مساعديه وهو (موزلي) برصاصة في حرب الدردنيل فاردته قتيلاً ، وحجزت قطعة الراديوم

الوحيدة التي كانت لديه والتي لا غنى له عنها في جميع تجاربه الذرية لانها — لسخرية الاقدار — كانت ملكا للعدو .

ذلك لان مؤسسة الراديوم النمسوية في فينا كانت قبل الحرب قد اعارت رذرفورد ٢٥٠ ميلغراماً (اي ربع الغرام) من هذا العنصر الثمين النادر ، ولم تكن هذه الاريحية لتكلف النمسويين اذ ذاك كثيراً لان المكامن الوحيدة الهامة للاورانيوم والراديوم في اوربا كانت ملكا للامبراطورية النمسوية المنهارة (اذ تقع في يواشيمشتال ببوهيميا — تشيكوسلوفاكيا) .

لم يرضخ رذرفورد لهذا الحجز الذي قامت به حكومته ، بل اقام الدنيا واقعدها حتى أعادت اليه معدنه الثمين اعادة موقتة ، ولم يكتف بذلك ، بل أنه أصر بعناد وصلابة على ان يحتفظ بحقه في أن يعيد بنفسه بعد الحرب الى اصدقائه النمسويين امانتهم أو ثمن تلك الأمانة .

وكانت الغلبة لحزمه وصلابته أمام السلطات المسؤولة ، وهكذا فقد استطاع أن يكتب الى زميله النمسوي في فينا عام ١٩٢١ ، في ابان ازمة النقد النمسوية :

« لقد ساءني ماعلمته من تدني الوضع المالي لمؤسسة الراديوم في فينا . وقد بذلت غاية جهدي في جمع الاموال اللازمة لشراء كمية الراديوم الصغيرة التي كانت الاكاديمية قد تكرمت باعارتها الينا وكان لها فضل كبير في نجاح بحوثي .

وهكذا فقد أرسل رذرفورد الى فينا الجنيهات اللازمة التي مكنت مؤسسة الراديوم النمسوية من تحمل أسوأ سنوات التضخم .

لم ينقطع رذرفورد طوال سني الحرب عن مراسلة تلامذته واصدقائه في المانيا والنمسا عن طريق البلاد المحايدة ، فتبادل عدة رسائل مع مساعده السابق وصديقه الوفي هانس كايكر مخترع العداد الذي سمي باسمه والذي اصبح فيما بعد

جهازاً لا يستغنى عنه لقياس النشاط الاشعاعي . وقد ظلت اسرة الفيزيائيين الدولية اكثر تكاتفاً وتعاضداً من أسرتي الادباء والفلاسفة الذين صاروا يتراشقون بالمناشير العدائية التي تفيض بالحقد . وكان يبدو إذ ذاك أن من جمعتهم أواصر الزمالة او المراسلات المثمرة او عملوا جنباً الى جنب في المختبرات ، لا يمكن أن يصبحوا اعداء بين عشية وضحاها . لذلك فقد كانوا يتبادلون المساعدة على قدر الامكان .

وهكذا ، فان جيمس شادويك ، مساعد رذرفورد الاقرب ، الذي نال جائزة نوبل فيما بعد ، أسر في بداية الحرب وسجن في معسكر رولبن بالقرب من برلين . فاذن له استاذاه الالمانيان : نرنست وروبنس في تشييد مختبر صغير ، حيث تمكن هو وغيره من الاسرى ان يقوم بعدد من التجارب المهمة . وفي شهر أيار من عام ١٩١٨ بينما كانت الضحايا تسقط بعشرات الالوف لدى الهجمات المخيفة في شمال فرنسا ، كتب شادويك الى رذرفورد يقول :

« نحن نشتغل الآن بتركيب المواد العضوية بواسطة تعريضها للاشعة الضوئية . وقد زرت في هذه الأشهر الماضية روبنس ونرنست وفاربورغ وكان استقبالهم لي حاراً ، وعرضوا أن يقدموا لنا كل ما في وسعهم . »

وما كادت الحرب تنتهي وتفتح الحدود حتى عاد فيزيائيو العالم الى الاتصال بعضهم ببعض ليتبادلوا نتائج الاعمال التي قاموا بها خلال سني الحرب . ولم يكتفوا بالبريد العادي ، بل ان مصلحة البرق لعبت دوراً هاماً في هذه التبادلات العلمية . وعلى سبيل المثال نذكر ان موظفي البرق في مدينة كوبنهاغن كثيراً ما تحملوا فوق طاقتهم لكي يبرقوا الى انكلترة وفرنسا وهولندة والمانيا والولايات المتحدة واليابان بالرسائل الصادرة عن مؤسسة (بوهر) . وكانت تلك الرسائل البرقية مليئة بالدساتير الرياضية التي لا يفهمون منها حرفاً .

وما لبثت المراسلات ان اصبحت عاجزة عن حل المسائل والمشاكل العديدة التي كانت تثيرها فيزياء الذرة، فافتتح عهد المؤتمرات فلايكاد بوهر يعلن بأنه سيحاضر خلال اسبوع في مدينة غوتنكن عن اعماله خلال سني الحرب حتى يهرع اليه جميع من تسمح لهم اوقاتهم من الفيزيائيين ، حتى ان عدداً من البلاد التي لم تؤد قبل الحرب لبحوث الفيزياء الامساهمة ضعيفه او معدمة ، اخذت تنشر بحوثاً ونتائج هامة ، وصارت الهند واليابان والولايات المتحدة وروسيا السوفيتية تتطلع الى التبادل العلمي .

وكان الاتحاد السوفيتي خاصة ، يسعى للاتصال مع العلماء الغربيين ، ولم تكتف حكومته بان يتزود علماؤها من علماء الغرب ، بل كانت تحرص اشد الحرص على ترجمة بحوث العلماء السوفييت الى الانكليزية والفرنسية والالمانية . ولم يكن في ذلك العهد ، حتى ولا في الاتحاد السوفيتي ، أي خطر على نشر البحوث العلمية او مراقبة لها .

* * *

من طبيعة البحوث في فيزياء الذرة انها لا يمكن ان تجري بالعين المجردة ، لان الاقدار التي تجري عليها التجارب هي بالغة الدقة ولا بد من آلآت دقيقة لمراقبتها اوقياسها هي (اجهزة عالم اللامتناهي في الصغر) وقد كانت هذه الاجهزة حتى نهاية الحرب العالمية الاولى بسيطة بدائية واكثرها من صنع ايدي العلماء والمجربين ومساعديهم ، ومن المواد الموجودة في المختبرات كالاسلاك المعدنية والشمع والحوجلات .

ولكن زيادة التوغل في هذا العالم المجهول يوماً بعد يوم ، احوجت الى استعمال اجهزة معقدة صار ثقلها وتعقيدها يزدادان مع الايام . يقول العالم الانكليزي ابلليس انه لما شاهد عام ١٩١٩ ، للمرة الاولى الجهاز الذي استخدمه رذرفورد

في عمليات الاستحالات الذرية دهش واصيب بصدمة وخيبة لما رأى من بساطة ذلك الجهاز الذي كانت تستوعبه علبة نحاسية صغيرة . ولم يمض على ذلك سوى خمسة عشر عاماً ، حتى صار ايلليس نفسه ، بعدان أصبح عضواً في مختبر رذرفورد يعمل تجاربه بمولدات ضخمة والآت قياس عظيمة الدقة والحساسية ، واخذت مختبرات الذرة تستحيل الى معامل والعلماء انفسهم يستحيلون الى ميكانيكيين .

قلنا ان رذرفورد جمع حوله عدداً من خيرة المجربين اشتهرت اسماؤهم فيما بعد باكتشافات هامة جداً في ميداني الذرة او الفيزياء عامة ، واحرزت فئة كبيرة منهم على جائزة نوبل مثل : شادويك وسودي واستون وديراك وكوكروفت وبلاكت . ومن بينهم ايضاً عدد من الأجانب اختص احدهم بعطف خاص ومحبة زائدة من رذرفورد وهو المهاجر الروسي : بيوتر كابيتزا ، وكان العالم الانكليزي معجباً بصلابة هذا الروسي وبديهته وسرعة تنفيذه ومحبته للعمل الى حد يقارب التعصب ، فكأنما كان يجد فيه (على فارق ٢٥ سنة في العمر بينهما) مشابهة كبيرة بنفسه .

ولم يأل رذرفورد جهداً في البحث دوماً عن موارد مالية جديدة لتوسيع المختبر الذي كان يعمل فيه كابيتزا ، وقد اثمرت مساعي رذرفورد في النهاية ثمرة طيبة ، فقامت الجمعية الملكية (وهي اكاديمية العلوم البريطانية) بالتعاون مع ادارة البحوث العلمية والصناعية (وهي ادارة اقامتها الحكومة البريطانية في اواخر الحرب العالمية الاولى لدعم العلم) بانشاء مختبر خاص لكابيتزا . وجرى تدشين هذا المختبر في شهر شباط من عام ١٩٣٣ بعد ان سمي باسم الكيميائي المثري : موند ، صاحب الملايين . فابصر المدعوون على واجهة البناء شعاراً غريباً هو صورة تمساح ناتئة نقشت في الحجر على يد الفنان الانكليزي الشهير : اريك جيل بطلب من كابيتزا .

ولما سئل العالم عن معنى وجود هذا الحيوان الذي لا يمت الى انكلترة بسبب أجاب : ان الرقي كالتمساح يتقدم الى الامام وهو يلتهم ماحوله بفكيه الفولاذيين غير ملتفت الى الوراء .

والحقيقة هي ان التمساح هو اللقب الذي كان يطلقه كابيتزا على رذرفورد بعلم من جميع المشتغلين في مختبر كفنديش ماعدا رذرفورد نفسه .

ولم يستطع كابيتزا ان يستفيد من هذا المختبر في بداية الامر . لان اكاديمية العلوم السوفيتية لما انتقلت في عام ١٩٣٤ من لينينغراد الى موسكو (بالرغم من معارضة ستالين) انتخبت كابيتزا عضواً فيها . فسافر الى روسيا ، ولم تكن تلك اول رحلة له الى وطنه الاصلي ، بل اتفق لنصف المهاجر هذا ان سافر الى الاتحاد السوفيتي عدة مرات . لكن الامور هذه المرة لم تجر كعادتها ، اذ انه عندما انتهت زيارته واراد ان يعود الى كمبريدج بلغ رسمياً بأن حكومة الاتحاد السوفيتي ازاء الخطر الهتلري لم تعد تستطيع الاستغناء عنه . وهكذا اصبح كابيتزا اسيراً في وطنه .

كتب رذرفورد الى موسكو يطلب من الحكومة السوفيتية ، باسم العلم وخدمة العلم ، ان تأذن لكابيتزا بالعودة الى مكان عمله ، فتلقى الجواب الآتي : اننا ندرك رغبة انكلترة في عودة كابيتزا اليها ، ولكننا نحب ان تدركوا رغبتنا التي لا تقل عن تلك ، في ان يأتي رذرفورد نفسه ليعمل عندنا .

بعد هذا الرفض اللبق اتصل رذرفورد بالرئيس البريطاني (بالدوين) قائلا : ان السلطات السوفيتية قد استولت على كابيتزا ظناً منها بانه سينفعها في اقامة صناعتها الكهربائية ، ولم تعلم ان هذه الفكرة تستند على خطأ .

وتدخل بالدوين في القضية فلم يثمر تدخله شيئاً .

وكان لكابيتزا قريبة مقيمة في انكلترة . فسعت في الدفاع عن قضية عودته امام ميسكي السفير السوفيتي في لندن وقالت : ان الحكومة السوفيتية لن تستطيع الاحتفاظ به طويلاً لانه عنيد . ويروى ان السفير اجابها : ان يوسفنا (اي ستالين) هو اشد منه عناداً .

ولما رأى رذرفورد انه لن يفلح في اعادة كابيتزا الى المختبر الذي بناه له خصيصاً ليقوم بادارته وتشغيله ، عمد الى تدبير فيه برهان ساطع على ايمانه الراسخ بدولية العلم وبمحبته الشديدة لصديقه فقرر ان يبعث اليه في روسيا بجميع تجهيزات مختبره الجديد .

لذلك سافر العالمان الانكليزيان ادريان ودبراك الى موسكو لتنظيم عملية نقل تلك الاجهزة الضخمة والثمينة . ثم شحنت الصناديق على سفينة شحن سوفيتية كانت راسية في ميناء انكليزي ، فوصلت الى لينغراد بحمولتها الثمينة الى جانب شحنة من اللحم البارد . ولكي تحتفظ الحكومة السوفيتية بكابيتزا دفعت ثمن المختبر المفكك ثلاثين الف جنيه ! وبنت للفيزيائي في موسكو مؤسسة جديدة على الطراز الانكليزي فرضخ كابيتزا لاسره المذهب وصبر عليه .

وجرت بينه وبين رذرفورد مراسلات عديدة، فكتب له عام ١٩٣٦ يقول:

لسنا سوى هباءة ضائعة في خضم هذا النهر الكبير الذي يسمونه القدر . وجل مانفعله هو ان نقدر احياناً على ان نحيد قليلاً عن طريقنا فنسبح على وجه تياره الجارف بدلاً من ان نسبح في لجته .

وقد كان ذهاب كابيتزا فاتحة لانحلال عرى الجماعة التي ظلت تعمل تحت اشراف رذرفورد السنين الطوال ، فاخذ اعوان رذرفورد يغادرونه الواحد تلو الآخر ليتسلموا اعمالاً اكثر اهمية ومناصب اعلى ، لحاجة بلادهم اليهم ، ولم يلبث

هو ان مات على اثر عملية جراحية بسيطة احتاج اليها في عام ١٩٣٧ ، وبموته اختتم العهد الذهبي للبحوث الذرية في انكلــترة ، وبقيت القيادة تتردد بين المانيا وفرنسا وايطاليا الى ان انتقلت الى الولايات المتحدة انتقالاً نهائياً في عام ١٩٤٠ ، واحكم ذلك هجرة عدد كبير من علماء الذرة الاوربيين خلال اعوام ١٩٣٣ — ١٩٣٨ الى امريكا .



اثر الكندي في التجربة الفلسفية العربية

للدكتور عادل العوا

معالجة جريئة ودقيقة ، لتطور التفكير العقلي العربي ، واتصاله بالسلف واستمراره في الخلف ، واغناؤه التراث الفكري الحضاري ، بما يبقى موضع فخر العرب واعتزازهم . »

اطلق الفيلسوف المعاصر (لوي لافيل) ، على بعض آثاره الفلسفية ، عبارة « جدل الحاضر السرمدي » ، وجاء بمذهب طماح يرى ان المذاهب الفلسفية السابقة ، ولا سيما ذات الصبغة الدينية ، تشترك بربط الزمان بالسرمدية ، واعتبار وحدة هوية الذات طراز الكائن كل الكائن ، والموضوع الطبيعي للعقل المتأمل . وبذا كانت السرمدية هي صورة الزمان ، وكانت هذه الصورة مجردة تتكرر في نسخ متماثلة هي الادوار والاكوار والدهور ، وكل واحد منها يقلد انموذجه السرمدي الثابت تقليدا امينا قدر المستطاع ، وفي حدود طاقة الكون وطاقة الانسان .

وقد رفض (لافيل) هذا المفهوم الذائع القديم ، ورده ، ورأى ان الزمان تداء لا دفعة ، وانه لايجري من الوراء الى الامام وحسب ، بل ان الزمان هو مايجري في الزمان ، فهو اذن محل العمل الجدي الحاسم المسؤول ، انه الحاضر الذي يحقق فيه المرء اشتراكه الواقعي في الكون . ومن شأن اضطلاع المرء باعباء الزمان استغراقه في اداء رسالته في حاضر موصول ،

وهذا الاستغراق يضفي على الماضي وعلى المستقبل معا المعنى الذي يجعل للزمان بأسره معنى ، فلايظل الماضي مجرد موضوع حنين مرهق على مافات ، ولا يقتصر المستقبل على ان يكون موضوع ترقب متوهم مأمول . وانما « جدل الحاضر السرمدي » هو الجدل الذي يميز القيم عن تحققها من جهة، ويلحف، من جهة اخرى ، على تبيان اتصال القيم المثلى بظروف الواقع المشخص ،فيجلو التصاق الخالد السرمدي بمشاغل اللحظة وبظروف الوقت ومعطياته في المكان ، واذ ذاك تلتقي الفاعلية الراهنة ، فاعلية الأنا ، فاعلية البشر ، التقاء ترصيع بعلاقات الوجود ، وتتجسد الذات في الكائن ويبقى الـ « كل » اساس الوجود ، وسند الوجود ، ولا يظل مفهوم الـ « كل » مجرد جمع عناصر ، ولا تكتل اجزاء بل الـ « كل » هو تجلي جهد فاعل متكامل بناء .

عاش الفيلسوف (لافيل) في (باريز) . وتوفي في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين ، وعرف مراحل التجربة الفلسفية في تطورها التاريخي المديد ، وهذه التجربة ،في رأيه، هي تجربة البحث التاريخي عن تكون الفكر الانساني ووعيه بذاته وبوظيفته وقيمته ، وهي المشكلة الاولى في كيان الفيلسوف ، والمنطلق الرئيسي في حياة الفلسفة . ذلك ان الفيلسوف يشعر ، احسن مايشعر ، بان الحقائق والافكار متكافئة على الرغم من تعارضها ، وان عليه ان يبحث عن عقدتها ليمسك بتلابيبها ويوضح دقائقها متحديا تشتتها ومنتصراً على عوائق غموضها وابهامها . انه يعيش في نفسه تجربة التفلسف من قبل ان يعرب عنها بكلمات تصبح مذاهب هي اشبه بقواقع ترمز الى حياة التجربة الفلسفية في نفس الفيلسوف الذي يعطيها من غير ان تشف مباشرة عن هذه الحياة ، وعلى هذا فان المشكلة الرئيسية الاولى في الفلسفة هي ، عندنا ، تجربة الفيلسوف ذاته ، تجربة حضور الانسان المشخص بكل مايربط الانسان بالواقع ويدفعه عنه ليتجاوزه بالقيم الى سواه . انها تجربة الحضور الانساني في جوانب التجربة الزمنية جميعا ، تجربة الحاضر السرمدي ابداً .

لقد امتد العمر بـ (لافيل) حتى جاء بمذهب فلسفي بناه على اساس القيمة معلنا ان « كلمة قيمة توقع في اناسي عصرنا سحرا يشبه سحر كلمة وجود التي تكاد لاتنفصل عنها » (١). ولكن عصرنا الحاضر عصر تقفز حياته في سلسلة اعمار متواثبة ، ولذا لم يجمد الفكر الفلسفي خلال السنوات العشر الاخيرة التي مرت على وفاة (لافيل) ، وانما طرح هذا الفكر مشكلة الفلسفة من زاوية « التقدم بالرتبة » (٢) كما يقول (الشهرستاني) ، اومن زاوية القيم وفلسفة القيم كما تقول بلغة اليوم ، ولم يبق عصر الثورة والتحرر الذي واكب عصر الذرة وغزو الفضاء حبيس المشكلات الفلسفية العتيقة ، وانما شملت ولية انساننا المتمرد كل موضوع في جميع الاتجاهات .

(١) لوي لافيل ، كتاب القيم ، ج١ ، ص ١٥٨ .

(٢) عبد الكريم الشهرستاني : نهاية الاقدام في علم الكلام ، تحقيق الفرد غيوم، ص٧.

وقد اصطرع المفكرون حول القيم التي من اجلها تصح الحياة ، ويطيب فهمها والسلوك بالاتساق مع هذا الفهم . **وبرز من صراعهم الملحاح مبدأ البحث الايجابي عن فكرة تحظى بقبول الناس** كل الناس ، فكرة معقولة حية شاملة نامية يصح اتخاذها حافزا يقره الناس اجمعون في سلوكهم وتصرفهم والتقاء افكارهم وقلوبهم ، وهذه الفكرة ليست سوى **فكرة المدنية** التي يتعلق الانسان بأهدابها اليوم من اجل انقاذ وجوده على سطح الارض بانتظار مايتمخض عنه الغد القريب لدى اطراد تقدم الانسان في الارض وفي الفضاء .

فاذا رجعنا من منتصف قرننا العشرين الى القرن الميلادي التاسع ، وعدنامن مدينةالنورالى **بغداد** ، مدينة السلام والنور ، وجدنا مفكرنا العظيم الذي احتفل العرب بذكراه ، فيلسوف العرب الاول ، وأحد ابناء ملوكها ، وقد اسهم ، فيما نؤمن ، بشق الطريق امام تقليد فلسفي عربي واسلامي ، هو التقليد الذي تتصل حلقاته عبر المفكرين والاجيال ، في تضاعيف تجربة فلسفية عربية وانسانية ، تجربة تكاملت بذورها ، وتفتحت ورودها ، واعطت اكلها اليانع اليوم حين نلتقي انفسنا امام فكرة المدنية التي تفوز في وقتنا الحاضر باهتمام المفكرين والفلاسفة والقادة والسياسيين والناس كافة ، وكأنها تتسنم في بعض القلوب والاذهان بقداسة لاتقل عن قداسة الايمان ، وباجلال لايقصر عن اجلال الدين .

لقد تميزت تجربة (**الكندي**) **الفلسفية** ، اول ماتميزت ، بانها ملتقى العقل النظري ــ ولنقل العقل الكلامي الاعتزالي ، على وجه التدقيق ــ بالعقل النظري الفلسفي في الاسلام . كما انها تميزت من ناحية اخرى بانها نقطة تحول الفكر الاعتزالي الى فكر فلسفي بالمعنى الصحيح .

كان (الكندي) ــ في الحق ــ متكلما لانه مؤمن ، وكان في الوقت ذاته مؤمنا عاقلا متنيرا ، لايهاب الاعتصام بالتأويل العقلي في تفسير معطيات الدين واصوله ، وفهم آيات القرآن ونصوص الاحاديث النبوية ، وهو نفسه يصرح بان« **كل ما اداه النبي ﷺ عن الله عز وجل يمكن ان يفهم بالمقاييس العقلية التي لايدفعها الا من حرم صورة العقل ، واتحد بصورة الجهل** ».ولكن (الكندي) يشترط لفهم معاني القرآن ان يكون المفكر من ذوي اللب والدين ، قادراً على فهم مقاصد كلام الوحي ، عارفا بخصائص التعبير اللغوي وانواع دلالته عند العرب .

وقد اسهم (الكندي) ، بعلو كعبه في علوم اللغة العربية ، اسهاماً كبيرا بتحديد معاني الآيات القرآنية ، وتفسير ماتشابه منها ، وغزا بهذه العقلية اللغوية المدققة ذاتها دنيا الفلسفة فكان منطقه اللغوي هو الجسر الذي عبر فوقه من علم الكلام الى علوم العقل والفكر الحر . وهذا السلاح

سلاح التدقيق المنطقي في معاني المفردات وحدّ دلالتها كان سلاحه وسيله الى شرح اصول الدين وارضاء نزعات العاطفة الدينية في نفسه ، كما غدا سبيله ايضاً الى شرح مغالق الفكر الفلسفي وتبيان حقائق الحق ، اي الفلسفة بالمعنى الصحيح .

وليس من شأننا هنا ان نقف عند النظريات الكلامية التي انجبتها عبقرية (الكندي) ، ولا ان نتريث في استعراض وتمحيص موقفه التحيزي الانتقائي من المعطيات العلميـة التي عرفها وتعمق معرفتها ، هذه المعطيات التي تتصل بما نسميه اليوم بالعلوم الفلسفية ، وانما نكتفي بأن نذكر بان فيلسوفنا ينزع في الرياضيات منزع الفيثاغورية الجديدة ، ويعتمد في علم النفس على كثير من الآراء الافلاطونية ، ويستقي في الاخلاق من تعاليم (سقراط) و (افلاطون) ، ويأخـذ عن (ارسطو) كثيراً من آرائه في الالهيات باستثناء مايتصل بالله وصفاته ، وبقضية قدم العالم أو خلقه ؛ وبكلمة واحدة ، لقد الم الكندي بالثقافة الفلسفية التي عرفهـا عصره ، وهو اول عربي جهد في سبيل الاحاطة بهذه المعلومات احاطة منسقة متعمقة حملت مؤرخي الفلسفة على اعتباره اول الفلاسفة المسلمين ورائد المدرسة الفلسفية في الاسلام .

غير اننا اذا تجاوزنا مايدخل في اطار الانتقائية الفلسفية لدى (الكندي) ، وانحدرنا من ظاهر تجربته الفلسفية الى باطنها ، وانتقلنا من مستوى البحث في معرفة (الكندي) بالعلوم الفلسفية ، ومضينا الى ماوراء ينابيعها ومصادرها ، وادركنا حركة النبوغ الفلسفي في تجربة هذا الفيلسوف العربي الرائد ، وجدنا ان (الكندي) مثله مثل (سقراط) لـ (افلاطون) ، يقف موقف المفكر المدقق الذي يلح على الغوص في خضم المعاني لتحديد دلالتها ، وكشف لبسها ، وجـلاء امكاناتهـا ، ورسم حدود مفاهيمها . وهو بهذا الموقف الفلسفي ذاته **يضع حجر الاساس في الفكر العقلي العربي** ، ويحرص على ترسيخ تقليد ثقافي نحسب انه لايكفل لفيلسوفنا الخلود على الصعيد القومي وحسب ، بل وعلى الصعيد العالمي والانساني بوجه الاطلاق .

ان منزلة (الكندي) في دنيا الفلاسفة لاتتجلى في براعته الكلامية ، وميزاته الاعتزالية ، ولا في تأنيه في الاحاطة بالمعطيات العلمية والميتافيزيائية ، قدر تجليها في ميدان وعيه بقيمة الفلسفة ، وتعمقه معنى وظيفة الثقافة الفلسفية ، وواجب الفلاسفة في حقل انساني شامل موصول ، هو حقل الاحترام الانساني المتبادل ، والايمان بان الحق ـ او الفلسفة ـ ملك البشر جميعاً ، وان هذا الحق معرفة بواقع ثمين فاعل بناء ، وسلوك هادف صادق كريم ، وان تلك المعرفة وهذا السلوك يلتقيان في حاضر سرمدي ابدا ، هو حاضر مساهمة كل فرد ، وكل جيل ، في كل امة وعصر ، في بناء الحقيقة الواحدة ، لاقامة صرح مجتمع انساني متوحد ، هو المجتمع الذي تهدف اليه المدنية كما نقول بلغة اليوم ، وسنحاول في بحثنا المقتضب ان نجلو نظرة (الكندي) الفيلسوف الى الفلسفة والفلاسفة ، ونبدأ بالاشارة الى حال الثقافة العربيـة عند ظهور (الكندي) ونلمح الى اضطراره للنضال في

سبيل الذود عن الفلسفة واصحابها ، ثم تذكر اعلانه عن موقع الفلسفة ووظيفتها في البلاد العربية الاسلامية التي انتقل اليها في عصره مركز الحضارة والعمران ، وننتقل بعدئذ الى تأثير (الكندي) في مجالي الفكر الفلسفي بعده في المشرق والمغرب وفي الاندلس ونختم بالاعتراف بفضل فيلسوفنا العظيم حين وعى بحدسه النابغ الاصيل نحو القيم الانسانية المثلى ، وادرك صلتها بظروف الوقائع وملابسات الوجود .

●

لم تظهر الحكمة – أو الفلسفة بالمعنى الدقيق – حينما ظهرت في البلاد العربية والاسلامية، ظهور بحث حر مستقل . وانما ولدت في بيئة مضمخة باريج الدين الاسلامي خاصة ، وبعبق الدين بوجه عام . وقد كان مولدها عسيراً، وتطورها ونماؤها محفوفين بالمكاره والصعاب . ولم يكن جو الحضارة العربية في ذلك الحين جواً مواتياً لازدهار الفلسفة وتفتحها بيسر واطراد ، بل كان هذا الجو في اغلب الاحيان مقيتاً خانقاً ، محدود المدى ، ضيق الآفاق ، لايتسع لنماء الروح الفلسفية الانتقادية ، ولا سيما اذا قرنا ظهور الفلسفة بظهور سائر تيارات الفكر العربي كالفقه والكلام والتصرف والحديث والاصول . وقد جلت هذه الوقائع رائد الفلسفة العربية ، (ابا يوسف يعقوب بن اسحق الكندي) ، اعجز عن الاقتصار على الدعوة الى الفلسفة بالحسنى وبالكلم الطيب ، وحالت بينه وبين اللفظ المتهيب والموقف الحبيب ، ولذا نجد فيلسوفنا الاول يجهد في الدفاع عن الفلسفة ، وينتقل الى ميدانها مدججاً بأسلحة النضال المعتزلي ، والصراع العقائدي ، فيسعى الى تبيان منزلة الفلسفة، بالهجوم العنيف على اعدائها ، وفضح سوء مقاصدهم وتمسكهم باغراض دنيوية في الواقع، على الرغم من تلبسهم الظاهر بأهداف الحق والدين؛ وقد وصفهم بانهم المتسمون بالنظر في دهرنا من أهل الغربة عن الحق ، وان تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق، لضيق فطنهم عن اساليب الحق ، وقلة معرفتهم بما يستحق ذوو الجلالة في الرأي والاجتهاد في الانفاع العامة الكل ، الشاملة لهم ، ولدرانة الحسد المتمكن من انفسهم البهيمية ، والحاجب بسدف سجوفه ابصار فكرهم عن نور الحق ، ووضعهم ذوى الفضائل الانسانية التي قصروا عن نيلها ، وكانوا منها في الاطراف الشاسعة ، بمنزلة الاعداء الجرية الواترة، ذبا عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين (١) ، لان من تجر بالشيء باعه ، ومن باع شيئاً لم يكن له . فمن تجر بالدين لم يكن له دين ، ويحق ان يتعرى من الدين من عاند قنية علم الاشياء بحقائقها وسماها كفراً . لان في علم الاشياء بحقائقها الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة ، وجملة كل علم

---

(١) وهم عدماء الدين : انظر : كتاب الكندي الى المعتصم بالله في الفلسفة الاولى – تحقيق الدكتور احمد فؤاد الاهواني ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٨٢ .

نافع ، والسبيل اليه ، والبعد عن كل ضار ، والاحتراس منه ، واقتناء هذه جميعا هو الذي اتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه » (١) .

ولم يكتف (الكندي) بفضح اعداء الفلسفة والتشهير بهم وكشف عوراتهم ، بل استرحم الله « ولي الخيرات ، وقابل الحسنات » ، ان يمده بتأييده ، وينصره على « اضداده الكافرين نعمته ، والحائدين عن سبيل الحق المرتضاة عنده » . وهذا الحق الذي يؤمن به الفيلسوف ايمانه بالدين انما هو الفلسفة بالذات ، او الصدق بأدق معانيه . وقد دافع (الكندي) عن هذا (الصدق او (الحق) او (الفلسفة) دفاعا ماجدا يكرر دفاع المعتزلي عن الايمان ، وذهب في الاصرار على هذا الموقف مذهباً قصياً ، واعتنق فكرة « الوحدة الفلسفية » وكأنها فكرة المسلمين حول وحدة الديانات ، ووحدة الدين كله ، وكان — من ثم — اول من دعا الى توحيد الجهود ، ونادى بوحدة الصف بين الفلاسفة تمهيداً لتنسيق قواهم المشتركة في معركة اثبات الذات حيال خصومة الاخصام على اختلاف منازعهم ، وتباين مشاربهم ، فما هو سر هذا الحماس للفلسفة من (الكندي) الرائد المناضل ، وما هي وظيفة الفلسفة في رأيه ، وما هو واجب الفيلسوف في المجتمع والتاريخ ؟

لقد عرض (الكندي) في رسالة « حدود الاشياء ورسومها » لتعريف الفلسفة من حيث الاشتقاق ومن حيث عمل الفيلسوف وغايته ، واورد معظم التعريفات المأثورة عن (يونان) خاصة ، وذكر ان « الفلسفة — حدها القدماء بعدة حروف : آ — من اشتقاق اسمها، وهو حب الحكمة ، لان (فيلسوف) هو مركب من (فلا) ، وهي محب ، ومن (سوفا) ، وهي الحكمة ؛ ب — وحدّوها ايضاً من (جهة) فعلها فقالوا : ان الفلسفة هي التشبه بافعال الله تعالى بقدر طاقة الانسان — ارادوا ان يكون الانسان كامل الفضيلة . ج — وحدّوها ايضاً من جهة فعلها فقالوا : العناية بالموت . والموت عندهم موتان : طبيعي وهو ترك النفس استعمال البدن . والثاني : اماتة الشهوات . فهذا هو الموت الذي قصدوا اليه ، لان اماتة الشهوات هي السبيل الى الفضيلة ولذلك قال كثير من اجلة القدماء : اللذة شر . فباضطرار انه اذا كان للنفس استعمالان : احدهما حسي والآخر عقلي ، كان مما سمى الناس لذة مايعرض في الاحساس ، لان الشاغل باللذات الحسية ترك لاستعمال العقل . د — وحدّوها من جهة العلة فقالوا : صناعة الصناعات ، وحكمة الحكم . هـ — وحدوها ايضاً فقالوا الفلسفة معرفة الانسان نفسه . وهذا قول شريف النهاية ، بعيد الغور . مثلا اقول : ان الاشياء اذا كانت اجساماً ولا اجسام ؛ ومالا

---

(١) رسائل الكندي الفلسفية (كتاب الكندي الى المعتصم بالله — في الفلسفة الاولى ـ تحقيق محمد عبد الهادي ابو ريدة القاهرة ١٩٥٠ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

اجسام اما جواهر واما اعراض ؛ وكان الانسان هو الجسم والنفس والاعراض ، وكانت النفس جوهراً لا جسماً ، فانه اذا عرف ذاته عرف الجسم بأعراضه ، والعرض الاول والجوهر الذي هو لا جسم . فاذن اذا علم ذلك جميعاً فقد علم الكل . ولهذه العلة سمى الحكماء الانسان « العالم الاصغر » .و— فاماما من يحد به عين الفلسفة ، فهو ان الفلسفة علم الاشياء الابدية الكلية ، انياتها ومائيتها وعللها ، بقدر طاقة الانسان » (١) .

ومن هذا العرض المنضد يتضح لنا مثل على اسلوب التدقيق الفلسفي لدى (الكندي) ، هذا الاسلوب الذي يلم الماما واعيا متأنيا بمختلف التعريفات الفلسفية الغابرة لدى فلاسفة (يونان)، ويمهد لموقف الفلاسفة المسلمين اللاحقين الذين نظروا الى الفلسفة من حيث صلتها بالمشكلة الدينية وبالمشكلة الانسانية على السواء . فهو يرى ان الفلسفة علم الاشياء الابدية الكلية ، بقدر الطاقة الانسانية . وهي معرفة الانسان نفسه ، لان « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ، وهذه الصيغة الاخيرة سنلقاها غير مرة لدى الفلاسفة المسلمين اللاحقين ، كما سنجد نظرية الانسان من حيث هو « عالم اصغر » وقد انتقلت عن طريق (الكندي) الى الفلاسفة والمفكرين الاسلاميين فيما بعد، حتى ترددت اصداؤها في التراث العربي شعراً ونثراً ،

ان الفلسفة هي التشبه بافعال الله تعالى بقدر الطاقة الانسانية .

وهذا التعريف الذي يقف عنده (الكندي) بقوله : ارادوا ان يكون الانسان كامل الفضيلة؛ هو التعريف الذي يستحوذ على انتباه (الكندي) من الناحية العملية، ولذا تراه يوضح غير مرة الجانب الاخلاقي في تعريف الفلسفة، ويبين ان صناعة الصناعات، وحكمة الحكم، هي حياة بالروح، لان الموت موتان: طبيعي وهو ترك النفس استعمال البدن ، والثاني : اماتة الشهوات ، وانما الشر عند (الكندي) هو نقيض الفلسفة ، نقيض التفلسف ؛ انه تشاغل باللذات الحسية ، وترك لاستعمال العقل .

من هذا التحليل الخاطف يبرز اهتمام (الكندي) بوظيفة الفلسفة ومنزلتها ، ونحن نراه يعرب عن رأيه الخاص حين يذكر في كتابه الى (المعتصم بالله) : « ان اعلى الصناعات الانسانية منزلة » واشرفها مرتبة ، صناعة الفلسفة التي حدها علم الاشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان ، لان **غرض الفيلسوف في علمه اصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق** ، لا الفعل سرمدا ، لانا نمسك، وينصرم الفعل ، اذا انتهينا الى الحق » (٢) ولذا كان « الفيلسوف التام الاشراف هو المرء المحيط بهذا العلم الاشرف » (٣) وكانت « الفلسفة عالمة بالاشياء التي لها علمها بحقائقها » ، غير

---

(١) رسائل الكندي الفلسفية .
(٣) المصدر السابق ، ص ٩٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٩٨ ـ ١٠١ .

ان العمل لاينفصل عن العلم ، والفضيلة معرفة بالدرجة الاولى ، وان « علم الفلسفة المعطيـة كل فضيلة » (١) هو كمال العلم بالحقائق . ويترتب على طالب العلم ، حتى يكون فيلسوفاً ، ان يستوفي ستة اشياء ان نقصت لم يتم : « ذهن بارع ، وعشق لازم، وصبر جميل ، وروع خال ، وفاتح مفهم ، ومدة طويلة » ولسنا نرتاب في ان هذه الشروط ذاتها تحدد موقف (الكندي) في تفلسفه وتعين عناصر تجربته الفلسفية ، وتبين الروح المؤمنة الصابرة الجريئة التي بها ينظر الفيلسوف الى الفلسفة ، وكأنه ينبه الى صعاب لايفطن اليها في العادة عامة الناس ، اذ يحسب كل انسان انمراسه بالفلسفة لايحتاج الى جهد وعرق ، وان سرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، معيار العبقرية والنبوغ.

الحف (الكندي) اذن على ابراز اهمية الفلسفة ، وعلو شأنها ، وحكى ايمانه المبجـل بشرفها ونفعها ، ولم يقف عند تبيان شروط التجويد في ممارستها ليبين الفاصل المحتوم بين تفلسف الفيلسوف في الواقع ، وبين مفهوم الفلسفة بالذات ، وهذا يعني بجلاء ان بين حاضر التفلسف ، وجوهر الفلسفة ، بوناً ، ولكن البون لايعني افتراقاً ولاقطيعة ولا انفصالا ، بل ان الجهد الفلسفي نشاط فكري يتفاعل فيه حاضر فردي ومثل سرمدي ، وتتجسد في فلسفة الفيلسوف نفحـة عن حياة الفلسفة عبر العصور والاجيال .

وبتعبير آخر ، رأى (الكندي) ان الفلسفة علم الحق ، وانها هي الصدق وسبيل الصدق ، ووجد ان من شروط الفيلسوف الامثل الصبر الجميل والمدة الطويلة ؛ وهذا هو الدليل على عجز الفيلسوف الفرد عن انجاز الفلسفة بالذات ، وانما التفلسفي ـ كما نقول اليوم ـ سير على الدرب ، درب الواقع والقيمة ، هذا الدرب التاريخي الطويل الموصول الذي تسير في شعابه اجيال المفكرين من مختلف العصور والاقوام ، ويمثل في جملته تعاون المثقفين في تجربة انسانية شاملة هي تجربـة بناء الحضارة واقامة صرح المدنية والعمران.

لقد وعى (الكندي) وحدة الجهود الفلسفية ، وفطن لبناء المدنية الانسانية لبنة لبنـة ، وادرك تـكامل النشاط الفلسفي كلما انتقلت شعلة الفلسفة من عصر الى عصر ، ومن مدرسة الى اخرى ، ومن فيلسوف الى فيلسوف ، فأشاد بفضل السابق في هذه التجربة الوسيعة على اللاحق، واوجب الخلف شكر السلف ، كما فعل (ارسطو) ، وهو « مبرز (اليونانيين) في الفلسفة ، فقال : ينبغي ان نشكر آباء الذين اتوا بشيء من الحق ، اذ كانوا سبب كونهم ، فضلا عنهم ، اذ هم سبب لنا الى نيل الحق ، فما احسن ما قال في ذلك ». ويضيف فيلسوفنا في كتابه الى (المعتصم بالله) قوله : « وينبغي لنا الا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وان اتى

(١) المصدر السابق (رسالة الكندي الى احمد بن المعتصم في الابانة عن سجود الجرم الاقصى وطاعته لله عز وجل) ص ٢٥٤ .

من الاجناس القاصية عنا ، والامم المباينة (لنا) ، فانه لاشيء اولى بطالب الحق من الحق ، وليس (ينبغي) بخس الحق ، بل كل يشرفه الحق » .

استن (الكندي) سنة الايمان بان الحقيقة تراث مشترك بين الامم على مر العصور والاجيال ، ولم ير في تجاوز الفلسفة حدود القومية في الزمان والمكان ضيراً ولاغضاضة ، وانما طلب ان ينصر (الحق) او (الفلسفة) حينما ظهر (الحق) وتجلت (الفلسفة) . ذلك انالفلسفة جوهرها ، قيمة مثلى ، وكون سرمدي ، يتكشف بتجدده في تجربة الفكر البشري كله حين يتسق معنى التفلسف الحاضر مع الطماح الثقافي في كل مكان وزمان . ولايتلكأ فيلسوفنا في التصريح الجازم بوحدة الفلسفة لدى المسلمين وغير المسلمين ، بل يقول : « من اوجب الحق الا نذم من كان احد اسباب منافعنا الصغار الهزلية ، فكيف بالذين هم أكبر اسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية . فانهم ، وان قصروا عن بعض الحق ، فقد كانوا لنا انسابا وشركاء فيما افادونا من ثمار فكرهم التي صارت لنا سبلا وآلات مؤدية الى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقته ، (ولا) سيما اذ هو بيّن عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا انه لم ينل الحق — بما يستأهل الحق — احد من الناس بجهد طلبه ، ولا احاط (به) جميعهم . بل كل واحد منهم : اما لم ينل منه شيئاً ، واما نال منه شيئاً يسيراً ، بالاضافة الى مايستأهل الحق . فاذا جمع يسير مانال كل واحد من النائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل . فينبغي ان يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق ، فضلا عمن أتى بكثير من الحق ، اذ أشركونا في ثمار فكرهم ، وسهلوا لنا المطالب الحقية الخفية ، بما افادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق ؛ فانهم لو لم يكونوا ، لم يجتمع لنا ، مع شدة البحث في مددنا كلها ، هذه الاول الحقية التي بها تخرجنا الى الاواخر من مطلوباتنا الحقية ؛ فان ذلك انما اجتمع في الاعصار السالفة المتقاومة عصراً بعد عصر الى زماننا هذا ، مع شدة البحث ، ولزوم الدأب ، وايثار التعب في ذلك » (١) .

على هذا النحو ، وبمثل هذا الوعي ، يؤمن (الكندي) بالنسب الفلسفي ، ويرى انه لم ينل الحق — بما يستأهل الحق — احد من الناس بجهد طلبه ، ولا احاط (به) جميعهم . وهذا يعني — بلغة اليوم — ان الحقيقة تراث مشترك ، وقيمة سرمدية مثلى . وليست بالشيء الناجز التام الصنع ، المتوارث بوعي كسول ، وان على كل فيلسوف ان يكون نسيباً وشريكاً لكل فيلسوف ، فلاينال الحق — بما يستأهل الحق — احد من الناس بجهد طلبه ، ولا احاط به

---

(١) رسائل الكندي الفلسفية ص ١٠٢ ، وانظر ايضاً : كتاب الكندي الى المعتصم بالله في الفلسفة الاولى — تحقيق الدكتور احمد فؤاد الاهواني ص ٧٩ — ٨٠ .

جميعهم ، وفي هذه الاشارة الاخيرةماينبه على ان الفلسفة أو الحق ، حاضر سرمدي ، يتـكامل الالمام به باطراد ، ويتعذر ان تحدد له نهاية أو ختاماً ، حتى ينقلب الى معطى نهائي محدد لتمكن احاطة الجميـع به . وغاية مايطمح في نواله الفلاسفة اللاحقون ان يشاركوا بثمار افـكار انسابهم وشركائهم من السابقين وان كانوا من غير لسانهم ولا من أهل ملتهم ، فاذا جمع يسير ماناله كل واحد من النائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل .

نجح (الكندي) ، احسن النجاح واسماه ، في غزو استقلال الفلسفة ، وانتزاع الاعتراف بأصالتها وبحقها في الوجود والنماء ، وتلاه في السير على درب الجهاد الاعظم (المعلم الثاني) ثم (الشيخ الرئيس) ، وقد نشأت من تجربتهم الفلسفية حركة اولى نسميها بالمدرسة الفلسفية في المشرق ، ونطلق عليها اسم التيار العقلي بالاضافة الى تيار فلسفي آخر لايفطن اليه بالعادة مؤرخو الفلسفة الاسلامية ، وهو تيار ثقافي معقد النزعات ، متنوع الاساليب ، ولكن ممثليه يتفقون في الانطلاق المتمرد الذي يرفض مبدأ الحقيقة الناجزة ، ويرى على العكس ان العقل الانساني الصرف ينتج التنوع والتباين بحسب الازمنة والامصار ، وان التطور التاريخي تطور موصول متـكامل يستعين فيه اللاحقون بالسابقين لبناء « حكمة » انسانية هي لباب الحضارة ، وجوهر المدنية والعمران ؛ ومن أشهر ممثلي هذا التيار الانتقادي (ابن المقفع) و (النظام) و (الجاحظ) و (السجستاني) و (التوحيدي) و (المعري) و (اخوان الصفاء) واضرابهم .

ولسنا نغالي اذا قلنا ان فيلسوفنا (الكندي) هو ، في الوقت ذاته ، واضع حجر الاساس في التيار الفلسفي العقلي وفي التيار الفلسفي الانتقادي معاً ، فقد رأى ان الفلسفة هي سبيل البحث بالعقل عن الحق على الرغم من تعاقب الاجيال واختلاف العقائد والالسن والازمنة والمـكان والاتجاه . وقد حذا حذوه في ذلك (الفارابي) الذي انزل الفلسفة منزلة الصدارة ، واتخـذها مشعلا يضيء نوره مظاهر الحياة الاسلامية جميعا ، وسعى الى اصلاح المجتمع واقامة المدينة الفاضلة بالاعتماد على الفلسفة ، وبجعل الرئاسة وقفاً على النبي ـ الفيلسوف ، وقد آمن بوحدة الفلسفة وابى الا ان يدفع عن زعيمي الفلسفة القديمة « عار » الافتراق والاختلاف ، وبذل غاية جهده السخي للتوفيق بين آرائهما لينقذ الفلسفة من الوهن ، ويصون الحـكمة من ان تكون موضع شك وارتياب .

اما الشيخ الرئيس (ابن سينا) فيعرب عن موقفه من التجربة الفلسفية بقوله : « وبعد ، فقد نزعت الهمة بنا الى ان نجمع كلاما فيما اختلف اهل البحث فيه ، لانلتفت فيه لفتة عصبية أو هوى ، او عادة او الف ؛ ولا نبالي مفارقة تظهر منا لما الفه متعلمو كتب اليونانيين الفا عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب الفناها للعاميين في الفلسفة ، المشغوفين بالمشائين ، الظانين ان الله لم يهد الا اياهم ، ولم ينل برحمته سواهم ، مع اعتراف منا بفضل افضلهم (ارسطو) في تنبيه لما نام عنه ذووه واساتذته ، وفي تمييزه اقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفي ترتيبه العلوم خيرا مما رتبوه ،

وفي ادراكه الحق في كثير من الاشياء ، وفي تفطنه لاصول صحيحـة في اكثر العلوم ، وفي اطلاعه الناس على مايته فيه السلف واهل بلاده ، وذلك اقصى مايقدر عليه انسان » .

فالشيخ الرئيس يعي حق الوعي تكامل الفلسفة عبر تجارب الفلاسفة ، ويعترف بفضل (ارسطو) بالنسبة الى ذويه واساتذته ، ولكنه لاينسى اصالته الخاصة ولا يتردد في دفع عجلة النشاط الفلسفي الانساني الى الامام ، ولا سيما في الامور التي لايجوز التغافل عن اهميتها ولا يصح الاغضاء عن التخبط فيها . يقول : « وا كثنا ما ارادوه وقصروا فيه ، ولم يبلغوا اربهم فيه ، واغضينا عما تخبطوا فيه، وجعلنا له وجها ومخرجا ، ونحن بدخلته شاعرون ، وعلى باطله واقفون. فان جهرنا بمخالفتهم فعن الشيء الذي لم يمكن الصبر عليه ، اما الكثير فقد غطيناه باغطية التغافل » .

ان الخطوة التي يعتز (ابن سينا) بتحقيقها هي هذه الخطوة الصغيرة التي تشتمل على القليل مما لايمكن الصبر عليه،اما الكثير فقد غطاه باغطية التغافل ،كل ذلك حرصاً على «سمعة الفلسفة» لدى العاميين المشغوفين بالمشائين ، الظانين ان الله لم يهد الا اياهم ، ولم ينل برحمته سواهم . اما فيما وراء ذلك فان الحق احق بأن يتبع ؛ وهنا نلقى وحدة الموقف الفلسفي لدى ثالوث زعماء التيار العقلي في المشرق ، حين نذكر ايشـار (المعلم الثاني) التعلق بالحق على التعلق بالمعلم الاول ، ونذكر قبل كل شيء ان (الكندي) هو الاسبق الى تقرير قاعدته الذهبية : « لاشيء اولى بطالب الحق من الحق ، وليس (ينبغي) بخس الحق ، ولا تصغير بقائله ، ولا بالآتي به ، ولا احد بخس الحق ، بل كل يشرفه الحق » .

ويضيق بنا المقام لوشئنا التوسع في تبيان اثر (الكندي) في شق الطريق امام زعماء التيار الفلسفي الانتقادي في مشرق البلاد العربية ، ولكننا نكتفي بالالماع الى ان (ابا العلاء) ، مثلا ، يرقى الى معالجة المشكلات الفلسفية من زاوية موقفه المتمرد الجامع الطامح بالوصول الى الحق في جميع الموضوعات ، وعلى المستويات كلها . انه ينقد الديانات والعقائد والمتدينين والفقهاء والمتصوفة والزهاد والرهبان والحكام والقضاة والادباء ، ينقد الدنيا والعصر والاسرة والابناء ويفضح الفساد حيث كان فساد . وليس لهذا الهدم المنهجي الشامل من معنى تشاؤمي سوى المعنى الذي ينتفي مباشرة من الايمان ـ على العكس ـ بالحقيقة السرمدية الـتي يفسرها تجسدها في الواقع الشخص ، الواقع الحاضر ، ولكن فسادها يدل على ان قيمتها المثلى موجودةدوما ،حاضرة على نحو سلبي ابدا .

طرح الاعمى اذن على الصعيد الانساني معضلات الحيـاة والحضارة وقيم الحق والخير والصدق والاخلاص ، وبذا تمرد بتجربته الفلسفية على قيود بيئته وعقيدته وامته ، ودارت احاديث « الامتاع والمؤانسة » في حضرة (السجستاني) و (التوحيدي) وندواتها المتألقة

الصريحة على البحث المتعمق في كل مايتصل بشؤون الحيـاة واسرار النفس ومشكلات الوجود والسياسة والمال ، وليس في وسع الناظر في حديقة آثار (التوحيدي) الا ان يذهل لسعـة آفاق الفكر الفلسفي الحر الشامل الذي يعترف لكل امة وفرد بما يستحق من فضل في تنميـة الحقيقة والكشف عن جوانبها وهوامشها باطراد . يقول (ابوسليمان) : اشتركت الامم في جميع الخيرات والشرور ، وفي جميع المعاني والامور ، اشتراكا اتى على اول التفاوت واوسطه وآخره . ثم استبدت كل امة بقوالب ليست لاختها ، واشتراكهم فيها كالاصول ، واستبدادهم كالفروع ، وفيا اشتركوا فيه المحمود والمذموم الا انهم مع هذه الاصول والقواعد تقاسموا اشياء بين الفطرة والتنبيه ، وبين الاختيار والتقدمة ، فصار الاستنباط والغوص والتنقير والبحث والاستكشاف والاستقصـاء والفكر (ليونان) ، والوهم والحدس والظن والحيلة والتحيل والشعبذة (للهند) والحصافة واللقف والاستعارة والايجاز والاتساع والتصريف والسحر باللسان للعرب ، والروية والادب والسياسة والامن والترتيب والرسوم والعبودية والربوبية للفرس .(١)

اما (اخوان الصفاء) فان تجربتهم الفلسفية الانتقادية تتناول اخلاق الناس بالعقيدة وتعصب كل ذي رأي لرأيه على انه وحده هو الحق ، وقد وجدوا ان هذا التعصب والانحياز مصدر الالم والشر والفساد والضلال ، ذلك ان الحقيقة عندهم هي نتاج العقل والنقل معـا ، وثمرة التطور والتاريـخ ، ولابد من ان تتآزر الاديان واللغات والمذاهب والاجناس والاقوام باتحاد كلمـة البشر ــ من حيث وحدتهم الانسانية الماثلة في وحدة صورتهم البشرية ــ فيكون مثالهم الاسمى هو الانسان **« العالم الخبير الفاضل الذكي المستبصر ، الفارسي النسبة ، العربي الدين ، الحنفي المذهب ، العراقي الآداب ، العبراني الخبر ، المسيحي المنهج ، الشامي النسك ، اليوناني العلوم ، الهندي البصيرة ، الصوفي السيرة ، الملكي الاخلاق ، الرباني الرأي ، الالهي المعارف ، الهمداني »** (٢) .

الفلسفة في نظر (اخوان الصفاء) هي سبيل الباحثين عن الحقيقة ، التاركـين الهوى والجدل ، غير المتعصبين على المذاهب . وماهذه النظرة العريضة الداعية الى بناء الحضارة الانسانية على اساس الاتفاق الفلسفي ووحدة الصف الثقافي بين البشر الا ثمرة يانعة من ثمار البذرة التي القاها (الكندي) في البيئة العربية الاسلامية حين دعا الى التعصب للحق ، وايثـاره وطلبه وكسر الحدود والقيود ، والتآزر في سبيل التقدم والعمران ، وكأنه يومىء الى ان عبء الفـاعلية التمدينية انما يقع دائماً ، كما يقول (جورج باستيد) (٣) ، على قيم الثقافة ، هـذه القيم التي تتوسط بين الطبيعة ــ كمعطى ــ والاخلاق ــ كمثل اعلى .

---

(١) التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ج ١ الليلة ١٤ .
(٢) رسائل اخوان الصفاء ج ٢ ص ٣١٦ .
(٣) انظر : المدنية : سرابها ويقينها . الترجمة العربية ص ١٤٧ .

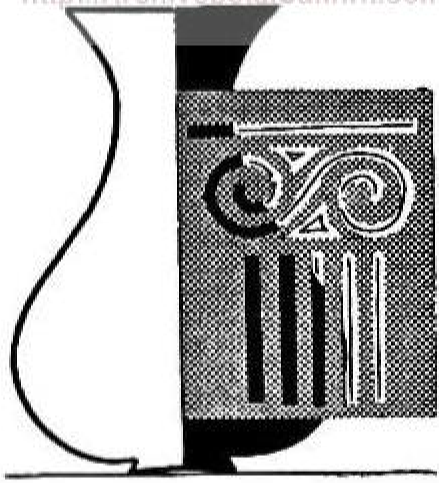
نشطت التجربة الفلسفية العربية حيناً من الدهر في المشرق ، فقام حجة الاسلام (الغزالي) بارتكاس شامل عنيف طعن به النشاط الفلسفي بتياريه العقلي والانتقادي معــاً . ورسم في « التهافت » حدوداً للصواب واخرى للخطأ والبدعة والكفر ، وسحر بتأثيره الملحم اذهان المفكرين في الشرق ، فانصرفوا عن الفلسفة والفكر الانتقادي الحر ، وامتدت اصداء ضجته الكبرى الى مغرب البلاد العربية وكادت ان تنتصر في سحق الفلسفة منذ بادىء الامر لولا مقاومة عتيقة ابداها اعلام الفلسفة المغربية مثل (ابن باجه) و (ابن طفيل) و (ابن رشد) ، حتى و (ابن خلدون) .

ف (ابن باجه) مضى في تنمية التجربة المشرقية وحذا في (تدبير المتوحد) حذو (المعلم الثاني) ورأى ان في وسع العقل البشري الوصول الى الكمال باعتماد التفكير الذاتي وحده بدون نقل ولا تقليد ولا تعليم ولا ارشاد فكان رأيه خطوة قصوى بالاضافة الى آراء (الفارابي) و (الكندي) من قبل . وسعى (ابن طفيل) الى جلاء هذا المنحى ذاته في (حي بن يقظان) وكأنه يلقي على تاريخ الفلسفة الاسلامية نظرة شاملة منسقة ؛ حتى جاء (ابن رشد) اخيراً ، ووقف يذود عن الفلسفة بالاعتماد على نضج التطور الفلسفي الاسلامي السابق ويرد على (التهافت) بتهافت جديد ، ويرى ان دفاعه عن (ارسطو) ، ذاك المعلم اليوناني القديم ، دفاع عن الفلسفة بالذات ، لانه « اسمى صورة تمثل فيها العقل الانساني » وبذا نلقى ان المبادهة التي انطلق بها (الكندي) قد غدت سنة راسخة وتقليدا ثابتاً موصولا ، وتم للفلاسفة العرب والمسلمين اعترافهم بأن تجربة الفكر الفلسفي تجربة مفتوحة على حاضر متجدد دائما ، ولكنه حاضر يتجسد فيه سرمد القيم الفلسفية في صور التطور التاريخي المتعاقب عبر الزمان والمكان .

ولعل من الطريف ان نذكر هنا ان (ابن خلدون) ، عدو الفلسفة التقليدية ، يعتنق هو ذاته فلسفة متميزة تؤكد المنحى الذي نلمع اليه . فقد انطلق من التجربة التاريخيــة الكبرى لدى الامم والاقوام والشعوب ، ورأى بكل صراحة وجلاء ان الحضارة غاية العمران ، وانها اذا تجلت في امة ، وتجسدت في دولة ، وبلغت اوج كمالها خلال فترة من الزمان ، آذن تجسدها في الحاضر بنهاية وجودها في امة ومكان ، وبشر بقرب انتقالها الى مكان آخر ، وامة ثانية ، او تحولها في المكان الواحد من اسرة الى اخرى ، ومن ملك الى ملك ، وما الرباط الاجتماعي بنيته الثقافية والاقتصادية سوى العامل السرمدي وراء تحول الدول وتقلبهــا على مر الايام . ولكن (ابن خلدون) لايرقى صراحة الى فكرة تعاون الامم المتحايثة في بناء صرح انساني واحد ، تسهم فيه الشعوب والاجناس والقوميات كل بحسب ظروفها وطراز نبوغها وتفوقها ، فتنشأ المدنيــة من اطراد تقدم القيم في سيرها نحو (انسانية) تزداد وعيا بذاتها يوماً بعد يوم . وانما بقي (ابن

خلدون) متلمقاً بالبحث الوضعي عن قوانين التطور وفلسفة التاريخ ، وانصرف عن التحليق في اجواء الفكر الفلسفي القدام ، فكان انحرافه بداية علم ، ونهاية سلسلة رائعة من التطور الثقافي الذي بدأ في المشرق العربي بالفيلسوف (الكندي) ، قاهر التعصب ، وعدو التقليد ، وغا عبر مراحل التجربة الفلسفية الاسلامية حتى حلق في اجواء النظرة الواحدة الموحدة التي دعا اليها (اخوان الصفاء) حين دعوا الى بناء صرح الحضارة والمدنية على اساس وحدة الانسان .

ان المدنية، بالمعنى التي ، التقاء الانسان بالانسان التقاء تفهم وتعاون لجامع وحدة «الصورة الانسانية» . ومن شأن التجربة الفلسفية انها تشعر البشر بمسؤوليتهم في تقدم المدنيـة واشادة الحضارة بجهد الانسان . وقد كان للفلاسفة العرب في مشرق البلاد العربية ومغربها فضل كبير ، ومساهمة جلى ، في توضيح هذا المعنى الذي هو رهن بالفلسفة ، وواجب على الفلاسفة ، وكان لـ (الكندي) في هذا كله الفضل الاكبر ، فضل الاب الرائد ، والعبقري الشاعر العظيم .



الانتاج الفلسفي

في الثقافة العربية المعاصرة

للدكتور سامي الدروبي

... ان نهضتنا الحديثة ، لم تنجب لنا فلاسفة . لماذا ؟!
هذا ما يجيب عليه الكاتب بمعالجة مسددة : مفتتحاً بذلك باب البحث والمناقشة .

« ومن صفات هذا الانتاج (الفلسفي) تقصيره عن مشارفة الانتاج الفلسفي في أوروبا وأمريـــكا ، فهو لايزال حتى الآن في سني حداثته ، لم يطرق باب الابتكار الا قليلا ، واكثر الذين طرقوا باب الابتكار لم يطرقوه الا على عجل ، فظل ابتكارهم مقصوراً على تحقيق فكرة جزئية ، اوحل شبهة معينة ، او تصور نظرية وضعوا أسسها دون ان يبنوا عليها مذهباً فلسفياً كاملاً » .

الى هذا الحكم المعتدل على انتاجنا الفلسفي ينتهي

الدكتور جميل صليبا من استعراضه الجميل لهذا الانتاج خلال مائة عام [1]. والحق انه ما من احد يطمع في أن يشارف انتاجنا الفلسفي في مطلع نهضتنا الانتاج الفلسفي في اوروبا وامريكا ، ولكن لاشطط في ان نتوقع ان يكون انتاجنا الفلسفي في مستوى سائر انتاجنا الثقافي ، وخاصة الأدب والشعر ، وهذا مالا نراه في الواقع.

ان من الظاهرات التي تلفت النظر وتقتضي التأويل ، في حياتنا الفكرية المعاصرة ، ان نهضتنا الحديثة قد انجبت شعراء كباراً وقصاصين افذاذاً ، لكنها لم تنجب فلاسفة . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر بعض الكتاب والنقاد ، فحاولوا ان يفسروها بما تراءى لهم من عوامل .

فمن قائل ان العقل العربي غير مؤهل للتفكير الفلسفي ، وان العرب ميسرون بفطرتهم للشعر ، ولمايشبه الشعر من فنون التعبير عن الوجدان ، أما التفكير الفلسفي الذي يقوم على التجريد فالعقل العربي ينفر منه أو يزهد فيه .

غير ان نظرة سريعة بسيطة نلقيها على التراث الثقافي العربي تظهر لنا بطلان هذا الرأي ، وتدلنا على ان الميل الى التجريد بل الاغراق فيه صفة أصيلة في طبيعة العرب . وآية ذلك شدة عناية العرب في عصرهم الذهبي بالرياضيات ؛ وحين وضع العرب مبادىء الجبر فقد نقلوا الرياضيات من افق في التجريد الى افق أعلى ، فالاستغناء عن الارقام بالرموز مرتبة عليا من مراتب التجريد ، ولولا ظهور الهندسات اللااقليدية التي بنيت على اساس تصور اربعة ابعاد للمكان أو اكثر ،

---

(١) جميل صليبا ، « الانتاج الفلسفي ــ الفلسفة عموما وفلسفة العلوم » وهو البحث الذي القاه الدكتور صليبا في الحلقة الدراسية الحادية عشرة التي وقفتها الجامعة الامريكية ببيروت على دراسة « الفكر الفلسفي في مائة عام » ونشرته هيئة الدراسات العربية في كتاب بذلك العنوان ضم البحوث الاخرى التي القاها الاساتذة خليل الجر ، ماجد فخري ، فريد جبر ، عادل العوا ، ألبير نادر ، ابراهيم بيومي مدكور ؛ بيروت ١٩٦٢ .

لكان يجوز أن يقال ان العرب نقلوا الرياضيات بالجبر الى ذروة التجريد . وقد بلغ الامر ببعض دارسي الحضارة العربية ان عدوا العقل العربي مسرفا في ميله الى التجريد ، وذهبوا الى ان هذا الافراط في حب التجريد كان آفة من آفات العقل العربي حين القى ظله على آثار من آثار الفكر ماينبغي ان يكون له فيها ظل ، فهو المسؤول عن ان العرب جعلوا فن التصوير زخارف وتزيينات ، وأفرغوا الرسم من التعبير عن الواقع العيني ، وأحالوه خطوطاً لا تذكر بما في الطبيعة من اشكال المادة الجامدة او صور الكائنات الحية ؛ وهو المسؤول عن ان الموسيقى العربية خالية من التصوير والتعبير ، فهي صعود وهبوط على السلم الموسيقي ومزاوجات شتى بين النغمات تريح الاذن ولكنها لا تعبر عن صبوات القلب ولا تصور صراعا في النفس ولا تفصح عن خافية من خوافي حياة الوجدان ، وهي بذلك نوع من الآرابسك مادته الأنغام ، ي هي زخارف وتزيينات ، أي هي عبث من عبث العقل فيما يأخذ به نفسه من تحليل وتركيب على مستوى التجريد . حتى لقد ذهب بعض هؤلاء الدارسين للحضارة العربية الى ان الشعر العربي نفسه ، على ما فيه من غنائية لا تنكر ، يشكو من هذا الميل الراسخ في العقل العربي إلى احالة الادراكات الحسية معاني مجردة ، فاذا بالاحساسات والعواطف تجرد من ألوانها وظلالها ، فلا يبقى منها الا معناها العقلي . وعند المستشرق ماسينيون — رحمه الله وغفر له — ان العربي لا يتحرك في الواقع العيني بل في صورة عقلية بناها ذهنه عن هذا الواقع ، ويضرب ماسينيون على ذلك مثالاً بمجنون ليلى حين سأل ليلاه أن تغرب عنه حتى لا يفقد حبه لليلى !...

لئن كان في هذه الآراء غلو ، لاشك في ان العقل العربي الذي انشأ الجبر لا يفتقر الى مايحتاج اليه التفكير الفلسفي من قدرة على التجريد . ومالنا ولهذا

كله ؛ ان العرب حين اتصلوا بالثقافات الاجنبية ، ثقافات الهند وفارس واليونان ، واصطفوا من تلك الثقافات مايقابل ميولهم ويتجاوب مع استعداداتهم ويلبي حاجاتهم، قد عنوا بالفلسفة من تراث هذه الثقافات اكثر مما عنوا بالادب ، وتأثروا بالفلسفة اكثر مما تأثروا بالادب ، بل ان المذاهب الفلسفية الـــتي استأثرت بهم كانت هي المذاهب العقلية في الدرجة الاولى ، كما انهم حفلوا من بين مشكلات الفلسفة بتلك التي تفرغ الواقع من محتواه العيني ، وتغرق في التجريد، فقد اهتموا بالمنطق مثلاً اكثر من اهتمامهم بالاخلاق . وربما كان لهذا كله اسباب اخرى غير الميل الى التجريد والقدرة عليه ، ولكن الميل الى التجربة لا يمكن الا ان يكون عاملاً متمماً إن لم يكن عاملا مولداً . فليس في وسعنا اذن ان نذهب الى ما ذهب اليه بعض الباحثين من أن خلو انتاجنا الثقافي المعاصر من البحث الفلسفي الذي يرقى الى مستوى ابداعنا في مجال الادب والشعر يرجع الى ان الفكر العربي يؤثر المعرفة الفجرية ، على حـــد تعبير كروتشه ، أعني المعرفة بالحدس احساساً وشعوراً ، والى انه لم يصل الى مرحلة المعرفة المنطقية ، على حد تعبير كروتشه ايضاً ، أي المعرفة بالتجريد العقلي .

ومن قائل ان خلو ثقافتنا العربية المعاصرة من الفكر الفلسفي انما يرجع أولاً وقبل كل شيء الى ان الفكر الفلسفي لاينمو ولا يزدهر الا في جو من الحرية الفكرية ، وهذه الحرية الفكرية لا تتوافر في مجتمعنا العربي ، فالشعور الديني يطرد التفكير الفلسفي ، ورجال الدين يتهمون بالكفر والزندقة والالحاد كل من يخرج على طريقة الدين لا في حل المشكلات فحسب ، بل في طرحهـــا ايضاً ، والجمهور وراء رجال الدين يحمل الهراوة ويلوح بها لكل من تراوده نفسه أن يغضب رجال الدين بالتفكير في شؤون الفلسفة على غير ما يحبون ؛ إن للغزالي تلاميذ أشد منه

ضراوة في الكلام على « تهافت الفلاسفة » (١) . إلى مثل هذا ذهب الدكتور محمد مندور في مقالة نشرها منذ زمن . ونحن نرى أن هذا الرأي قاصر عن التعليل ، وذلك لعدة أسباب ، اولها أن الفلسفة ليست إلحاداً كلها ، وان الملحدين من الفلاسفة نفر قليل اذا قيسوا بالمؤمنين منهم . ولقد كانت الفلسفة دائماً وراء الدين تسنده لاتحاربه ، وتعززه لاتقاتله ، والحق أن التدين والتفلسف يصدران عن ينبوع واحد هو هذا التساؤل القلق تجاه الكون ، وهذه الرغبة الملحة في اكتناه سره ، حتى لقد قال احد الفلاسفة المعاصرين : الدين بذور فلسفة ، بداية فلسفة ، او هو موقف فلسفي لم يستنفد جميع أساليب التعبير عن ذاته . والفلاسفة الذين ألغوا الدين قد ألغوا الفلسفة في الوقت نفسه ، وقصروا نشاط العقل الانساني على دراسة ظاهرات الطبيعة واستخراج قوانينها ، أي اكتفوا بالعلم واستغنوا عن كل ماعدا العلم سبيلا الى معرفة الحقيقة . لاشك ان بعض المتدينين يضيقون ذرعا بطريقة الفلاسفة في طرح المشكلات وفي حلها ، ان تجربة الغزالي لايجهلها احد . ولكن كتاب « تهافت الفلاسفة » الذي ألفه الغزالي لم يمنع بقية المتدينين من الاقبال على النظر الفلسفي بحثاً عن الطمأنينة الدينية نفسها ، هذه الطمأنينة التي وجدها الغزالي في الغاء النظر الفلسفي اساساً والاستسلام للايمان البريء ، لاولا كان الضغط الديني بمانع حتى الملحدين من الفلاسفة من مواصلة البحث الفلسفي رغم تعرضهم لألوان من الاضطهاد . لقد شهدت القرون الوسطى انواعا من الاضطهاد الديني لا يعرفها عصرنا هذا ، ومع ذلك يمكن أن تعد القرون الوسطى من احفل

(١) منذ بضعة اشهر اذيعت من تلفزيون دمشق ندوة كان الحديث فيها على ضرورة تحريم دراسة الفلسفة في المدارس والجامعات خوفا على عقول الطلاب من ان تضلها الفلاسفة عن عقيدتها الدينية .

فترات تاريخ الانسانية بالنتاج الفلسفي ، الديني منه وغير الديني . فلا نستطيع اذن ان نقول ان الضغط الديني في مجتمعنا هو المسؤول عن خلو ثقافتنا المعاصرة من الفكر الفلسفي الناضج ومن الاتجاهات الفلسفية الواضحة المعالم . ولنلاحظ أن عدداً غير يسير من الكتب الفلسفية المعادية للتفكير الديني قد ترجم الى العربية ، ثم لم يرد مجتمعنا على ذلك باستنكار عنيف يعرض أحداً لشيء من الاذى في حياته أو معاشه .

ومن قائل ان المجتمع العربي قد شغل عن النظر الفلسفي بما يخوضه من معارك في سبيل حريته وبقائه ، والحياة قبل التفلسف كما يقول برجسون . وعندنا أن هذا الرأي قاصر أيضاً عن التعليل . فالحركات النضالية التحررية تبحث لنفسها دائماً عن مرتكز فكري تستند اليه وتقوم عليه ، ولقد كان خليقاً بنضال العرب في سبيل حريتهم وبقائهم ان يشجع على التفكير الفلسفي أساساً لهذا النضال . فسواء أقلنا ان الفكرة أول العمل كما ذهب الى ذلك بعض المفكرين أم قلنا إن الفكرة انعكاس العمل والظروف ، كما ذهب الى ذلك مفكرون آخرون ، أم قلنا ان هنالك ديالكتيكا بين الفكرة والعمل ، فلا بد أن نسلم بأن الحركات التحررية ينبغي أن تحض على نماء الفكر الفلسفي .ونحن نرى في الواقع أن مايشتمل عليه نتاجنا الثقافي المعاصر من بذور تفكير فلسفي انما يرجع الفضل فيه الى محاولات فلسفية مرتبطة بالنضال السياسي والاتجاهات الحزبية . ان من شأن المعارك التحررية أن تحض على نماء الفكر الفلسفي ، اذا توافرت الشروط الاخرى لهذا النماء . ولا بدلنا إذن أن نبحث عن تلك الشروط الاخرى التي أدى فقدانها الى فقدان الانتاج الفلسفي القيم .

لقد حاول الدكتور جميل صليبا في بحثه الذي سبقت الاشارة اليه أن

يشير الى بعض الاسباب التي أدت الى ضعف نتاجنا الفلسفي فقال : « ربما كان ذلك ناشئاً عن طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه ، فهو لم يهيء لنا بعد اسباب التخصص العميق ، ولم يعودنا التفرغ للبحث العلمي الهادىء الرصين . وا كثر اساتذة جامعاتنا مصروفون عن الانتاج المبتكر الى التأليف المدرسي ، ومدفوعون عن الحياة التأملية الى الحياة العملية يكسبون فيها رزقهم ، لم يتوافر لهم جميعاً ما توافر لعلماء الغرب من طمأنينة فكرية وضمان اجتماعي ».

ولسنا نطمع هنا في تقصي الاسباب التي جعلت انتاجنا الفلسفي مقصراً عن انتاجنا في سائر حقول الثقافة ، ولكننا نحب أن نشير الى واحد من هذه الاسباب يتراءى لنا انه اساسي ، مكتفين باثارة هـــذا الموضوع اثارة نرجو ان نحض على على تناوله بالبحث والمناقشة :

ان التفكير الفلسفي « خلافاً للشعر وسائر الفنون » يعتمـــد على تراث ، ولايمكن ان يقوم الا على تراث غني متطور ، شأنه في ذلـك شأن البحث العلمي سواء بسواء . اننا نستطيع ان نتصور راعيـاً من الرعاة قبل آلاف السنين يغني شعراً ويعزف على شبّابة ويرقص مع جماعة ويجبل تمثالاً . ولكننا لانستطيع أن نتصور ذلك الراعي ينشيء فلسفة أو يحقق كشفاً من كشوف العلم . صحيـح ان التفلسف يبدأ بتساؤل قلق ، ولكن الجواب الناضج على هذا التساؤل انما يتغذى من تراث يتراكم خـلال قرون . والعرب قـد انقطعوا عن تراثهم الفلسفي المتطور الغني ، فنحن نعنى الآن بادبنا اكثر مما نعنى بفلسفتنا ، وأكاد اقطع باننا نوشك ان لانولي فلسفتنا شيئاً من العناية البتة ، وآية ذلك ان مناهج الدراسة الثانوية في ارجاء الوطن العربي خالية من الاهتمام بتراثنا الفلسفي ، باستثناء إشارات ليس فيها غناء .

●

اقتراحات لتطوير التعليم في البلاد العربية

للدكتور نوري جعفر

يردد المرء حقيقة مسلما بها اذا ما قال بوجود صلة عضوية (غير قابلة للانفصام من الناحية العملية) بين نظام الحكم (وقاعدته الاقتصادية بالطبع) في اي قطر من الاقطار وبين نظام التعليم فيه . ذلك لان التعليم — في واقعه وبعد التحليل الدقيق — وجه واحد من اوجه الحياة الفكرية العامة للمجتمع الذي ينشأ فيه وهو انعكاس للوضع السياسي العام يستند اليه (من حيث وجوده ومظاهره) ويسنده من حيث مفاهيمه واتجاهاته العامة . وهذا يعني — بعبارة أخرى — ان هنالك علاقة وثقى واثراً متقابلا بين السياسة العامة للدولة وبين سياسة التعليم فيها . فاذا كانت السياسة العامة

---

* تأخرت « المعرفة » في نشر هذا البحث القيم في موضوع جليل ، ويسرها اليوم أن تنشره في عددها الممتاز .

تستند الى الشعب وتنبثق من مصالحه التقت مصالح الحكومة بمصالح الشعب بفئاته المختلفة واتجهت جهودها المادية والفكرية نحو خدمة مصلحة المجتمع في جميع مناحي الحياة. واذا حصل العكس انفصلت مصالح الحكام عن مصالح اغلبية افراد الشعب وتعرضت هذه المصالح للنمط والاعتداء من قبل الحكومة ومن قبل الفئات التي تعبر الحكومة عن مصالحها السياسية والاقتصادية. ويتردى الوضع كثيراً اذا ما كان الحكام المحليون يعملون بدورهم لخدمة مصالح المستعمرين بشكل مغلف او مكشوف (كما كان الوضع في بعض انحاء العالم العربي قبل حصوله على الاستقلال) فيتخذ التعليم عندئذ — كما تتخذ مرافق الدولة الاخرى وسيلة لحماية تلك المصالح غير الشرعية عن طريق تثبيت الاوضاع الفاسدة التي تسندها ومحاولة استئصال الآراء الوطنية التي تناهضها بمختلف الوسائل الزجرية المتيسرة. وتصبح — بنتيجة ذلك علاقة الشعب بالحكومة كعلاقة الطير بالصائد لا كعلاقة الجيش بالقائد. كما تصبح مساعي الشعب الرامية لتحقيق مصلحته العليا منصبة على مناوأة الحكومة المتحفزة هي الاخرى لمناوأته.

كما ان المرء يردد ايضاً حقيقة اخرى مسلماً بها اذا ما قال إن من يتتبع تاريخ التعليم والمؤسسات الثقافية يلحظ ان انتشار التعليم قد سار جنباً الى جنب مع التطور الاقتصادي العام والتقدم الثقافي للجنس البشري. وقد تأثر التعليم — نوعه ومداه — بطبيعة المجتمع الذي نشأ فيه وبظروف عصره سياسياً ومن الناحية الاقتصادية. وكانت المدرسة — ومازالت — تعبيراً عن مصالح الفئة الاجتماعية — القليلة العدد او الكثيرة — المرتبطة بالسلطة السياسية ذات النفوذ. فالمدرسة في القرون الوسطى مثلا كانت — في اوربا — تعبيراً عن حاجات النظام

الاقطاعي وكبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وعن مصالحها . ولم يكن بمستطاع جماهير الناس – آنذاك – (وبخاصة القرويون والفلاحون) في كل ذلك النظام ان يحصلوا على التعليم حتى في ابسط اشكاله وادنى مراتبه ذلك لان التعليم لم يكن خاضعا للوراثة بمعناها الحديث، هذا بالاضافة الى ان لغة التدريس لم تكن هي نفسها لغة الجماهير كما ان محتوياته كانت بعيدة كل البعد عن مفاهيمهم وعن حياتهم الخاصة. ولم يكن من الجهة الثانية بمستطاع القرويين والفلاحين اقتصاديا وسياسيا ان ينشئوا مدارس لتعليم ابنائهم على غرار مدارس الاقطاعيين ورجال الدين . ولم تكن هناك – بالاضافة الى ذلك حاجة الى مثل ذلك التعليم . غير ان المجتمع الاوربي (عندما بدأ يتحول ، على اثر الثورة الصناعية – من الزراعة الى التصنيع ومن الريف الى المدينة وعندما ظهرت للوجود فئة جديدة من التجار والحرفيين والصناعيين كقوة نشيطة اقتصاديا وكقوة سياسية ايضاً على اثر الثورات الكبرى التي حصلت خاصة في انكلترة وفي فرنسة في القرنين السابع عشر والثامن عشر) استلزمت طبيعته الجديدة توسعاً في نطاق التعليم وتغيراً في محتوياته . وقد رافق ذلك ونتج عنه شمول التعليم – في مراحله البدائية ووفقاً لمصالح الساسة الجدد – ابناء الفئة الاجتماعية الجديدة الصاعدة آنذاك التي تسلمت السلطة من الاقطاعيين وكذلك ابناء الفئات المحرومة وفي مقدمتهم العمال الذين بدأ ظهورهم بشكل واضح في تلك الظروف . واخذ التعليم – منذ ذلك الحين – يتسع ولكن بحدود وبخاصة في طرفه الاعلى حتى قيام الثورات الحديثة في كثير من الاقطار في اعقاب الحربين العالميتين الاولى والثانية حيث اتسع نطاقه في تلك الاقطار وأصبح – في جميع مراحله – ملكا مشاعا لجميع المواطنين .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نعيد القول – لغرض التأكيد : بان

التعليم كان حتى منتصف القرن الماضي وفي جميع الاقطار ملكا خاصا لفئة قليلةمن افراد المجتمع وكان ايضا مقتصرا على المراحل الاولى من التعليم في الامم الاغلب، وقد حصرت غالبيته في ابناءالساسة والمتنفذين ورجال المال وانحصر اغلبه في الذكور منهم دون الاناث وبخاصة في مراحله الاخيرة . وكان الهدف الاساسي منه خدمة الاوضاع السياسية والاقتصادية القائمة آنذاك وتثبيت حكم الاسر والبيوتات والضالعين بركابها. الامر الذي ادى بالحكومات حينئذ الى ان تفرض رقابة صارمة على التعليم وتبسط قبضتها الحديدية الجائرة على محتوياته وهيئاته التدريسية اي ان التعليم كان — بعبارة اخرى — ملكا للفئات المتنفذة في المجتمع سواء كان ذلك من حيث سعته ام من حيث محتوياته وادارته . ولم يسمح لابناء غير المتنفذين بالتزود منه الا اضطرارا وبشكل محدود للغاية وفي مراتبه الاولى وبشكل يخدم من حيث الاساس مصالح المتنفذين . وسبب ذلك على مايبدو هو ان التعليم نشأ (في اوربا مثلا) لتزويد الدولة بكبار الساسة والموظفين الذين كانوا في القرون الوسطى مثلا — وبخاصة بين القرنين السادس والثاني عشر — يتحدرون في العادة من الاسر الارستقراطية الزراعية وكبار رجال الكنيسة الذين استحوذوا على وظائف الدولة الكبرى الادارية والدبلوماسية والعسكرية والقضائية حيث لم يشاهد من بين هؤلاء — الا في حالات نادرة والا بعد ان يتزيا بزي الفئة المتنفذة — من تحدر من ابناء المراتب الاجتماعية الاخرى . ثم اتسع نطاق التعليم نسبيا واتسعت محتوياته ايضا منذ الثورة الصناعية ابتداء من القرن السادس عشر حيث برزت فئة التجار وارباب المال واصحاب المعامل . فاتسعت قاعدة التعليم — الدراسة الابتدائية لتشمل ابناء الفئات الدنيا بمقدار ماينتفع بهم هؤلاء — واتسعت الى حد ما كذلك قمته — التعليم الجامعي — بحيث شمل ابناء الفئة الجديدة مع ما استلزمه ذلك من اضافة

في محتوياته فبعد ان كان مقصورا — من ناحية مناهجه — على الدين والآداب والفلسفة بشكلها الكلاسيكي المعروف — وهي التي تحتاج اليها الفئة الحاكمة القديمة اخذ يدخل في مناهجه العلوم والرياضيات والمواضيع الاجتماعية التي تحتاج اليها الفئة الجديدة . ولم يسمح في مرحلة التعليم العالي خاصة لابناء الفئات الدنيا — الطبقة العاملة الناشئة حديثا اذ ذاك وطبقة الفلاحين القديمة — الا بمقدار والا على مضض ووفقا لمصلحة المتنفذين الجدد . وبقيت الحالة على ماهي عليه من حيث الاساس الى الوقت الحاضر في المجتمعات الاوربية التي لم تتغير انظمتها السياسية والاقتصادية تغيرا جذريا . وابتدعت وسائل جديدة — تحت ستار الانتفاع من العلم الحديث — لصد جماهير الشعب عن مواصلة تعليمهم العالي وفسح مجالات جديدة للمتنفذين واخرى لغيرهم : وفي مقدمة ذلك اختبارات الذكاء التي تستمد محتوياتها — كما سنرى — من بيئة المتنفذين ، والمدارس الخاصة — في انكلترا مثلا — لابناء الساسة وكبار موظفي الدولة عامة وبقايا من ارستقراطية واجور باهظة ، والمدارس المهنية المختلفة التي تحول بين ابناء جماهير الشعب وبين مواصلة تعليمهم الجامعي .

غير ان الشعوب بنضالها المستمر العنيف والسلمي ارغمت حكوماتها (بعد تضحيات قدمتها بمر الاجيال) على توسيع نطاق التعليم ورفع مستوياته وتبديل الكثير من محتوياته وتحرره من كثير من القيود المادية والفكرية الى ان وصلت الحال الى ماهي عليه الآن والى ان اصبح التعليم (من الناحية النظرية) حقا مشروعا لجميع المواطنين تعترف به الدول على اختلاف انظمتها السياسية والاقتصادية رغم اختلافها في تحديد مراحله وتعيين محتوياته وتوفر امكانياته بحسب ظروفها الخاصة وانظمة الحكم فيها . على ان الدول التي ازدهر فيها التعليم

واتسع نطاقه وتحسن نوعه قد جنت ثماره اليانعة فتقدمت بنتيجته ماديا ومن الناحية الثقافية . واخذ كثير من الدول الحديثة يدرك مع الزمن استحـالة تقييد الفكر عند الانسان وتفاهة القيود الرسمية المفروضة عليه وبخاصة بعد ان تقطعت اوصال المسافات الشاسعة بين الدول بنتيجة العلم والتكنيك الحديث واتصلت اجزاء العالم بعضها عن طريق النقل المادي والفكري وعن طريق الاذاعة ووسائل الطباعة والنشر الامر الذي جعل مستحيلا عزل الطلاب وهيئات التدريس في غرف الدرس بعيدا عما يجري حولهم في وطنهم وفي ارجاء المعمورة من حوادث وآراء .

ومن الجهة الثانية فان التعليم اخذ يرتبط اوثق الارتبـاط في كثير من الاقطار بتوجيه الطلاب توجيها اجتماعيا سليما فرديا في آن واحد وبتنمية مواهبهم واستثمار طاقاتهم الجسمية والفكرية استثمارا ايجابيا نافعا لهم ولمجتمعهم وبتشجيع مبادراتهم وتعويدهم على التفكير الذاتي المستقل ضمن حدود الجماعة وجعلهم مشاركين ايجابيا في عمليـة التعليم فكريا واداريا لا افرادا سلبيين يتلقون المعلومات النظرية الجامدة ويخزنونها في اذهانهم لاعادتها في وقت الامتحان . كما ان التعليـم بجانبه النظري الاكاديمي الفكري (من ناحية المعلومات التي يلقيها المدرسون على الطلاب) اخذ هو الآخر ينفصل تمام الانفصال عن مقوماته القديمة المتعلقـة بمجرد الحفظ الآلي المتعلق بتدريب العقل على التذكر وتربية « ملكاته » الخاصـة عن طريق التدريب الذي كان شائعا بين رجال التعليم في القرن الماضي والذي انهارت اسسه بنتيجة الابحاث الحديثة في التربية وعلم النفس . هذا بالاضافة الى العلاقة الوثيقة المتبادلة النفع تعليميا التي نشأت حديثا بين المدرسة والبيئة المحلية وعلى نطاق القطر في الادارة ومن ناحية عملية التعليم . كل ذلك ينصب بالدرجة الاولى على تربيـة الطالب تربية متعددة الجوانب متناسقة الاطراف : خلقيا وفكريا وجسميا وعاطفيا من الناحيتين الفردية والاجتماعية .

ولا بد — في معرض اعادة النظر في قضايا التعليم في البلاد العربية — ان تثبت اولا الجوانب النظرية لفلسفة التعليم (المستمدة بالطبع من فلسفة الحكم) وان نصوغ اهداف التعليم بشكل واضح ودقيق وان نهيء ثانياً الوسائل اللازمة والظروف الملائمة (في نطاق التعليم وخارجه) لتحقيق تلك الاهداف من الناحية العملية وان نجعل ثالثاً تصرفات المشرفين على شؤون التعليم والمتعلقين بهم خارجة منسجمة مع تلك الاهداف وان نكوّن رابعاً جهاز مراقبة وتوجيه داخل عملية التعليم له من الكفاية المهنية والعملية ومن الاخلاص والاستقامة ومن الرغبة في العمل الجدي المتواصل مايمكنه من ممارسة مسؤولياته في مستوياته الرفيعة . وهذا يعني — بعبارة اخرى — ان المشرفين على شؤون التعليم - في شتى مواقعهم في اجهزته وبمختلف مراحله — يجب ان يجدوا في عملهم اليومي وفي الاطار العام لاتجاهات الدولة مايعينهم على التوصل الى الاجابة الصريحة — من الناحية المبدئية العامة — عن الاسئلة التالية : اي مجتمع ذلك الذي نسعى الى تكوينه ؟ اي نوع من الاشخاص الذين نريد صوغهم فكريا وجسمياً وعاطفيا ومن الناحية الاجتماعية لتكوين ذلك المجتمع ؟ اية عقبات (مادية وثقافية مباشرة وغير مباشرة) تعترض سبيلنا فيما يتعلق بالمجتمع الراهن وبالاشخاص الذين اوكل لنا امر تعليمهم ؟.

وبقدر مايتعلق الامر بالملامح العامة للمجتمع الذي نرى ان تبذل الجهود (التعليمية وغير التعليمية) لتكوينه يمكننا ان نقول : انه مجتمع ديمقراطي ينتفي فيه استغلال الانسان لاخيه الانسان (بجميع الاشكال ومختلف المجالات : ماديا وثقافيا) وما يرافق ذلك وينتج عنه من آثار سلبية تعرقل نمو الفرد والمجتمع على السواء . ولتحقيق ذلك في مداه الطويل لا بد من العمل يوما بيوم (بمثابرة وتصميم) على استئصال النزعات الضارة والاتجاهات المعاكسة وتشجيع كل مامن

شأنه ان يوصلنا الى تحقيق ما نصبو اليه : آخذين بنظر الاعتبار ان التعليم عملية بطيئة وشاقة ذلك لان الفرد الذى نسعى الى تهيئته لتكوين المجتمع الجديد ترتكز تصرفاته الفكرية ــ العاطفية خارج نطاق التعليم المدرسي ــ على مايتعرض لتأثيره من اوضاع فكرية وعاطفية في البيت الذي ينشأ فيه والعائلة التي ينتمي اليها .وهذه بدورها مستمدة من طبيعة حياة مجتمعية ماديا وفكريا بمقدار تعلقهـــا بموقع تلك العائلة في المجتمع سياسيا واقتصاديا ومن الناحية الثقافية . ولهذا فان كل اضطراب او خلل (يعرقل تحقيق المجتمع الديمقراطي الذي اشرنا اليه) نشاهده في مزاج التلميذ وفي تصرفاته يعود بشكل مباشر او غير مباشر الى بيئته الاجتماعية العـامة والخاصة . ولا يعالج ذلك بالطبع ــ معالجة جذرية بناءة ــ الا عن طريق ازالة ركائزه الاجتماعية العامة بالعمل على تغيير عوامله البيئية المباشرة وغير المبـــاشرة وتهيئة الظروف المثلى لاعادة صوغ مزاج التلميـــذ وتصرفاته بالشكل السليم . ولتكوين المجتمع الديمقراطي آنف الذكر لابد اولا وقبل كل شيء ان تصبح الثقافة الديمقراطية باوسع مداها وتعدد وجوهها ملكا مشاعاً للمواطنين جميعاً . شريطة الا يقتصر الامر في المدى البعيد على مجرد التمتع السلبي بها بل يتعداه الى المساهمة الايجابية الفعالة لنشرها وتطويرها وافساح المجالات عن طريقها لاستثمار اقصى حد مستطاع من طاقات الافراد ومواهبهم الموروثة والمكتسبة ومبـادراتهم الخلاقة . رافق ذلك ونتج عنه ــ بالاضافة الى التقدم المـــادي والفكري العام ــ ان افراد الشعب المثقف يكونون اقدر من غيرهم على تفهم مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات واكثر ضبطاً للنفس في تحمل مسؤولياتهم في حقول عملهم وفي مجالات المواطنة الاخرى . اذ لاشيء بنظرنا اكثر ضرراً في جسم المجتمع ــ من الناحية الداخلية ــ اثناء حركته الصاعدة البناءة من الاشخاص الجهلة

والحيارى المترددين والمتشائمين الفاقدي ثقتهم بأنفسهم وبامكانيات مجتمعهم غير المتناهية نحو التقدم والانطلاق . ذلك لان الانسان يستطيع ان يصنع المعجزات من ناحية العلم والتكنيك اذا ماهيئت له ظروف ملائمة للعمل وللحياة .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول : ان التعليم في العالم العربي يجب ان يكون في اتجاهاته العامة وطنياً وعلمياً وعاماً . ترتبط جوانبه النظرية بجوانبه العملية بالقدر المستطاع وبمقدار مايتعلق الامر باعمار البلاد واستثمار موارده البشرية وثرواته المعدنية والنباتية والحيوانية وتطويرها . فنحن في حقل التصنيع نحتاج الى اختصاصيين في شتى فروع المعرفة وفي جميع مستويات الدراسة والى عمال فنيين ماهرين متعلمين والى مهندسين واطباء ومعلمين على نطاق واسع . بالاضافة الى الحاجة الى ادوات الصناعة واجهزتها التي نرى ان توضع الاسس العامة وتهيء الظروف لانتاجها محلياً وعلى نطاق اكبر في المستقبل البعيد . ونحن في حقل الزراعة بامس الحاجة الى فلاحين متعلمين ملمين باساليب الزراعة الحديثة ومشبعين بروح التعاون لخدمة المصلحة العامة لمجموعهم وللشعب . والى مشرفين ومنفذين يسيرون ضمن الاطار الذي ذكرناه . مع العلم ان امكانيات البلاد للنهوض والتطور غير محدودة في المرحلة التاريخية الراهنة . ولاشيء اجدى في هذا الباب من تعليم وطني شامل مستند الى العلم والتكنيك يسنده ويستند اليه نظام سياسي ديمقراطي سليم .



الثقافة والمهنة ...

للاستاذ د . روستان
تعريب الدكتور ابراهيم الكيلاني

١ ـ **ثقافة وتخصص ومهنة** : إننا لا نلفظ ـ طوعاً ـ كلمة الثقافة مجردة عن الصفات، بل نلحق بها دوماً صفة ما، فنقول **ثقافة عامة**، وقد يتناضرور فهذه الماهية « Epithète » عندما بحثنا عن صفات المعرفة التي تطمع في اسم الثقافة، وقد نادينا بألا تكون **هذه المعرفة سعة في العلم ضيقة التركيز، غير مفتوحة النوافذ على العالم، لاقيمة انسانية لها .**

أليس في ذلك تأكيد التناقض بين الثقافة والتخصص ؟

ومن نحو آخر ، فان مجتمعاتنا العاملة النشيطة التي ازيل منها الرق والعبودية ، والتي غدت فيها حيـــاة الفرد اكثر صعوبة من قبل ، والتي حمل فيها كل واحد منا على الاعتماد ، اكثر فأكثر ، على جهده المتجدد يوماً أقول : في مجتمعـــاتنا هـــذه يزاول جميع المراهقين

تقريباً مهنة ما . **ان كل مهنة هي في ذاتها تخصص** . أفلا يشكل التحديد المهني عائقاً كبيراً عن الثقافة ؟ أليس ثمة تناقض بين الثقافة والمهنة ؟. ولا ريب في أننا قد نساق ـ حباً بالطمأنينة ـ الى انكار العائق ، ففي اثناء مناقشة قيم مختلف نماذج التربية صرح السيد الفريد كروازيه (١) ، من علماء اللاتينية والهيلينية Humaniste ، وأحد الذين لم يحل شغفه بالهيلينية دون احتفاظه بحرية الرأي كاملة قال : « **ان الثقافة هي اعتيادنا النظر الى الاشياء فلسفياً ، والسمو فوق التفصيلات ، وعدم الشعور بالوحشة في الزمن الذي نعيش فيه** ، ويمكن لأي دراسة تمت بطريقة فلسفية ان تكون صالحة للارتفاع الى الثقافة العامة سواء في دراسة الازهار والنجوم ام الاعداد والكلمات ، واذن فلماذا نمنح بعض صنوف التربية التي هي جيدة في حد ذاتها امتيازاً ، علماً بأنها ليست وحدها الجيدة ؟

ويمكننا على أثر تعميم هذه الملاحظة قليلاً ، وتجاوز — على وجه الرجحان — فكرة هذا العالم ان نستنتج **بأن جميع الطرق توصل الى الثقافة** ، وان بالامكان التثقف سواء انطلقنا من العرفان المهني عند صانع القبعات مثلاً ، او من التفكير بمهنة تجارة الأبنوس ، ومشاكل المصارف ، او الحقوق ، او الطب . إن هذه النظرية قابلة للتأييد ، لأن كل شيء موجود في كل شيء ، وخليق بصانع قبعات يريد الاستعلام ، على سبيل الاحاطة ، عن موضوع مادة واحدة اولية يستعملها في صناعته ، كالقطن مثلاً ، ان يتعمق في دراسة الكيمياء العضوية ، والفلاحة النباتية ، والجغرافية الاقتصادية ، وأن يدرس القوانين التي تنظم المبادلات ، ومصادر اليد العاملة في مختلف البلدان . وسهولة النقل ، والقضايا الجمركية ، والآلات الصناعية ، وحاجات المستوردين في القارات الخمس ... الخ . على ان دراسة كل هذا عندما تكون بائع قبعات في احدى المحلات لا يخرجك **عن حدود مهنتك** فحسب ، بل هو شيء آخر تماماً ، إنه اهمال لتجارتك ، وهجر لمصطبة البيع ، ولجوء الى غرفة العمل او المكتبات العامة . ويؤكد بعضهم ان متابعة كل دراسة بطريقة فلسفية تقود الى الثقافة ، وليس بوسعنا نقض هذا القول ، ولكن القضية هي معرفة ما اذا كانت مهنة من المهن تتيح لصاحبها **الوقت ، والذوق ، والقوة ، وحرية الفكر الضرورية** لكي يقوم بدراسة ذات صبغة فلسفية ومتابعتها الى نقطة نستطيع منها **تأمل** الأفضية الواسعة المغمورة بالضياء .

---

(١) الفريد كروازيه A . Croiset عالم فرنسي (١٨٤٥ ـ ١٩٢٣) كان استاذ البلاغة اليونانية في جامعة السوربون ، له مؤلفات اشهرها : تاريخ الآداب اليونانية .

إن القضية باقية ، وتقتضي المواجهة ، وهـذا ما فعله احياناً ذوو العقول الكبيرة الذين جاؤوا من آفاق مختلفـة جداً ، ولنختر منهم اثنين تنسب اليها عادة نظرية تنادي بوجوب **التثقف بواسطة المهنة والتنقل حول المهنة المتخذة كمركز** ، ان احد هذين الاثنين اديب عالمي ، وشاعر ، ومفكر ، قضى حياته في التزود من التجارب والحـكمة الا وهو **غوته** [1] «Goethe» والآخر عالم كبير في النظريات السياسيـة ، وهو ابن عامل ، وظل نفسه عاملاً زمناً طويلاً استطاع اثنـاء عمله اليدوي ان يدرس الغراماطيق العام ، واللغة العبرية ، وتاريخ الأديان والنظم الاجتماعية والاقتصـاد السياسي ، واستطاع ان يقرأ التوراة ، وفلسفة هيجـل وآدم سميث ، **ألا وهو برودون** [2] Proudhon ، وقد وقع اختياري عليهما لأن من المفيد الاستمداد من افـكار على جانب واسع من الغنى ، ولأننـا نستطيع ان ننطقها باشياء لم يقولاها ، او بالحري لم يقولاها دون ان يرفقاها بتحفظات متميزة بدلالاتها . إن غوته لم يثن على التخصص إلا بعد وقوفه موقف المعاكس من الثقافة التي كونته ذاتـه ، وإلا بعد ان نظر بعين الاعتبار ـ من وجهة الضرورة الاجتماعية — الى دور الطبقات المتوسطة ومصيرها .

إننا ميالون الى الشجاع ويلهلم مايستر الذي أطال سني تعلمه واسفاره . اما برودون فانه اذا توهم بأن « **كل فكرة تنبثق من العمل** » وأن كل معرفة « **خرجت من العمل لتصبح أداة العمل** » فان احداً لم يفهم افضل منه الخطر الناجم عن العمل — كما كان منظما

---

(١) شاعر المانيا وأديبها الاكبر (١٧٤٩ — ١٨٣٢) ويعد غوته احد العباقرة القلائل الذين استطاعوا بعقلهم الجبار استيعاب جميع معارف الانسانية المعروفة في ازمانهم ، ولا يزال الكتاب والمؤلفون في ايامنا ينقبون ويحللون جوانب ادبه وحياته الفنية ، له مؤلفات كثيرة علمية وأدبية اشهرها : آلام فرتر ، فوست ، ويلهلم مايستر ، هرمان ودوروتيه ، الوشائج المصطفاة ، الديوان الغربي والشرقي ، حقيقة وخيال ، وفوست الثاني .

(٢) كاتب فرنسي اشتراكي (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) زاول في مطلع حياته مهناً صغيرة ثم انتقل الى التأليف فنشر مؤلفات كثيرة منها : « مقالة عن الغراماطيق العـام » اثبت فيه وحدة اصول الاجناس البشرية من خلال وحدة اللغات ، وكتاب : ماهي الملكية ؟ بحث فيه عن الملكية وعدم المساواة ، وكتاب فلسفة البؤس ، وكتاب الافكار الثورية .. الخ ولم ينتسب برودون الى أي مذهب اوحزب وهذا ماحمله على أن يكون عنيفاً في كتـاباته وهو صاحب القول المأثور : الملكية هي السرقة . وكان برودون ينزع الى ايجاد طبقة متوسطة تأتلف فيهـا البورجوازية والعمال ، ورأس المال واجور العمال .

في زمنه ، وكما هو منظم في زماننا — على الثقافة . فقد اراد بصورة خاصة ان يكون بمقدور الثقافة ان تنبثق من العمل ، وأن يطالب من خلال هذا الهدف اصلاح التعليم المهني ،وأن يكوّن فلسفة التعليم ويوسعها بالاضافة الى مخطط يتيح **للعامل الارتقاء الى اعلى مراتب الاستخدام .**

٢ – قيمة التخصص في نظر ويلهلم مايستر لغوته : إن أفكار غوته في فوائد التخصص معروضة في روايته الغريبة التي استشهدنا ببطلها ويلهلم مايستر ، والتي امتد ايجادها اكثر من نصف قرن اي من سنة ١٧٧٧ الى ١٨٢٩ ، إنها لأثر ذو تأويل خطير ، يبعث الارتباك بغموضه وتعدد مقاصده الملاحقة بالتتابع ، ورضى الشاعر بالاحتفاظ بكثير من النزوات معاً ، وكان غوته يعتبر كتابه « ويلهلم مايستر » اثره **الرئيسي** ، وحدث ان وضعه فوق مرتبة فوست Faust ، وفي اثناء **محاوراته مع اكرمان** (١) Entretiens - avec Eckermann تكلم عنه كأثر **« لايمكن احصاؤه »** وقال : « وقد فقدت بنفسي مفتاح هذا الأثر ، انهم يفتشون عن نقطة الدائرة فيه ، ومن الصعب الاهتداء اليها ، ولعل من الأحسن ألا يجدوها » .

ويمثل كتاب « ويلهلم مايستر » نوعا من الروايات يطلق الالمان عليها اسم « رواية التكوين » Roman de Formation او التأديب Education ، وهي بصورة ادق رواية استعداد موهي زائف ، وهذا لايعني من نحو آخر استعداداً موهبياً سيئاً لأن الهفوة في الرواية تتحول فيما بعد الى مصلحة شاب قد أخطأ .

٣ ـ الفكرة الأساسية التي استنتجها غوته نفسه من ويلهلم مايستر :

ويتابع غوته محادثاته مع اكرمان قائلا : « إني اعتقد بكل طيبة خاطر بأن حياة غنية ومتنوعة تنبسط تحت انظارنا لها فائدتها في حد ذاتها دون ان يكون ضروريا الافصاح عن غاية لأرضاء الادراك وحده ، واذا كان هناك إصرار على اتجاه ما فلنظل عند حدود الأقوال التي وجهها فريدريك في نهاية الكتاب الى بطلنا فقال : « انك تذكرنا بشاؤول بن قيس الذي ذهب للتفتيش

(١) محادثات للأديب اكرمان مع الشاعر غوته دونها اثناء اشرافه على طبع آثار استاذه . وقد ادخلت هذه المحادثات القارئ الى صميم حياة غوته الداخلية كما اطلعته على كثير من آرائه وأفكاره .

عن أتن ايه فوجد بديلاً منها مملكة (١) » فلنبق عند هذه الأقوال لأن جميع ماقيل في الاساس لايعني سوى شيء واحد وهو أن الانسان واصل بالرغم من حماقاته وضلالاته الى نهاية سعيدة بارشاد علوي ، وقد وهم ويلهلم مايستر انه يتعلم مهنة التمثيل فاذا به يتعلم فن الحياة » .

إنها لعمري طريقة غريبة كما ترى للبرهنة على ان التخصص امر مفروض . لقد فرض ويلهلم مايستر على نفسه ألا ينام اكثر من ثلاث ليال تحت سقف واحد ، وخالط جميع طبقات المجتمع ، واطلع على مبادىء التمثيل ومهنة المعدن والحائك والمربي والفلسكي وعالم طبقات الارض ، وصانع قوالب نماذج التشريح وعشرين مهنة اخرى لكي يستقر انتخابه على فن الجراحة ، وقد وفق اجمالاً في هذا التوزع ومن ذلك نستنتج ان غوته اراد أن يفرط الحرية الانسانية والتطلع الشامل مع ان اكثر عباراته عدداً وأوفرها وضوحاً تستنكر **التشرد الفكري** .

٤ ـ **التنويعات التزيينية عند غوته**(٢) : ان ماحدث لغوته وقع مثله لغيره من كبار الفنانين ، وهو ان الاثر عند ظهوره بالتتابع الى حيز الوجود يدفع صاحبه **بعيداً عن الخطة الاصلية** ، لان حياة الابتكار **تحطم النظرة الاولية وتفيض ثم تطغى على كل منطق** ، شأنها في ذلك شأن الطفيليات النباتية التي تنمو بصورة هائلة فتفتت الجدران ثم تدفن الانقاض ذاتها ، ان اكثر الناس سيطرة على افكاره **يكابد اثر القوى الغامضة التي يحملها في اعماق نفسه** ، محولة تدريجياً غايته الاولى . **ان الابداع الفني لاينمو**

(١) شاوول : اول ملوك العبرانيين ولد حوالي سنة ١١١٥ قم وقتل حوالي سنة ١٠٥٥ قم . وكان شاوول قد ذهب للتفتيش عن أتن ايه الشاردة فوصل الى عند النبي صاموئيل فدله هذا على الطريق ، ثم اوحي الى صاموئيل ان شاوول هو الرجل الذي سيحكم بني اسرائيل « فكرسه » ملكا عليهم ، وهكذا فقد خرج شاوول سعياً وراء أتن ايه فلقي عوضاً عنها تاجاً وملكا وهكذا ، فان التفاوت بين المنشود والموجود مدعاة للتندر والعظة في كتب الأدب .

(٢) ترجمنا كلمة Variations بالتنويعات التزيينية ومعناها في اصلها الموسيقي التلوين والتغيير الطارئان على الانغام مع الاحتفاظ بعنصر الفكرة الموسيقية والموضوع الرئيسيين .
(المعرب)

بمثل دقة البراهين الهندسية ، فهو لاينبع كله من حالةصفاء ذهني لايتغير[1].

فاذا سيطرت فكرة على كتاب ويلهلم مايستر فردّ ذلك الى ان البطل يبدأ حياته باقتراف هفوة ، ثم يسلك طريقاً لايجني منها سوى الخيبات والكوارث ، وقد أعلن غوتهفيمحاوراتعديدة مع مريده الأمين حكمته الاساسية وهي : **« ان من رزق الحكمة يدفع جميع الادعاءات التي توزّع القوى ، فهو يلوذ بعلم واحد ، ثم يتفوق بدوره على هذا العلم »** . ويصرح العجوز العاقل الذي صادفه ويلهلم مايستر قائلا : **« يجب ان تكون الحياة والعمل واخيراً الفن مسبوقة بالمهنة التي لاتعلم الا بالتخصص ، ان اجادة معرفة شيء واجادة صنعه شيء واحد يهيئان توسعاً عالياً في الملكة**

(١) العبارة للكاتب اميل مونتيكو E. Montégut صاحب الدراسة العميقة عن ويلهلم مايستر في كتابه «نماذج ادبية وثروات جمالية» Types Littéraires ef Fantaisies esthétiques الذي وسع فيه هذه الفكرة التي تساعد على إجادة فهم كثير من الآثار الفذة قال : « إن طموح العبقري عادة ذو نصيب كبير من التواضع ، فهو يريد بكل بساطة ان ينطق في موضوع معين بكلام ينم عن ذوق سليم ، ولكن الطبيعة تطمح بدلا منه الى ابعد مما يريد فتكشف عن ثروات اخلاقية لم يكن يفكر بها . ثم يتخذ مثالاعلىذلك كتاب « الدون كيشوت Don Quichotte » ذلك الكتاب الذي استهله مؤلفه بلهجة السخرية ثم ختمه بالمديح والتقدير قال : « من المسلم به ان مؤلفه سرفنتس Cervantès كان يهدف بكل بساطة الى ذم روايات الفروسية ، انها لنقطة انطلاق هزيلة ، ويمكننا القول ، بكل تأكيد ، انه اذا كانت تلك هي فكرة سرفنتس فان اثره يبدو اكثر روعة بالنسبة لهدف على هذا الجانب من التفاهة ، على اني اعتقد جازماً بأن هذه الفكرة كانت في الاصل نقطة انطلاق سرفنتس الحقيقية الوحيدة الا انها قد تحولت في السياق فان الحوادث المشؤومة التي عرضت المجنون ، المثير للسخرية ، قد حلت محل تعاسة الفارس المنتزع من بيئته الطبيعية ، او المولود في زمن لاتقاليد للفروسية فيه ، ثم مالبث ان ازداد هذا الفارس نموا تبعاً لدقة الملاحظة حتى غدا هذا المنتزع من بيئته الاصلية ممثلا للحماسة وراعياً للنفوس المثالية ، فمن هنا نشأ الفارق بين الفارسين ، ذلك الفارق الذي لم يخلق مع ذلك تناقضاً بينهما . ان نظرة سرفنتس التي تكشفت له عن تطورات بطيئة ومتتابعة قد احترمت طابع الانسجام في كتابه ، فليس من جزء فيه يكذب الآخر الى حد يمكننا القول : ان سرفنتس قد عمل تماماً ما كان يريد ان يعمله وذلك بان عمل شيئاً آخر يختلف عنه » .

افضل من اجادة مائة عمل نصف اجادة » وكان غوته يأسف في محادثاته ورسائله على الوقت الذي اضاعه في الرسم ، والحفر على النحاس ، والرسم الزيتي ، وجبل الفخار ، دون ان يبرع في الفنون التشكيلية ، كما أسف ايضاً على الوقت المضاع في دراسة الاحجار ، والنبات ، والعلوم الفيزيائية واتباع الوف من اضغاث الاحلام ، في حين انه قد قيضت له الاجادة في فن واحد ألا وهو « فن اجادة الكتابة بالالمانية » .

إن الفصل في كتاب «ويلهلم مايستر» الذي تظهر فيه بوضوح الامثولة ذات الطابع العملي التي أعدها غوته لبطله هو دون ريب الفصل الذي علم فيه جارنو الداهية (وجارنو هذا هو احد المعلمين الذين فرض عليهم اعادة ويلهلم الى جادة الواقع) صديقه ويلهلم كيفيه العمل على تركيز جهوده قال : « نعم ان عصرنا هذا هو عصر الاختصاصات ، فما اسعد من يعترف بهذه الحقيقة» ومن يعمل في هذا السبيل من اجل نفسه وأجل سواه ، وفي بعض الاشياء يبدو هذا جلياً وكلياً ، كن عازفاً ممتازاً على الكمان فتثق حينئذ من أن رئيس المرتلين في الكنيسة سيبادر الى ايجاد مكان لك في الجوقة ، وكن جديراً بوظيفة ما فلا يسعك سد هذا الا انتظار المكان الذي سيجود عليك به المجتمع العطوف في الحياة المشتركة ، ومن العبث الافاضة في القول ، ومن لم يشأ أن يصدقني فعليه ان يتابع طريقه ، ومن المحتمل أن ينجح ، ولكنني أزعم أن من الضروري دوماً لكي نصبح في حالة نقع الفترة أن نبدأ من الاسفل الى الاعلى ، ان الاكتفاء بمهنة واحدة ادعى للحكمة ، وان المهنة بالنسبة لفرد محدود المواهب هي دوماً مهنة ، وهي للموهوب فن ، وعندما يضع احسن العقول شيئاً يضع كل شيء او بتعبير اكثر غرابة ان احسن العقول يلحظ في الشيء الوحيد الذي يجيد صنعه رمزاً لكل ما يصنع جيداً» .

ولم يتقبل ويلهلم مايستر هذه النصيحة قبولاً حسناً قال : « اني افضل ان اجعل ولدي قادراً على ان يلقي على العالم نظرة اكثر استقلالا من أن اعطيه مهنة محدودة ، لحد ما اردنا دائرة فكر الانسان فهو لابد أن يرقب دوماً عصره ، وكيف يتاح له أن يفهمه اذا كان يعرف الماضي الى حد ما ؟ أفلا يدهش الداخل الى دكان بقال اذا لم يكن لديه ادنى المام بالبلاد التي صدرت اليه هذه الاصناف النادرة التي لاغنى عنها ؟ » فأجاب جارنو داعياً ويلهلم مايستر الى النظر الى اكوام الفحم ، انه موقد النار فيها دون ريب ، ولكنه يسارع الى تخفيف لهبها ، وإلا فليس هناك فحم نافع . ان جارنو يجد من طبع تحوله الى قليل من فحم الزان . وعاد ويلهلم يسأله قائلا : ومن اكون في رأيك ؟ فأجاب جارنو : « يخيل الي انك الآن كعصا مسافر ذات خاصية فريدة هي الاخضرار في المكان الذي تضعها فيه ، على ألا تنبت لها جذور في اي مكان ، ومن هنا يستحيل

على أي حارس غابات ، او بستاني ، او فحام ، او نجار ، او اي عامل ان يصنع منك شيئاً ،» وعندئذ تسل ويلهلم مايستر من جيبه حاجة خفية تشبه محفظة تمود سميكة كان ينتظر من ورائها الخلاص ، وقد علمنا فيا بعد ان المقصود محفظة الادوات الجراحية ، وان بطلنا تبين واهماً استعداده الموهي الحقيقي في هذا الفن . فصاح جارنو : احزم امرك حالا ! اني اراك منذ امد بعيد مشغولاً باشياء ذات علاقة بالعقل والقلب والعواطف ، فما هي الفوائد التي ربحتها لنفسك وللآخرين ؟ وليست ثقافتك وجميع مؤسساتك التي توفر لك هذه الثقافة سوى مهازل جنونية ، **ان المهم هو ان يمتلك المرء نوعاً من المعارف ينفذها ببراعة ممتازة بما يعجز جاره عن مجاراته في اتقانها** » .

تلك هي ، دون ريب ، فكرة غوته الأساسية ، او على الأقل فكرته الاولية ، ولكن ما اكثر تأرجحه ، وكم تحوي هذه الفكرة المعارضة من إغراء ! ويا المرونة **في هذا الفكر الذي يستشف العنصر الملطف المناسب الذي تستدعيه الافكار البسيطة جداً !**

ثم الى من توجه نصائح جارنو ؟ الى رجل متوسط الحال ، الى رجل لم تهيئه ولادته ولا ثروته للقيام بدور بارز في المجتمع ، اني افتح كتاب « محادثات اكرمان » فأقرأ ما يلي : « ينبغي لمن كتب له ان يحكم ويسيطر ويقود الناس من ذوي المهن المختلفة **ان يتمرس جهد المستطاع بهذه المهن المتعددة** ، تلك هي حال الأمير او رجل الدولة العادل اللذين لا يسعهما إلا ان يكون تكوينهما الذهني كثير التنوع على اعتبار ان هذا التنوع جزء من وظيفتيهما ، وكذلك **ينبغي للشاعر ان ينزع الى تعدد معلوماته لأن العالم هو موضوعه** ومن اللائق ان يجيد معالجته والتعبير عنه ، وهكذا فان **التطلع الكوني** لن يحرم على ويلهلم مايستر اذا كان نبيلاً او شاعراً ، ولن يكون هذا التطلع جديراً باللوم إلا لأن منزلته الاجتماعية تحمل من طموحه الى تجربة كل شيء من قبيل المخاطرة الجريئة ، ولكن هذه الجرأة ذاتها استطاعت انتزاع موافقة غوته الذي لم يوطد عزمه على احباط مسعى من يروم توسيع ذاته كلها بصورة منسجمة .

يقول الناقد اميل مونتيكو (١) E. Montegut : إن ويلهلم مايستر مدرسة ممارسة

---

(١) كاتب وناقد وصحفي فرنسي (١٨٢٥—١٨٩٥) له مؤلفات في الأدب والاجتماع وتراجم عن الأدب الانكليزي .

حقيقية انشئت لاستعمال الطبقات المتوسطة ، فان الفرد الناشيء وسط هذه الطبقات هو في الحقيقة حر ، في حين ان النبيل يحمل عبء طبقته ، ويحمل ابن الشعب عبء المجتمع كله . إن هذه الحرية تفتح له بابين : اولهما باب مضمون يحترم استقلاله وثانيهما اكثر مجداً ولكنه مليء بالمخاطر ، إن ويلهلم الطيب القلب قد اختار من هذين الطريقين اكثرهما تعرضاً للخطر ، أما غوته الذي لم يجسر على لومه فقد نصحه مع ذلك زمنا على لسان الحكيم ورنر Werner (١) مقدماً له طريق الحرفة والمهنة ، بل طريق التخصص كاحسن ما يناسب بورجوازياً مثله ، ولكن في الوقت الذي عقد فيه البطل عزمه على اعتماد نصيحته رافقه بعناية عاقلة الى حين وصوله الى شاطيء السلامة ... وبالرغم من اتهامه ويلهلم بالطيش فان هذا بالنسبة اليه شخص أنيس جذاب ، وفي كثير من المرات لا يحجم المرء عن الظن بأنه يدعو قليلاً لنفسه ، وانه يدور حولها ، ولم يشأ ايضاً ان يحصر نفسه ضمن احدى الاختصاصات الضيقة التي ينصح بها بتعقل ... فقد تمكن بفضل عبقريته ومراقبته ذاته ، ولقاء بعض التجارب الحقيقة ، وبعض الخطايا الاقل خفة التي يحدثنا عنها كتاب « الشعر والحقيقة » Poèsieet Vérité ان يحقق التوازن التام في شخصية بطله ، تصنع منه بالعمل والارادة ماتصنعه الولادة بسهولة من النبيل ، جعل منه **نموذجاً جميلاً في الرجال** ، رجل يعوض ويغني بحضوره عن كل شيء إنه على ان خط الحدود قد بدا بالرغم من تجربته الموفقة — مقطوعاً ، حتى اصبح من الخطر اجتيازه » .

ومن هنا استنتج ان رأي غوته في وجوب التثقف الذاتي بواسطة المهنة لم يمله عليه اعتبار **المكاسب الفكرية التي يدين** بها الانسان الى مزاولة مهنته ، بل املاه عليه — على الارجح — تقرير **ضرورة يثقل وزنها كاهل طبقة اجتماعية معينة .**

لقد حكم على الرجل المتوسط الحال بتحديد طاقته الذاتية ، وبالتالي انتظار مايمكن المهنة

---

(١) يعود ورنر ، الاديب والضيق الفكر معاً في مستهل كتاب « سنو التعلم » Anneè d' Appeentissage الى الظهور مادحاً لصديقه ويلهلم فوائد التجارة ، لائماً إياه على مغامراته العاطفية ، فهو يجسد البورجوازية التي همها الوحيد جمع الثروة ، وكان غوته يتكلم عنها بادي‌ء بدء بلهجة الاحترام ، ولكن عندما تقابل الصديقان بعد غياب طويل لم يتردد عن الملاحظة بأن ويلهلم اقوى شخصية واكثر استقامة وشمائل محببة من صديقه ورنر ، وان هذا قد هزل جسمه من جراء مكثه في دكانه ، وانه ذو وجه مثلث ، وانف كبير ، ورأس اصلع ، وصوت حاد ، وصدر مفلطح ، وظهر مقوس ، ووجنتين شاحبتين ، وهو لايبيح لنفسه من انواع التسلي سوى لعبة الورق بعد العشاء . وهكذا اصبح الحكيم العاقل موضع سخرية . » .

ان تجود به عليه من ثقافة ، وتظل المشكلة قائمة بأكملها وهي معرفة ما اذا كانت هذه الطريقة في التثقيف وراء المنضدة هي طريقة مثالية ، او من قبيل اسوأ الحلول ؟ فان الموازنة التي عقدها ويلهلم بين النبيل والبورجوازي – عندما انبأه صديقه ورنر عزمه على الانقطاع الى المسرح – تؤيد التعليل الثاني قال : « اني اجهل الحال في البلاد الاجنبية ، ولكن النبيل في المانيا يستطيع وحده بلوغ ثقافة شخصية ذات امتداد معين ... فهو يجهل اي تحديد في الحياة ، ففي مقدوره التقدم ساعياً في كل مكان ، في حين ان لاشيء يوافق البورجوازي اكثر من شعور عادل وخفي بالحدود التي يجدر به ألا يتعداها . فعليه ان يتساءل : من انت ؟ بل ماذا تملك ؟ وماهي معارفك وكفاءاتك واسباب حصول الثروة . فاذا كان النبيـل اعطى كل شيء عندما اظهر شخصه فان البورجوازي باظهاره شخصه لايعطي شيئاً ، ويجدر الا يعطي شيئاً ، ففي مقدور النبيل ، بل من واجبه ان يظهر في المجتمع ، اما البورجوازي فيجب ان يكون فحسب ، حتى اذا ما اراد الظهور فلن يستطيع الا ان يكون سخيفاً وغير معقول ، وعلى النبيل ان يعمل ويؤثر في الناس وعلى البورجوازي ان يعمل وينتج ، وعليه ايضاً ان يوسع ملكات منعزلة لتصبح قابلة للنفع ، ومن المسلم به مقدماً استحالة امكان بل وجوب وجود اي اتساق في كيانه ، ولكي يكون الانسان قابلاً للنفع بشكل معين فهو مجبر على اهمال البقية » .

وان معنى هذه الصفحات – عندما نثني على الاقل سواها من التصريحات عن فضائل التخصص – هو **ان الحصول على اكثر الثقافات غنى لايتم بمزاولة مهنة ما ،** حتى ان الحرفة ليست الى حد ما وسيلة الى الثقافة ، ذلك ان تركيب المجتمع يحرم على الانسان المتوسط ان يطمح الى توسيع جميع ملكاته . ان ويلهلم يثور على هـذا المنع فيبرهن انتصاره النهائي الذي يرمز اليه زواجه من ناتاليا العريقة النسب ، على ان العقبة ليست كأداء(١) لمن يملك سمو الخلق والثبات .

إن فكرة غوته اقل بساطة مما تقدم للناس أحيانا ، فهو ينصح كل أحد **ان يركز انتباهه ، وأن يجيد ،** ما استطاع، **شيئاً واحداً ،** ولكنه لايحدد ايضاً حب الاستطلاع عند الجميع ، فمن واجب رجل الدولة والشاعر ألا يحدا من أفقيهما ، فاذا كان على رجل الطبقة الوسطى ان يحد من رغبته في عمل كل شيء ، ومعرفة كل شيء فانما مرد ذلك الى ضرورة اجتماعية اكثر منها الى قاعدة صحية عقلية ، وليس في استطاعة ذي العقل الممتاز ان يتحرر دون خطر من

(١) عقبة كأداء وكؤود : صعبة شاقة المصعد .

هذه الضرورة ، فهو قادر في مزاولته كل مهنة على ايجاد عناصر ثقافة عالية . ولكنه يستطيع ذلك لوحده ، ولن يعدم رجل ذو قدرة عادية في المهنة وسيلة ليكون قابلاً للنفع .

٥ - ثقافة وحرفة وموهبة استعدادية : واخيراً فان الحرفة لاتيسر سوى **ثقافة الذين اختاروا تخصصهم حسب موهبتهم الاستعدادية ،** ولعل هنا يكمن حل التناقض بين التخصص والثقافة . قال ويلهلم مخاطباً ميلينا بعد مفارقته ممثلاً غير راض عن مهنته : « يالك من شقي ، فليس في مهنتك بل فيك تكمن اسباب الشقاء التي لاتستطيع التحرر منها ، أيه ! من هو اخيراً ذلك الرجل الذي يعتنق ، دون موهبة ، مهنة اوفناً اونوعاً من انواع الحياة فلا يجد مثلك حالته غير محتملة ؟ ان الذي ولد نابغة وعاش لأجل النبوغ وجد في ذلك تتويج حياته ، فما من شيء مجرداً عن المصاعب، **إن دوافع الروح والمرح والحب** تساعدنا وحدها على **التغلب** على العوائق ، وشق الطريق ، **وعلى ارتفاعنا فوق المحيط الضيق الذي يتخبط فيه بحقارة عوام الناس.** أما خشبة المسرح ياميلينا فليست في نظرك سوى خشبة المسرح ، وما الادوار إلا كالعقاب للتلميذ ، إنك تشاهد النظارة كما يشاهدون انفسهم في نهارات العمل ، وقد يبدو لك - دون ريب - أن لافرق بين الجلوس وراء المنضدة ،والانكباب على الدفاتر المسطرة ، اوتقييد المدفوعات ، اوتصفية الحسابات القديمة ، إنك لاتشعر بهذا الكل المتناسق ، المفعم بالهيب ، ذلك الكل الذي تصوره وتفهمه وتنفذه العبقرية وحدها ، انك لاتشعر ان في الانسان شرارة اكثر نبلاً ، والتي لم تلق اي غذاء ، فاذا لم تثر كوامنها كانت اكثر اختفاء تحت رماد الحاجات اليومية واللامبالاة .

ولعل آخر كلمات غوته عن المشكلة التي تهمنا هي تلك النصيحة التي وجهها الى ويلهلم احد رفقائه العقلاء قال « لنعلم كيف نكتشف ونستثمر ماارادت الطبيعة ان تفعل منا ، واجود ما اودعته فينا وإيانا ان نسمح **للعادة ، والهوى ، والتسلي ، والنزوات** التي تحملنا اعباء كثيرة عقيمة ، أن تخلع على مناكبنا ثوب آرلكان (١) .

كان برودون يهوى المساواة ، وكان يعتقد ان ليس ثمة مهن نبيلة اوحرف حقيرة بل

---

(١) ارلكان Arlequin : شخص رمزي مسرحي هزلي نشأ في المسرح الايطالي ثم انتقل منذ القرن السابع عشر الى جميع مسارح اوروبا ، ويتألف لباسه المسرحي من قطع متعددة الألوان ويضع على عينيه قناعاً اسود ، ويتمنطق سيفاً خشبياً ، ويطلق اسم ارلكان مجازاً على الانسان المتلون ومن لامبدأ له في الحياة (المعرب) .

وظائف مختلفة في المجتمع تتناسب وتنوع المواهب الاستعدادية ، وهو القائل : « إن خياطة هي موظفة وحكمها في ذلك حكم الراقصة » وقد ظل بحكم نشأته الشعبية ، من افراد الشعب ، ولذا ثار على **افضلية** المهن الحرة المزعومة ، مهنة العالم ، والاديب اللذين يبقيان في معزل **عن المشغل والمعمل** ، فكتب منذ ١٨٤٨ يقول : « يقتضي تركيب آلة بخارية من الذكاء **اكثر** بمائة مرة ماتقتضيه كتابة مائة فصل من رواية بالسامو (١) Balsamo ، كما ان ملاحاً في نهر الرون يبذل جهداً ذهنياً في اجتياز مسافة في النهر **اكثر** مما تحويه قصائد الشرقيات جميعاً (٢) » .

ولم يكن يخفى عليه مع ذلك ان **العمل** ، كما كان يراه منظماً حوله ، **يهبط بمستوى العامل** ، فقد قرر في بحثه الكبير عن « العدالة في الثورة وفي الكنيسة De la Justice dan la Revolution et dans l. Eglise » انه كلما ازداد العمل تقسيماً ، والآلات اتقاناً **نقصت قيمة العامل** . . فكل شيء محال في اوضاع العمل الحالية ، فكأنها قد لفقت بغية استعباد العامل الى الأبد ، فبعد ان قسم العمل ، ثم قسم ثانية الى مالانهاية جعلوا من كل قطعة منه غرضاً لمهنة خاصة ، لايستطيع العامل من جراء اثر **النمطية** « الروتين » **والتبلد** ، الفكاك من أسرها اطلاقاً ، فبعد ان حررت الثورة العامل سياسياً انقلب هذا الى **قن في جسده وروحه واسرته وأجياله كافة** ، وذلك بفعل **التوزيع** الفاسد ، بل المحتوم للعمل ، وليس هذا كل شيء ، فكان مزاولة وظيفة محدودة على هذا الشكل يجب ان تستنفد جميع قوى ذكائه ، واستعداده اليدوي فقد حددوا لتدريب العامل على صنع هذه القطعة **اطار تعليمه النظري والعملي** » .

٦ — **برودون يحلم بتشريف العمل** : انه لمنظر مؤلم لمن يحلم بشغف كبرودون بتشريف العمل ، فهو شغله الشاغل ، وقد اقترح مصلحون اجتماعيون آخرون علاجات لتحسين

---

(١) جوزيف بالسامو او مذكرات طبيب ، رواية مشهورة لاسكندر دوماس الأب وبطلها هو كاليسترو ، والرواية مزيج مبالغ فيه من الخيال والتاريخ (المعرب) .

(٢) الشرقيات Les Orientales ديوان اشعار غنائية لفكتور هوغو نظم اكثرها بمناسبة حرب اليونان سنة ١٨٢٨ .

الاوضاع المادية لأكثر الطبقات عدداً، فطالبوا للجميع **بالخبز ، والمسكن الصحي ، والاسعافات في حالات البطالة والمرض**، ولم يهمل برودون محاولاتهم هذه، ولكن لهذا الطموح شيئته ومُلامحه الخفية « Nuance » الخاصة، فهو يريد قبل كل شيء ألا يكون العمل مهيناً، فان العمل لا يعير هذا المظهر للمشكلة أدنى عناية، فهو يشعر جيداً، وبصورة حادة ومبهمة معاً، بامكان تغيير حاله، ولكنه يتخيل بانه يمكن اصلاح كل سوء بزيادة الاجور، انه لوهم! لأن **الآلية** قد هبطت به الى مستوى عامل يدوي يدرب بسهولة، ويستعاض عنه بسهولة، اذن فقد انقصت قيمته، وقلت من جراء ذلك اجرته، وبالتالي فان عمله زاد، وبقي الاجر على حاله، وهذا منطق حتمي لايستطيع أي تشريع، او ديكتاتورية ان تحول دون نتائجه، وإذن فان هناك بالرغم من الاضرابات والانظمة والتسعير وتداخل السلطة انخفاضاً قسرياً في الاجور، فان لدى رب العمل الوف الوسائل للتخلص من ضغط العنف والسلطة».

٧ ـ **مشكلة قيمة الحرفة المطروحة في كتاب برودون** : فما هو الحل الذي يقترحه برودون؟ انه يقول: **«يجدر بنا ان** نغير اسلوب **التعبئة** Tactique **ويلزمنا لكي نرفع اوضاع العامل ان نبدأ برفع قيمته، ولا سلام خارج هذا النطاق، وليحرص العمال على ذلك»** ويحاول برودون البحث عن أي من انواع التعليم يرد للعامل **قيمته الانسانية**.

وإذن فان برودون بتفكيره في الشروط الاساسية لتحرير العمل قد حمل على طرح مشكلة قيمة ثقافة الحرفة، فقد تبين له ان المسألتين هما مسألة واحدة، وان بيده مفتاح الحل عندما نعلم أن « الفكرة تنبعث من العمل، ويجب ان تعود الى العمل تحت طائلة سقوط الفاعل» او بعبارة اخرى **«ان كل معرفة تنبثق من العمل لكي تصبح اداة عمل»** وقد اعتقد برودون بنشوء ارقى العقول من خلال الاعمال المتواضعة التي يتمها الرجل البدائي بواسطة احسن الآلات، وهو بابتعاده عن بعض الفلاسفة المعاصرين المنادين بأن الذكاء الانساني يحمل عاهة ولادة على جانب كبير من الحقارة، قد قدر بأن هذا الذكاء سيطر على الاشياء والواقع لأنه وليد العمل لا التخيل.

٨ ــ **الرافعة معلم الانسان الأول** : إن الرافعة هي المعلم الأول للانسان، ذلك القضيب الحديدي البسيط، الذي استعمله دورياً في الارتكاز، والتوقيف، والضغط، والاكراه، والبزل، والتحرك والتوجيه، اما الادوات الاخرى فهي: الكلابة، والملقط،

والقيد ، والمطرقة ، والمخرز ، والفأس ، والشفرة . . . الخ . إن قائمة هذه الادوات تشكل « **ابجدية الشغيل** [١] » فكيف تعود الفكرة المنبثقة من العمل الى العمل ؟ إن معنى هذه الصيغة كما يقول برودون هو « أن على الفلسفة والعلوم العودة الى الصناعة » وبعبارة اكثر وضوحاً: **يجب أن ننظم العمل على شكل يرفع من مستوى الانسان ، بدلاً من الهبوط به ، وأن نضع حداً لنظام يجعل من العامل « اكتع وشريراً » وأن نجعل المهنة « تهذيباً للاعضاء والادراك في آن واحد » .**

وهكذا فان برودون قد حمل على اقتراح علاجين هما : التعليم المهني ، وتنظيم المشغل .

٩ — **تعدد تقنيات التعليم المهني واصلاح المشغل**: ويجب على الشغيل أن يتلقى « **معرفة صناعية موسوعية** » ويجب « ان يدرس **التعليم الصناعي بتمامه** حسب طريقة تستوعب إطاره كله الى ان يحين دور انتخاب الحرفة وتخصص العامل ، كما هو الحال عند طالب التقنيات المتعددة Polytechnique أي بعد اتمام برنامج الدراسة كلها ، **ولايجوز بتر الصناعة** ، وكذلك العلوم دون خطر انتشار عليهما ويجب ان يتم كل شيء **منهجياً وسوية وإلا** فلا . إنه قانون العمل ، كما أنه قانون المعرفة . **فان الصناعة هي الشكل الحي لهذه الفلسفة الوضعية التي تنبأ بهـا ودعا اليها منذ قرن اكبر عباقرة العصور الحديثة صاحب الموسوعة (ديدرو** [٢] **)** Diderot ، ويطالب برودون بما يسميه تعدد فنية التعليم الصناعي ، فهو يرى أن يصبح هذا التعليم الصناعي **تكويناً عاماً** للشغيل ويقول: « إن مخطط التعليم العمالي (بصرف النظر عن الفن اللاحق به من التعليم الأدبي الذي يعلم على حدة) قد رسم ، فهو عبارة عن **تطويف التلميذ** بمجموعة التمارين الصناعية الكاملة **صاعدين** من اكثرها بساطة الى اكثرها صعوبة **دون تمييز** الاختصاص من جهة ، ومن جهة اخرى

---

(١) آثرنا ترجمة كلمة Travailleur بشغيل وكلمة Ouvrier بعامل .

(٢) أديب ومفكر فرنسي (١٧١٣ — ١٧٨٤) واضع الموسوعة Encyclopédie واحد الرؤوس الفلسفية المفكرة في القرن الثامن عشر . له مؤلفات متنوعة ادبية وفلسفية وتقوم فلسفته ليس على المحاكمات والمنطق بـل على الظواهر المستمدة من العلوم ومكتشفات الفيزياء والفسلجة والتشريح ويمكن وصف هذه الفلسفة بالفلسفة المادية العلمية Materialisme Scientifique

استخلاص الفكرة التي تحتويها هذه التمارين كما كانت تستخلص مبادىء العلوم في الماضي من الآلات الصناعية الأولى ، واقتياد الانسان من رأسه ويديه نحو **فلسفة العمل** الذي هو **انتصار الحرية** ، وبهذه الطريقة يمكن لرجل الصناعة ، رجل الذكاء والعمل في آن واحد ان يعتبر نفسه عالماً وفيلسوفاً حتى درجة الحذاقة مما يجعله يتجاوز مقدار النصف عالم والنصف فيلسوف بكل ما في هاتين الكلمتين من معنى دقيق » .

وهناك اعتراض يخطر بالبال : ما فائدة هذه الثقافة المهنية على اتساعها ، اذا كانت الحرفة تستلزم اختصاصاً ضيقاً ، وتقضي **بهلاك كل بذور الافكار والمشاغل المتنوعة** التي اودعها تعدد التقنية Polytechnie في رأس الشغيل ؟

ويجيب برودون على ذلك : إن الاعتراض ساقط فيما له علاقة بعمل الارض ، **لأن الزراعة تفترض معلومات شتى** ، فهي تستعير «من جميع العلوم كالميكانيك ، والفيزياء ، والكيمياء ، والرصد الجوي ، والاقتصاد ، فهي تتيح للخيال من المغريات ما تستطيع أن تتمناه اكثر النفوس موهبة فنية » . أما ماله علاقة **بالصناعات الصغيرة** فهي تنظم احيانا فيما بينها كما تنظم بالعمل الزراعي ، على أنها تتطلب من العامل **مهمات متعددة** ، وهي لاتجعله «**آلياً**» وهكذا نرى ان الصعوبات ليست قائمة إلا في الصناعة الكبيرة . ولا شك في ان ميول برودون لا تتجه نحو هذا الشكل من العمل باعتباره قروياً وعامل مطبعة صغير ، حريصا على كرامته وحريته ، بل كان عليه ان يواجه هذا الوحش الذي يكبر كل يوم مهدداً **بافتراس الشغيل وتجريده من كل قيمة انسانية** ، ويقترح برودون **ان يحول المشغل وأن يتاح للشغيل تنفيذ جميع العمليات التي تجري في المعمل الواحدة تلو الأخرى** ، وان يفسح له المجال ليصبح «**معلماً**» Maitre ، وان **يشارك في الادارة والارباح ، وبكلمة مختصرة ان يرتقي الى الرتب كافة** » .

ولما اقتنع رسول الاشتراكية بأن قد حيا بهذه النصائح للشغيل **شروط عيش شريف** يغبط عليه ، غلبت عليه الحماسة فقال : «**آه ! اذا لم تكن المشاركة الاجتماعية والتعاضد الانساني مجرد كلام اجوف فما عساه يكون تعليم الشغيل ، وما عساه يكون عمله اليومي ، بل حياته كلها ألا ان يعيد بصورة متوالية في داخل**

نفسه ، مضافاً اليه ما يجود به عليه ألهـــامه ، ما فعله آباؤه من قبل ؟ لقد بذروا بحماسة تحصد بغبطة .

واذن فاني اسأل لماذا لاتكون حياة الشغيل كلهـا بهجة ابدية وموكباً انتصارياً في الوقت الذي يجب ان يكون التعلم برهاناً نظرياً وعملياً على التقدم الصناعي ابتـداء من اكثر العناصر بساطة حتى اكثر التركيبات تعقيداً ، وان يكون عمل العامل ، صانعاً او معلماً الذي لم يبق له من مهمة سوى اتمام، على مقياس اوسع، ما كان بدأ به التعلم ؟ انها للذة صميمية،ليس تجمع الحواس والافكار في العزلة بأقل مواتاة لها من استثارة العمل ، والتي يكون من نتائجها عند رجل العمل ممارسة تامة لملكاته ، كقوة الجسم ومهــارة اليدين ، وسرعة الخاطر ، وقوة الفكرة ، وكبرياء النفس المتأتية عن الشعور بالتغلب على الصعاب والتحكم بالطبيعة ، واكتساب العلم ، وصيانة الاستقلال الشخصي ، وكذلك مشاركة الجنس البشري في ذكريات المعارك القديمة ، والتساند في العمل المشترك ، والاسهام المتساوي في هناءة العيش .

ومهما تكن الروابط التي تربط الشغيل في هذه الظروف بالابداع ، ومهما تكن صلاتهمع امثاله فانه يتمتع باكبر امتياز يمكن ان يزهو به انسان ألا وهو : « انه موجودبذاته».

ولنحاول تفهم درس برودون ؛ لقد ولد هذا الرجل بعد ستين عاماً من وفاة غوته ، في الوقت الذي اخذ فيـــه المشغل الصغير ينسحب امام زحف المعمل الكبير ، وبما أن برودون كان مطلعاً على عالم العمل شأن من يعلم ذلك بحكم المنشأ ، وتحصيـــل العيش ، والذوق ؛ فقد دهش برودون اكثر من الكاتب الالماني من مساويء التخصص ، وكان يعلم أن المهنة تحكم على صاحبها في أغلب الاحيان بالفعاليـة الآليـــة Activité Mécanique واعادة لاحد لها للحركة ذاتها التي لايصحبها اي جهـد فكري فتؤدي المهنة عن هذا السبيل الى الانحطاط والعبودية ، فهو من جراء ذلك لايفقد ايمانه بقيمة العمل التربوية ، بل على العكس فهو ينادي بأن كل معرفة مصدرها العمل. على أن العمل الذي يفيـد ثقافة فهو العمل الذي نصونه من مبادىء الانحطاط التي يحملها في ثناياه ومن النزعة المفرطة الى التخصص وان العبارتين القائلتين : « تتقف بواسطة

المهنة ، وتثقف بواسطة التخصص » . في نظر اغلب المفكرين الذين يتساءلون عن مشكلة الثقافة، لهما عبارتان مترادفتان . ويفهم من كلام برودون **ان الحرفة مؤآتية للثقافة الى الحد الدقيق الذي لاتكون فيه الحرفة تخصصاً** ، وفي هذا اعتراف بأن **التضاد** بين الثقافة والحرفة هو في الواقع **تضاد** حقيقي احياناً .

إن لغوته وبرودون مزية ، هي فهمهما زمنيهما اللذين لم يكونا في واقع الأمر بعيدين عن زماننا ، فقد وجدا ان الثقافة لايمكن أن تظل **موقوفة** على هؤلاء الذين يتمتعون بشكل اوقاتهم ، لأن انساناً **غير ذي مهنة** ، ظاهرة شاذة في مجتمعاتنا ، وبالتالي فان من الضرورات المستعجلة **التقليل** قدر المستطاع من **العقبات التي تضعها المهنة في طريق الثقافة** . إن تلك العقبات التي انكرها غوته الى حد ما عندما تنبه بصورة خاصة الى مصير الطبقات الوسطى. أما برودون الذي شغل بمصائر أناس اكثر مسكنة اوخلت الروع الى قلبه فحاول التغلب عليها ؟ فيم نحتفظ من تعاليمها ، وماذا نزيد عليها ؟

١٠ ـ **القيمة التربوية للحرفة** : إن وجود نوع من **القيمة التربوية** للحرفة امر لاينكر ، بل قد تكون هذه القيمة كبيرة ، لأن الحرفة تجبر صاحبها على دقة العرفان ، وهي تعلمنا **تمييز المعرفة من نصف العلم ، الخصم اللدود للثقافة الحقيقية ،** لأن المعرفة تجبرنا على تحقيق شيء ما في حين أننا لانحقق **بنصف** العلم شيئاً ، فهو يسد علينا المنافذ . وإن معارف ناقصة تكفي التلميذ ليتكلم في الامتحان عن التفاعل الكيماوي ، ولكنها لاتسمح له بإجراء هذا التفاعل ، ولذا كانت الاشغال العملية ، والتمارين اليدوية تكملة لاغنى عنها في تكوين علمي رصين . إن الشكليات خداعة ، فهي تخفي الجهل ، وإبهام الفكر ، وإن الشغل والمخبر لايتفقان وهذا الغش ، فالمرء ينجح اولاينجح في صنع نوع من الحوامض ، اوقص قطعة خشبية تجد مكانها المقيس بدقة في تركيب ما ، اوقطع صفيحة المعدن التي يصنع منها ماعون (١) من قياس ما ، إن النسيان والخطأ في النظرة ، والطيش وجميع انواع التقصير تلقى هنا جزاءها ألا وهو الاخفاق الملموس الذي لاجدال فيه .

ويجدر بنا ايضاً اعتبار المثيرات التي تؤثر بقوة المهني لتحمله على **تجاوز قدرته ،** كحب الذات ، والحفاظ على سمعة المحل ، والخوف من المنافسة ، والرغبة في زيادة عدد الزبائن،

---

(١) الماعون : الادوات المنزلية Ustensil .

وكشف الخصوم ، ولا ريب في ان قوة هذه المثيرات تختلف تبعاً لنوع الحرف ، ولكن هناك حرفاً يكون فيها الاختلاف في الوضع كبيراً بين المجيد في عمله وبين المتوسط فيه ، فاذا كانت الخدمات في الدولة سيئة فلأن شروط ترفيع الموظفين هي ـ بصورة محسوسة ـ ذاتها للموظف الرديء والموظف الممتاز ، ولذا كانت **القيمة التربوية** لكثير من الوظائف الرسمية **ضعيفة** جداً ، ولن يتعارض مع الترفيع الطبيعي أن يقضي الموظف بقية نهاره في المقهى !

١١ ـ **النضال ضد مباديء التخصص** : فاذا اتجهت الحرفةنحو تضييق فعاليتنا فليس مستحيلا ان تناضل ضد **عواقب التخصص** السيئة . وقد أسس السيد شارل كولا الصناعي المعاصر الذي كان يعترف دوما بما لبرودون من اياد بيضاء نحوه ، مدارس التعلم القبلي Pré - apprentissage ، ومشاغل للاعمال اليدوية انتسب اليها تلاميذ عديدون من المدارس الثانويةجرياًمع الفكرة القائلة بوجوب، ا كثر من ذي قبل، **تعدد التقنية** التي حرص عليها استاذهبرودون . وكنت أود أن أورد الدفاع بكامله الذي سمعه اعضاء « الاتحاد لحماية الحقيقة» خلال مناقشة عن موضوع « الحاجة الى ثقافة عامة » . فقد اشار الى ان الصناعة تعاني من نظام التخصص الذييؤدي بالشغيل الى **البطالة** ، وتخلق منه متمرداً على المجتمع ، فان العامل لايعرف حرفة بكاملها بل جزءاً منها ، فهو لم يعد معماراً بل مصفف آجر ، وبلاطاً ، وصباب اسمنت ، ولم يعد مسقفاً فحسب بل مسقف سطوح التوتياء او الحجرالاسود ، حتى اذا بنيجدار الآجر تنحى العامل عن محله لعامل آخر فيظل مكتوف اليدين اذا لم يجد في الساحة العمل الوحيد الذي يتناسب واختصاصه .

ويعتقد السيد كولا بوجوب **الاتاحة للصانع ليس تملك حرفة او اخرى بل صفات الصانع الاساسية التي هي ـ على حد تأكيده ـ ذاتها لجميع الصنّاع واعني المهارة اليدوية ، وقابلية استعمال جميع الادوات الاولية كالتركيز والرسم واستعمال الفرجار والمسطرة والكوس (الزاوية) وبكلمة مختصرة قابلية تخطيط الشغل قبل تنفيذه ، تلك هي ابجدية الصانع الصنّاع**[١] .

---

(١) يلاحظ السيد كولا بحق ان الفيلسوف جان جاك روسو اوليمن تنبه الى التعليم القبلي، فقد ورد في الجزء الثالث من كتابه « اميل » قوله : « لعلنا نعطي هنا اهمية كبرى لاختيار حرفة ، وبما ان الموضوع لايتعلق الا بعمل الايدي ، فان هذا الاختيار لااهمية له بالنسبة =

اين يمكننا ان نتعلم هذا ؟ ان تجربة طويلة اقنعتنا بأن العمال في الماضي قد كونوا جميعا بطريقة **واحدة** ، كان كل شيء في الزمن السابق ، اي قبل عهد الآلية المفرطة ، يصنع باليد، في القريـة كان **السمكري** يصنع جميع الادوات المنزليـة مستعينا بأولاد القرية الذين كانوا أميين على وجه العموم ، فاذا صنع احد هؤلاء الاولاد بعض هذه الحاجات الصغيرة يكون بذلك قد اكتسب بعض المزايا ، لأنه استخدم كمية من الادوات ، فهو يجيد التركيز ، ويعرف تخطيط عمله قبـل التنفيذ كما يعرف استعمال المسطرة والفرجار والكوس ، وأنتم لاتجهلون ان **الرسم التطبيقي هو لسان الصناعة** ، وبعدهذا التعلم الأول يقوم برحلة حول فرنسا وبعد ذلك **يبدأ بالاختصاص**، وقد اصبح الذين بدؤوا على هذه الشاكلة عمالاً صنعا في جميع الحرف .

وإذن فقد رأينا في عمل السمكري نموذجا للتعلم ،وهكذا فان جميع صناعنا يزاولون حرفة السمكرة ، وليس هـذا العمل منافياً لغيره فان من واجب كل عامل ان يعرف صنع الادوات وتطريقها لا لنجعل منهم حدادين او قفالين بل لنعطي اليد والذهن صفات **العامل الصناع** الضرورية

« ونعتقد بوجوب تكليف الاولاد بأعمال تتناسب واعمارهم والاشغال المتنوعة ، لأن الولد مغرم بالتنوع ، ويمكن للولد ـ على وجه الدقة ـ ان يكتفي بشغل السمكرة ، ولكنه يظل فيه قاعداً دوماً ، فينال منه التعب بعد اسبوع ، فننقله بعد ذلك الى مشغل الحدادة او النجارة حيث يعمل واقفاً ؛ ان لهذه الطريقة مزية ايقاظ مواهب الولد وميوله والسماح له باختيار الحرفة التي يريد ، وهكذا نوسع صفات العامل الصناع الاساسية وبهذا نحول دون مساوىء التخصص » .

وتدل امثال هذه المحاولات التي حققتها ليس جماعة من الطوباويين بل صناعيون اكفاء ،

= لاميل ، وان اكثر من نصف تعلمه قد تم بواسطة التمارين التي شغلناه بها حتى الآن ، ماذا تريدون ان يفعل ؟ انه مستعد لعمل كل شيء ، فهو يجيـد استعمال الفأس والمجرفة ويعرف استعمال المخرطة والمطرقة والمنجر والمبرد ، وكذلك ألف استعمال ادوات جميـع الحرف ، ولم يعد الامر بالنسبة اليه سوى اكتساب احدى هذه الادوات بسرعة وسهولة كافيتين لكي يعدل في المهارة العمال الصنع الذين يستعملونها ، وله في ذلك وفوق ذلك ارجحية كبرى هي رشاقة الجسم ولدونة الاعضاء ليتخذ دون عناء جميـع الاوضاع، ويمدد دون عناء انواع الحركات كافة، زد على ذلك ان اعضاءه تكون اكثر ملاءمة ، ومدربه جيداً لأن جميـع آلية الفنون اصبحت معروفة لديه ، ولاينقصه لـكي يشتغل كمعلم سوى العادة ، والعادة لاتكتسب إلا مع الوقت » .

ذوو فكر عملي ، على انه يمكن للحرفة اليدوية ذاتها أن تكون اقل شؤما في توسيــع الفكر . ومن فوائد هذه المحاولات ـ فيا له علاقة بالقضايا التي يعالجها هذا المقالـ ايحاؤها لمن يشعر باضطهاد حرفة محدودة الأفق ، بوسيلة يدخل بهـا قليلا من النور الى سجنه ، إنها لجد قليلة تلك المهن التي لايستطيع الانسان فيها ـ بتوسيعه مدى كفاءته ـ وصيانته حب الاستطلاع فيه كما تصان اداة النجاة ، ودأبه في الحفاظ على قيمته الانسانية ،اقول: لايستطيع تجاوز هذه المراحل الانحطاطية حيث تكون المشاغل المهنية مذلة بصورة خاصة .

١٢ ـ التناقض بين الثقافة والحرفة كائن : على انه اذا كان ممكناً التخفيف من تناقض الحرفة والثقافة فهو مع ذلك باق ، ومن سوء النيــة نكرانه ، فكيف السبيل الى التخفيف من أذاه ؟

إن الجواب يختلف تبعاً للسائل ، ويجدر أن اعيد نصيحة غوته للشاب الذي لم يختر مهنتـه بعد قال : لاتتح للمصادفات والافكار السابقة ، وعدم الاكتراث ان تلقي على كتفيك معطف آرائــكان ، وبعبارة اخرى ع موهبتك الاستعداديــة ، فان الحرفة المثلة هي التي تزاولها باحتراز ،فتش عن نفسك، استشر أهل الاختصاص وارباب العقول الحرة،واستشر اختصاصي التوجيه المهني اذا اردت اختيار حرفة يدوية ، واستشر بصورة خاصة هؤلاء الذين يحبون حرفهم ، واحرص على ان تفهم مايحبونه فيها ، وأن تتصور ما اذا كنت تستطيــع التجاوب مع حماستهم لها ، وما اذا كان رضاؤهم عنها سيكون رضاءك ، ثم قارن مطامحك مع مواهبك الاستعدادية .

ويجدر بنا ان نخاطب بنوع آخر من الــكلام ذلك الذي لم يعد في استطاعته الاختيار ، والذي استعبدته حرفته ، فلم يعد يفكر في اعادة بناء حياته من جديد . ان مدار الامر عنــده الافادة على احسن وجه ممكن من الاوضاع المحدودة اللازمة ،وبما اننا نفترض ان المثرة في سبيل الثقافة تتمثل في مثل حاله في شكل حرفة ليست بذات افق ، فلم يعد هناك سوى مورد واحد وهو ان يجيء الى جانب حياته المهنية شيئاً من الحياة الانسانية ،وقليلاً من الحياة الخفية ،وعزلة ينجو بها من المشاغل الحقيرة ليصبح امام ماهو ذو قيمة حقاً . ان هذا الحرمان من اوقات فراغنا يتطلب حرماناً قاسياً ، وكلما ازداد العيش تعقيداً ازدادت الصعوبة والضرورة معاً في ان يعيش مع نفسه كل يوم ولو بضع لحظات .

العالم العربي
في زحمة المشكلات الانسانية

بقلم: أديب اللجمي

يواجه العالم العربي ، شأنه شأن أي بلد أو أية مجموعة من البلدان المتقاربة المتواصلة بوحدة تاريخها وواقعها ومصيرها ، نوعين من المشكلات :

الأولى ، مشكلات خاصة ، منبثقة من طبيعة أوضاعه الاجتماعية والسياسية والتاريخية والفكرية .

والثانية ، مشكلات عامة ، مطروحة على الانسانية بمجموعها ، تتطلب من شعوب العالم أن تتصدى لها كما يتصدى أعضاء الاسرة الواحدة لموضوع يعنيهم جميعاً ، ويترتب على حله بقاؤهم ، واستمرار وجودهم .

ومن مسلمات الأمور في عصرنا الحاضر ، أن العالم أصبح واحداً ، على حد تعبير السياسي الامريكي وندل ويلكي ، وان المشكلات الكبرى التي تقلق أكثر بلاد العالم أو كلها ، لا يكتب لحلها النجاح الا بتعاون عالمي صادق .

ان المشكلات الخاصة التي يعانيها العالم العربي ، هي رغم كونها خاصة به ، إلا أنها ليست قصراً عليه . اننا نجد مثيلاً لها أو شبيهاً في كثير من بلاد العالم التي

أطلق عليهم اسم « البلاد المتخلفة في نموها » او بلاد « الكتلة الثالثة Le Tiers- Monde »
في اكثر هذه البلاد نجد **الشعور بالتخلف** قد أصبح قوة ثورية ، شعبية ، قوة تنشد **التحرر من التخلف ذاته** ، من مختلف العوامل التي سببته .

وحين يطرح العالم العربي على نفسه في منتصف القرن العشرين موضوع تحرره من سيطرة القوى المستغلة (في الخارج والداخل) ، وموضوع وحدته ، وموضوع النظام الاجتماعي الذي يجب أن يتبناه ، فهو في الواقع يطرح على نفسه ، ودفعة واحدة ، موضوع انطلاقه مع الركب الانساني الحديث ، مع المجموعة العالمية التي تبني حضارة اليوم ، وتعد حضارة المستقبل .

ولا يكاد العالم العربي كمجموعة واعية ، ينصرف الى مشكلاته الثقافية ، أو الفنية ، أو الاقتصادية ، أو السياسية ، إلا وتستيقظ أمام عينيه سائر المشكلات الأخرى . فهو اليوم أمام معركة شاملة ، معركة تقوم على الخلاص من ضروب التخلف ، وهي معركة لا تقبل التجزئة ، بمعنى أن معالجة كل جزء من أجزاء المشكلة الكبرى لوحده على انفراد لن تكون مجدية ، فبنيان الحضارة كلٌ متماسك ، وعبثاً تقوم الحضارة على حلول جزئية أو حلول مرتجلة .

ولكن مشكلات العالم العربي ، بما تتمتع به من خصائص تميزها قليلاً أو كثيراً عن مشكلات البلاد الأخرى ، تظل بدورها مرتبطة بمشكلات الانسانية الراهنة . ان عالم اليوم يعاني الذعر ، ويعيش على الخوف من فناء الانسانية ؛ فلم يكن الخطر من حرب كونية ، تلفّ العالم بأسره بجميع مآسيها وجميع ألوان الدمار الذي تحمله ، باشد هولاً مما هو اليوم . ولم تجهد الانسانية في العمل على تحقيق السلام ، وتوطيد أسس التعايش السلمي بين مختلف الشعوب وأنظمتها الاجتماعية ، كما تجهد اليوم . ولا يعني ذلك أن جميع النوايا صادقة ، أو أن التعايش

السلمي الفعلي قد أصبح واقعاً ،أو أنه يسيرفعلاً في الطريق الصحيحة .

إلا أن مشكلة السلام ليست وحدها بالعامل المشترك بين بلاد العالم . ان ثمة مشكلة أخرى ، تواكب تلك . انها مشكلة السباق في التسلح .

فبعد الحرب العالمية الثانيـة انقسم العالم القوي الى كتلتين متصارعتين ، تناهض كل منهما الاخرى ، تريد كل منهما أن تكون لها الغلبة على حساب ضعف الاخرى . وكان من جراء الصراع ، أن اشتد البحث لدى كل منهما عن اكتشاف الاسلحة الفتاكة ذات المدى التخريبي الواسع (كالقنـابـل النووية والصواريخ ومشتقاتها) والتفرّد باحتكارها بالتالي . وكان من نتائج هذا السعي أن أعطيت الاولوية للانفاق على التسلح ، فكان السخاء كبيراً للميزانيات المخصصة لانتاج الاسلحة . وظهر اخيراً ان السباق بين الكتلتين في هذا المجال لن يؤدي الى تفوق ملحوظ لأحد الفريقين على الفريق الآخر ؛ فكل اختراع جديد في وسائل الدمار ، يكون اليوم مجدياً مروعاً ، ثم لا يلبث بعد سنوات قليلة أن يصبح قديماً بالنسبة الى اختراع جديد يتوصل اليه أحد الفرقاء ، ويجعل المخترعات السابقة إما قليلة الجدوى ، أو متخلفة . والنتيجة المنطقية لذلك ، ان السباق في ميدان التسلح ، لم يضمن لأي من المعسكرين الاطمئنان على مصيره ، بل أدى الى إرهاق كل منهما بأعباء مالية ضخمة ، وباهمال رفع مستوى العيش لدى السكان ، وبفتح المجال أمام مشكلة ثالثة جديدة وخطيرة .

هذه المشكلة الثالثة هي التفاوت الرهيب بين مستويات الدخل لدى شعوب العالم . ان نظرة بسيطة نلقيها على سكان البشرية ، ترينا أن هناك أقلية مترفة ، الى جانب اكثرية جائعة ، محرومة من ضروريات العيش ، متخلفة في جميع ميادين الانتاج والاستهلاك . ومهما يكن صحيحاً قول القائلين ان من مصلحة المترفين أن

 ٧ *

يظل المتخلفون على حالهم ، ليستمر الأقوياء في تفوقهم، ولتظل لهم وحدهم القدرة على الاستغلال والاستثمار والتحكم في ثروات الارض وخيراتها ، فان عدد الشعوب المحرومة قد ازداد في القرن العشرين زيادة كبيرة ، كما أن التفاوت بينها وبين الشعوب المتخمة ازداد اتساعاً ووضوحاً . بل أن ثمة عاملاً جديداً انبثق في هذا القرن ، وأخذ يلعب دوراً خطيراً . انه تفجر السكان في بلاد العالم المتخلفة ؛ فاذا كان عدد سكان الارض في القرن التاسع عشر لم يتجاوز مليار نسمة ، فهو في منتصف القرن العشرين قد بلغ ثلاثة مليارات نسمة ، وهو في آخر هذا القرن سيبلغ حوالي سبعة مليارات . ومهما يكن من امر هذه الكتل البشرية الهائلة ، من حيث ضعفها وعجزها بوسائلها الخاصة عن اللحاق بالركب المتقدم ، فان مجرد وجودها ، ومجرد بقائها متخلفة ، يهددان بالخطر الاقلية المتطورة كما يهددان السلام العالمي نفسه . لم يعد ثمة توازن يمكن الركون اليه حقاً، ان الخلل كبير، وان وجوب تلافيه ضرورة تفرض نفسها على جميع الشعوب .

وظهرت في السنوات الاخيرة فكرة جديدة ، هي فكرة نزع التسلح ، وانطلق بعض كبار مفكري العالم ومصلحيه ، ينادون بضرورة ايقاف سباق التسلح بين الدول الكبرى ، وتحويل الأموال المرصدة لها الى مساعدة البشرية المحتاجة ، والاخذ بيدها ، واقامة نواة تعاون انساني ، يصون الجنس البشري اولا ويوفر الكرامة للناس اجمعين ، ويستمر قدماً الى ان يوطد أواصر التعاون بين ابناء الأرض كلهم .

وقد عرض المفكر الفرنسي ألفرد سوفي A. Sauvy هذا الموضوع في دراسة اخيرة نشرتها مجلة « افريقيا الناشئة Jeune Afrique » التي تصدر في تونس . وخلاصة بحثه ان زيادة سكان اوروبا في القرن التاسع عشر لم تتجاوز

نسبه ١ ٪ في السنة ؛ وكان الفائض البشري يتوجه آنذاك الى أمريكا . أمازيادة السكان في البلاد المتخلفة و بلاد الكتلة الثالثة ، فتتجاوز ٢ ٪ في السنة ، وهي في أكثرها تبلغ ٢,٥ ٪ ، بل انها في بعض البلاد، كالفيليبين ، والمكسيك ، وتركيا وماليزيا ، تبلغ ٣ ٪ ، واليوم تكاد هذه النسبة الأخيرة تصبح قاعدة عامة لزيادة السكان في جميع بلاد الكتلة الثالثة . ومعنى ذلك أن نسبة زيادة السكان في هذه المجموعة تبلغ خمسة أضعاف نسبة الزيادة التي تحققها أوروبا .

كنا نعرف قبل هذا القرن مجموعتين من الشعوب : الشعوب المتخلفة ، ونسبة الوفيات فيها كبيرة جداً ، والشعوب المتطورة ، ونسبة الوفيات فيها كنسبة زيادة السكان ، ضعيفة . أما في العصر الحالي ، فقد ظهرت مجموعة ثالثة من الشعوب، شعوب يزيد عدد سكانها سنوياً بنسبة كبيرة جداً لم نألفها من قبل في أية فترة من فترات التاريخ ، ولا في أية بقعة من بقاع الأرض .

لقد اصبح متوقعاً أن يزداد عدد سكان العالم في مدى السنين الأربعين المقبلة (اي حتى سنة ٢٠٠٠) بنسبة ضعفين ونصف ضعف ماهو عليه الآن . أما سكان الشعوب المتطورة ، فلن يزيد عددهم في المدة ذاتها اكثر من نصف ماهو عليه الآن . ثمة إذن تفاوت مخيف في زيادة فريق المتطورين ، وفريق المتخلفين. إنها زيادة لاتقوم على تطورات نظرية ، بل هي واقع ملموس . والمشكلة التي تنبثق عن هذا الواقع ، **هي أن شعوب الكتلة الثالثة ، بوصفها محرومة من الرساميل ، ومن الفنيين والاختصاصيين ، تلاقي صعوبات كبيرة لزيادة انتاجها بسرعة تقرب من سرعة تزايد سكانها** . ان دخل الفرد عندها يزداد ببطء ، وبنسبة ضئيلة جداً منذ عشر سنوات . بل إنه ينخفض . أما في البلاد المتطورة ، فزيادة الدخل السنوي مطردة ، تتراوح بين ٢ ٪ (في الولايات المتحدة مثلا) و ٥ ٪ أو ٦ ٪ (في الجمهوريات الشعبية والاتحاد السوفيتي واليابان ايضاً) .

وهكذا يصبح التفاوت في الدخل بين افراد شعب متخلف ، وافراد شعب متطور متزايداً في كبره وضخامته ، حتى انه ينتقل في مدى جيل واحد ، من نسبة (١ — ١٠) الى نسبة (١ — ٣٠). اي ان الهوة التي تفصل بين شعوب الأرض ، تزداد اتساعاً في الوقت الذي تزداد الصلات بين البشر ، وتزداد الروابط ووسائل الانتقال والمواصلات .

ان البيانين التاليين يقدمان فكرة عن توزع سكان العالم، ونسبة دخل الافراد خلال سنة ١٩٦٢. وفي هذين البيانين قسم العالم الى خمس مجموعات كبيرة حسب مايلي:

	عدد السكان بالمليون	الدخل بمليارات الدولارات	دخل الفرد بالدولار
١ ـ البلاد المتطورة الغربية	٤٨٩	٩٩٥	٢٠٣٥
٢ ـ البلاد الاشتراكية في اوروبا	٣٣٨	٣١٩	٩٤٤
٣ ـ البلاد المتطورة نسبياً	١٧٧	١٠٧	٦٠٠
٤ ـ البلاد الاشتراكية في آسيا	٧٣٥	١٣٥	١٨٤
٥ ـ البلاد المتخلفة	١٣١٤	٢٦١	١٩٩
	٣٠٥٣	١٨١٧	٥٩٢

فاذا ترجمنا هذه الارقام الى نسب مئوية ، حصلنا على مايلي :

	النسبة المئوية بالنسبة لسكان العالم	النسبة المئوية للدخل
١ ـ البلاد المتطورة الغربية	١٦	٥٤،٨
٢ ـ البلاد الاشتراكية في اوروبا	١١،١	١٧،٥
٣ ـ البلاد المتطورة نسبياً	٥،٨	٥،٩
٤ ـ البلاد الاشتراكية في آسيا	٢٤،١	٧،٤
٥ ـ البلاد المتخلفة	٤٣	١٤،٤
		١٠٠

وخلاصة هذين البيانين ، ان ١٦./. من سكان العالم تصيب او تنتج ٥٥٪ من دخل العالم ، وان ٤٣٪ من سكان العالم لاتصيب أكثر من ١٤٪ من دخل العالم . فالنسبة عكسية على وجه التقريب .

* * *

إن ماتنشده البلاد المتخلفة، هو التقدم . ولكن تقدم بلدما ، مرهون قبل أي شيء آخر ، بالاشخاص ، بالفنيين من مختلف الاختصاصات ، بالأفراد المزودين بالخبرة والتدريب العام ، ويتضح ذلك بترجمة هذه المفاهيم الى أسلوب مالي إن صح التعبير !

لكي يزداد دخل الفرد سنوياً بنسبة ٥./. في بلاد « الكتلة الثالثة » أي البلاد المسماة بالمتخلفة في البيانين السابقين ، ينبغي تأمين حوالي ٨٠ مليـــاراً من الدولارات في السنة (ويزداد هذا المبلغ في السنوات التالية طبعاً) . ومثل هذا الرقم يمثل حوالي ٣٠./. من الدخل القومي لهذه البلاد (باعتبار ان دخلها السنوي، يبلغ زهاء ٢٦١ مليار دولار ، كما جاء في البيان الأول .)

فاذا تواضعنا واكتفينا بزيادة الدخل السنوية ، بنسبة ٣./. فان المبلـــغ المطلوب توفيره يربو على ٥٧ ملياراً من الدولارات ، اي إنه يعادل حوالي ٢٢./. من الدخل القومي لهذه البلاد .

وعلى فرض اننا اخذنا بواحد من هذين الحلين ، فان الدخل القومي لبلاد « الكتلة الثالثة » يتضاعف في مدى ١٤ سنة في الحالة الأولى ، أو في مـدى ٢٤ سنة في الحالة الثانية . وعلى فرض ان جميع الوسائل الذاتية ميسرة لهذه البلاد من أجل مضاعفة دخلها القومي في المدد المشار اليها ، فان تخلفها لاينتهي بالضرورة ، لأن التفاوت في مستوى الدخل يظل كبيراً بين الشعوب المتطورة ، والشعوب

المتخلفة . ولكن تحقيق مضاعفة الدخل لهذه الشعوب الأخيرة ينقذهامن الجوع والفاقة ، ويصون بالتالي كرامة ابنائها . ومتى ازداد الدخل في بلد ما ، أي متى بلغ بلد مرحلة متقدمة من النمو الاقتصادي والثقافي ، فان عدد افراد العائلة يقل من تلقاء ذاته ، ويصبح معقولاً . وحين تتناقص نسبة زيادة المواليد ، يتسارع النمو الاقتصادي ، ويمكن الاستغناء جزئياً عن المعونة الخارجية التي قد تقدمها البلاد المتقدمة للبلاد المتأخرة .

والمشكلة الفعلية التي تعترض بلوغ احد الحلين المشار إليها ، هي أنه ليس بامكان بلد متخلف ان يوفر من دخله القومي (هذا الدخل الذي هو ضعيف بحد ذاته) حوالي ٣٠ ٪ او ٢٢ ٪ ليتمكن من مضاعفته خلال المدة المقررة . والنتيجة الحتمية لذلك ، هي **ان البلاد المتأخرة لن تتمكن بوسائلها الخاصة ، من زيادة دخلها ، زيادة كبيرة ومعقولة ، ولابد من معونة خارجية لبلوغ الغاية الموجودة .**

لقد شكلت منظمة الأمم المتحدة لجاناً عديدة لدراسة مشكلات التخلف في بلاد «الكتلة الثالثة» . كما شكلت لجنة كلفتها بتبين نتائج نزع التسلح ، وما إذا كان بلوغ هذه الغاية يفيد في عملية التطوير الانساني ، ووضعت هذه اللجنة تقريراً تضمن في جملة ما تضمن :

آ — ان نزع التسلح يؤدي الى تحسن اقتصادي عام ، حتى في البلاد الرأسمالية ، وأن تشغيل جميع العمال أمر ممكن تماماً دون اللجوء الى التسلح ، او الاستمرار في تشغيل مصانع الاسلحة .

ب — ان نزع التسلح يجب ان يعود بفوائد على مجموع الانسانية . فينبغي أن يتم تحويل قسم كبير من الاعتمادات المتوفرة من نزع التسلح ، الى معونة

خارجية للبلاد المحتاجة . وينبغي أن يتم هـذا التحويل بسرعة ، بصورة آلية إن امكن ، لأن عدم تحقيق هذا التحويل بصورة فورية ، يجعل الأموال المتوفرة من نزع التسلح ، عرضة لأن تبتلعهـــا ميزانيات الدول صاحبة العلاقة ، ولا يعود بالامكان تحويل هذه الاموال الى معونات خارجية .

واذا عرفنا أن نفقات التسلح تبلغ الآن حوالي ١٣٠ ملياراً من الدولارات في كل سنة ، وأن حوالي ٨٠ ملياراً منها تنفقها البلاد الغربيـة وحدها ، أدركنا أن الاموال اللازمة لرفع مستوى سكان العالم المتخلفين ، موجودة فعلا ، وأن الكتلة الغربية تستطيع وحدها أن توفر هذه الاموال اذا كانت صادقة في حرصها على اقامة تعاون مستمر بين شعوب العالم ، وأن الاتحاد السوفييتي يستطيع أن يسهم في التمويل ، وأن هذه المعونـة يجب أن تتجه الى جميع البلاد المفتقرة اليها ، بما فيها البلاد الاشتراكية في آسيا .

بالاضافة الى ذلك ، يحسن ببلاد « الكتلة الثالثة » ذاتها أن تبذل جهـداً حقيقياً لتوفير جزء من دخلها القومي ، توجه في ميادين التطوير وتحسين الانتاج ، كما يترتب عليها أن تحسن انفاق ما يقدم اليها من معونة خارجية في هذا السبيل .

ان مشكلة تحسين حال الشعوب المتخلفة تتطلب إذن من فريق المتطورين شيئاً من نكران الذات ، تتطلب موقفاً انسانياً يتجلى في تقديم العون المادي المؤدي الى تحسين الانتاج المحلي . ولكنهـا تتطلب عنصراً آخر لا يقل أهمية عن عنصر المال . انه العنصر البشري . فلن تنعم بلاد « الكتلة الثالثة » باستقلالها وسيادتهـا فعلاً مالم تبلغ مرحلة يغدو فيها أبناء هذه البلاد أنفسهم قادرين على الافادة من موارد أوطانهم ، قادرين بأنفسهم على استثمار هذه الموارد الطبيعية ، وعلى تحويلها الى ثروات تعود بالخير عليهم وعلى مواطنيهم .

ولذا فان المشكلة لم تعد فقط مجرد التفكير بمعونة تقدمها البلاد المتطورة الى البلاد المتأخرة ؛ ان الاسهام في حل المشكلات الانسانية يملي على البلاد المتقدمة أن تمنح البلاد المتخلفة معونة بشرية — فنية وثقافية — بالاضافة الى المعونة المالية، وأن تكون هذه المعونات حرة ، نزيهة ، خالية من أغراض الأنانية والتسلط . والتسليم بهذه الضرورة يتطلب إحداث تبدلات عميقة في بنيـــة الأنظمة الغربية ذاتها . فلا يعود ثمة مسوغ لانتاج الصواريخ والدبابات ، بل لانتاج مزيد من الآلات الزراعية ومحطات توليد الكهرباء . ولا تعود ثمة حاجة الى إعدادعسكريين على نطاق واسع ، بل الى إعداد مزيد من العلماء والباحثـــين والاختصاصيين في شؤون الزراعة ، والكهرباء ، وطبقات الأرض ، والمعادن ، وإعداد مزيـد من المربين والمعلمين الذين ينشرون هذه المعارف ويشيعونها في أوساط الجماهير .

* * *

ليست المشكلة إذن مواجهة ظرف طارىء، بل فهم مرحلة تاريخية جديدة، فهم العلاقات الانسانية بعقل جديد ، ومنطق يختلف عن المنطق الذي كان سائداً حتى اليوم . ان طريقاً جديدة ترتسم أمام الانسانية ، وتهيب بشعوبها أن يتعاونوا على شقها وتعبيدها . وما احتاجت الانسانية الى تضامن وتعاون صادقين كحاجتها اليها في هذا القرن العشرين . فالمهمة ليست مؤقتة ، ولا يسيرة ، ان بناء العـــالم يتطلب أمرين معاً : توطيد السلام ، وإقامة تعاون أخوي بين الشعوب المتطورة والشعوب المتخلفة . وقد أبانت الأزمة الكوبية الأخيرة خطر اللعب بالنار، والتلويح بالحرب ، وتسابق الأقوياء في التسلح . لقد تعرض العـــالم كله في تشرين الأول الماضي الى خطر الفناء الماحق . وقد قال رئيس جمهورية الولايات المتحدة في خطاب ألقاه : « **لو حدث أن قذف السيد خروتشيف بصواريخه علينا لقضي الأمر على أية حال . ان لدينا نحن وسائل الرد ووسائل تدمير الاتحاد السوفيتي .**

الا انه لو حدث ذلك ، وتم تبادل في القذف النووي ، لـكانت نهاية العالم محققة. أود ان اقول انه لو حدث ذلك لسقط في يوم واحد في كل من اوروبا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة مائة وخمسون مليوناً من القتلى على أقل تقدير . مائة وخمسون مليون قتيل في يوم واحد.» وكان موقف كل من زعيمي الكتلتين المتصارعتين ، السيد كينيدي والسيد خروتشيف ، انه يجب عمل المستحيل لانقاذ الارض ومن عليها من الدمار والفناء . وبلحظة تاريخية رهيبة انقذ العالم من الظلام ، وكان يقف قبل لحظة فقط على حافة العدم .

أما التعاون الذي تنشده الانسانية ، فلن يتحقق ، كما رأينا ، الا اذا توقف الكبار عن سباق التسلح ، ووجهوا الاموال والجهود التي تنفق في صناعات الاسلحة ، الى انتاج الوسائل المؤدية الى تحسين حال الشعوب المحرومة . وحين يتاح لبلاد « الكتلة الثالثة » ان تنهض بوسائلها وبمعونة البلاد المتطورة ، فان تقدمها وتحسن مستوى معاشها سيكون عاملا اكيداً على تثبيت دعائم السلام للانسانية ؛ وكما ان حرباً تقوم اليوم في العالم ، لن يقتصر أذاها على فريق دون آخر ، فان تعايشاً سلمياً تتوطد دعائمه اليوم ، سيعود بالخير على البشرية كلها. والشعب العربي ، كالشعوب الاخرى ، مدعو الى حل مشكلاته الخاصة مثلما هو مدعو في الوقت ذاته الى الاسهام في حل مشكلات الانسانية . وقد آن لنا أن نعي واقعنا ومسؤولياتنا .



أحلام العقل

• ماذا حقق العلم ؟
• وماذا يجب أن يحقق ؟
• أين أخفق .. وأين نجح
وأين يجب أن ينجح ؟

للدكتور رينيه دوبو
RENÉ DUBOS

ترجمة وتلخيص قلم التحرير

نتفق جميعنا على أن الفيزياء النظرية وعلم الوراثة يدخلان في نطاق العلم ، وأن الشعر الغنائي والموسيقى السمفونية لايدخلان فيه . ولكن ماذا نقول عن علم النفس أو علم الاجتماع ؟ انني أجد عسراً في تحديد العلم ورسم المزايا والخصائص التي تميزه عن سائر وجوه النشاط الانساني ، ومع ذلك فثمة بضعة آراء عن طبيعة العلم ، فرضت نفسها على جميع العلماء ومعظم الفلاسفة . فالبحث

* طبيب ، وباحث علمي ، عضو هيئة البحوث في المعهد الطبي في نيويورك ورئيس تحرير مجلة الطب التجريبي .

عن الحقيقي ، والوضوح في تعريف الالفاظ ، واحترام الحقائق القابلة للكشف ، امور اصيلة في طبيعة العلم . ومع أن العلم ينهض على الاهتمام بحوادث حقيقية قابلة للتحقيق ، فان معظم العلماء يقضون أبهج ساعات الدراسة ، وأقربها من الخلق والابداع ، في عوالم من الاحلام لاتثقل عليهـــا الوقائع ، بقدر ماتقيدها الآراء والصور الذهنية التي تتجاوز المعرفة الواقعية . فالعلم اذن يخضع لناحيتين من نواحي الحياة : العناصر الواقعية التي يمكن تحقيقهـا ، والعناصر العاطفية والتخيلية التي تحددها . ولكن قبل أن نمضي بعيداً في موضوع العلم نفسه ، يجدر بنا أن ندور قليلاً حول الموضوع لنرى أين يقع العلم من حياتنا في هذا القرن من حياة أهل الاحقاب السابقة .

في سنة ١٩٠١ كتب الكيميائي مارسيلا برتلو : « في وسع العلم اليوم أن يدعي لنفسه مقام الزعامة في المجتمعات . وليس ذلك فيما يخص الامور الماديه فقط ، بل فيما يخص المشكلات الفكرية والخلقية أيضاً .. هو العلم الذي سيزودنا بالاساس الانساني الصحيح للاخلاق والسياسة في المستقبل ». وبعد مضي نصف قرن على نشر السطور السابقة ، كتب العالم البيولوجي لورين ايزلي يقول :

« ان الانسان الحديث لمنقذف في تيار اشياء تمهد لأشياء اخرى ، بسرعة لاتسمح بقيام نظام خلقي راسخ او استقرار نفسي . أما البقايا الباقية من الاستقرار والآداب الانسانية ، فليست سوى مخلفات النظام المسيحي ؛ وهي تميل الى الوهن يوماً بعد يوم .

لقد عدنا الى الطبيعة ، لا كما يعود اليها الراعي الاغريقي ليستمع الى الحان الآلهة بفرح ، ولكن كحيوان شرس في باكورة عنفوانه ، يتسلل عائداً في الليل الى وجاره ، مستشعراً خلسة بعض القوة . ان سكينة الآلهة لاينالها اضطراب ، فهي تعلم على أي رأس ستنقض الصاعقة .

« ان الارتقاء الذي غـدا أمراً دنيوياً لايهتم الا بالمخترع الجديد ، والذي يستل الفكر من العقل ، ويحل محله التعبيرات الفارغة ، ليس ارتقاءعلى الاطلاق».

وإذن فقد صار بعض المفكرين **يعتبرون العلم شراً** ، بعد أن كان زينة العقل وأمل الانسان في خلق يوتوبيا تحقق جنة الله على الأرض .

ومع أن الناس تخيلوا في كل جيل يوتوبيا سياسية أو اجتماعية أواقتصادية ، كما في جمهوريةأفلاطون ويوتوبيا السير توماس مور فإن يوتوبيا «أتلانتس الجديدة» التى وصفها فرنسيس بيكون في آخر مؤلفاتـه ، هي الوحيدة بين جميع اليوتوبيات ، في أنها تلقي على العلماء عبء جعل المجتمع حكيماً ، رؤوفاً ومزدهراً والمجتمع المثالي في (اتلانتس الجديدة) يخضع لارشاد فئة من العلمـاء ، وقفوا أنفسهم على البحث العلمي وتنظيم المعرفـة ، وطلب الحكمة . وفي ذلك يقول كبيرهم : « غاية مؤسستنا أن نعرف أسباب الأشياء وحركاتها الخفية ، وأن نوسع حدود الامبراطورية البشرية ، وأن نؤثر في كل شيء » ذلك لان الفضل فيالثورة العلمية التي بدأت تؤتي ثمارها منذ القرن السابع عشر يعود الى كتابات رجل واحد ، هو فرنسيس بيكون بارون فيرولام وفايكونت سانت البانز (١٥٦١ — ١٦٣٦) فهو القائل : « **إن المعرفة التي تفضي الى الرضى وحسب، هي غانية للمتعة وليست للحمل والانجاب .** » . وهو الذي فرض على العلم أن يتساءل : بماذا تصنع الاشياء ، وهو الذي فرض على العلم تطبيق الطريقـة الاستقرائية ، وطالب العلماء بتوجيه ملاحظاتهم وتجاربهم نحو هدف مثمر بدلاًمن الجدل العقيم . وخلاصة القول ان بيكون نفخ في البوق الذي أيقظ أذهان أوربا الى ان العلم قادر على أن يغير المجتمع تغييراً كاملاً ، وأكد ضرورة تطبيق العلوم على الشؤون العملية .

ومع أن الكاتب الانكليزي هـ . ج . ويلز يشارك سلفه بيكون ايمانه بالعلم وأثره في المجتمع ، فقد أدرك مافات بيكون حين رسم صورة اليوتوبيا التي يتخيلها . ذلك أن اليوتوبيات التي صورها أسلاف ويلز تتصف جميعها بنقطة ضعف أساسية ، ذلك أنها جميعاً تفرض وجود مجتمع مستقر وبيئة لا تتغير . لكن الواقع أن المجتمعات الجامدة لا تستمر في البقاء ، ولا مفر لها من التصدع والانهيار في عالم لا يكف فيه شيء عن التغير والحركة . وقد كان ويلز الوحيد بين كتاب اليوتوبيات الذي أدرك أن المجتمعات كسائر الاحياء ، في توازن حركي غير مستقر مع البيئات التي تقوم فيها . **ولذلك لا يمكن ان تتحقق اليوتوبيات إلا إذا ماتت بعيد ولادتها، لكي تولد في اشكال جديدة .**

ولقد ساهم العلم مساهمة فعالة في تحقيق مختلف أشكال اليوتوبيات التي تخيلها الانسان . فقد دنا الطب من حل معظم مشكلات المرض ، وتطورت وسائل التقنية بحيث سهلت الدفء والتبريد ، وصار في وسع الفيزيائيين والكيميائيين أن يزودونا بأية سلعة نحتاج اليها ، وقد ألغيت المسافات وأشرفت الثورة الصناعية الاولى على الانتهاء ويواجه المسؤولون الثورة الصناعية الثانية بحكمة لم تعرف من قبل ، فأكثروا من الدراسات عن الاثر البيولوجي للاشعاع المؤين ، وعن تلوث مصادر المياه بالنفايات المشعة . وما تم في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع لا يقل عن مآثر العلوم الطبيعية : فالحرية والمساواة قريبتان من التحقيق ، وانتهى عصر تشغيل الاطفال ، وأقر حق الانتخاب العام ومبدأ توزيع عادل للثروة، **ومع ذلك فان شعور الخيبة يغلب على الناس اليوم.** ذلك أنه على مقدار ما يتطور الانسان، مبتعداً عن أصله الحيواني ، يقل ما يصيبه من السعادة ، بمجرد زوال الاسباب التي تقلق الراحة ، أو بازدياد الوسائل لاشباع الجسد . ولكن على مقدار ما تكون

السعادة مشروطة بازالة الالم الجسماني ، وتوفير وسائل الراحة البدنية فان الناس قد حققوا القسم الا كبر من أهداف اليوتوبيات التي رسمهافلاسفة عصرالتنوير .

على أن المشكلات الخلقية التي يثيرها الانتفاع بالمعرفة ، قديمة قدم البشر ، لكنها أصبحت أكثر أهمية حين تقدم العلم وصار يقدر بسبب منافعه الاجتماعية أكثر مما يقدرمن حيثهو فلسفةطبيعية . وقدقال رتشي كالدر : إن العلماءيتركون مكتشفاتهم ، كاللقطاء ، عند أبواب المجتمع الذي لا يعرف كيف ينشئهم .» ومادام للعلم أثر في مصير البشر ، فينبغي للمجتمع أن يقرر ماهي الأهداف التي يريد أن يبلغها ، وماهي المخاطر التي يقبل أن يتعرض لها في سبيل تحقيق أهدافه .

ولو اتخذنا الطب مثلاً على الهدف الذي يريدالمجتمع تحقيقهلوجدنا أنالصورة الصحية للعالم الحديث أكثر اشراقاً من غيرها .

فالسيطرة على الأمراض الجرثومية وتحسن وقاية الأطفال ، وتقدموسائل الجراحة ، وتحسن العقاقير الطبية ... أمور تجعلنا نتطلع إلى استهلال فصل جديد في تاريخ الطب . ولكن قلما يدرك المتفائلونبأن كل حضارة تخلق الأمراض الخاصة بها . وهذا يعني أننا إن سيطرنا على أمراض الماضي فاننا لانعلم شيئاً عن أمراض المستقبل . ذلك أن تحسين نتاج الحيوان والنبات يعتمد على المواد الكيميائية ، وبما أنه من المستحيل أن نعرف أثر هذه المنتوجات في صحة الانسان ، فان احتمال التسمم البطيء حالة لا بد من قبولها مع اطراد التقدم . وحقاً اننا استغنينا عن الحصان والاسطبل الذي ينمو فيه الذباب ، لكن الهواء تلوث بغازات الاحتراق وتسببت حوادث الاصطدام بوفاة عشرات الآلاف من الناس . وإذا كانت الحضارة الآلية أدخلتنا في عصر ذهبي ، فان العمل الآلي يولد في العامل شعوراً بنقصه ويولد التوتر العصبي من أعمال تتطلب كثيراً من الانتباه وقليلاً من المجهود، مما يدمر نفسه.

وقد أدى نقص وفيات الأطفال والسيطرة على الأوبئة إلى ازدياد سكان العالم بسرعة لاتجاريها سرعة تقدم أساليب التقنية الزراعية والحيوانية . **فقدزاد عدد سكان العالم خلال السنوات العشر الاخيرة بمعدل ٨٪ على حين أن زيادة انتاج الطعام لم تصل الى ٥٪ ، فكانت النتيجة أن عدد الجياع اليوم أكثر من عددهم في السابق** . كما نتج عن قلة الوفيات بقاء أشخاص على قيد الحياة مصابين بضروب شتى من الضعف البدني والعقـــلي ، مع ما ينتج عن ذلك من عواقب اقتصادية وبيولوجية . فمثلاً إن انقاذ طفل مصاب بآفة وراثية هو عمل انساني ، ولكن ينتج عنه ازدياد المشاكل الطبية للأجيال التاليـة . كذلك ينبغي أن نوازن بين اطالة حياة شيخ عليل وبين عواقبها . فازدياد الأفراد العاجزين عن خدمـة مجتمعهم والمحتاجين الى المزيـــد من الرعاية يضع الضمير الطبي في مأزق حرج . والأبيات التي تقول :

يجد العلم أساليب بارعة للقتل ،
قتل الاقوياء والابقاء على الضعاف والمرضى
حتى يخلفوا ذرية مريضة
أفقر من أن تدفع الضرائب ، وأكثر من أن يوفر لهاالطعام.

هذه الأبيات تحتوي على كثير من الحق . إذ ينبغي أن نسلم بأن الحياةالتي تحتاج الى عناية طبية دائمة ، لها عواقب اقتصادية واجتماعية سيئة .فالمأثور أن الطب يعنى بارجاء الموت ومنع الألم وتقليل الجهد ، ولكن الخبرة تؤكد أن قوى الانسان البدنية والعقلية لن تبلغ كمال نموها إلا إذا بلت مقداراً من الشدائد والأخطار . وقد حال استغراقنا في الراحة والسلامة ، بيننا وبين الاهتمام بالمستقبل ، وقد يكون هذا الاهمـال مهلكاً للجنس البشري بأسره . يضاف الى ذلك أن استمرار زيادة

السكان سيزيد من دقة تنظيم المجتمع تنظيمـــاً عسكرياً يفضي الى زوال الحريات الفردية وزوال الجمال والاستقلال والقدرة على الاستمتاع بالعزلة وبجميع مقومات المدنية . لذلك يجب أن نعيد النظر في حكمة اتخاذ العمر الطويل مقياساً للاخـلاق الطبية والاجتماعية ، وأن نسلم بأن المبالغة في الاهتمام بالسلامة والراحة وتجنب الألم والجهد ، قد تغدو انتحاراً بشرياً . وما لم نجد طرائق لبلوغ مستوى أعلى للقـدرة على الملاءمة في الفرد ، ولمنع النكوص الوراثي في الجنس ، فلا مفر من أن يزداد عدد الذين يلجؤون الى الطب ، محاولين أن يطيلوا الحيـــاة ولو على حساب قيم أعلى وأسمى .

وقد آثرت أن أعنى بنواحي العلم التطبيقية لأن الفكر البورجوازي يعتقد أن الحياة تأتي في المقام الاول والفلسفة في المقام التالي ، وينتج عن ذلك أن صنع الأدوات سبق المعرفة العقلية . ولكن الحقيقة هي أن الانسان البدائي كان معنياً بالخلود والسحر ، مقدار عنايته بالحرف والاسلحة . ولو لم يكن العلم معوانـــــاً للانسان على السمو فوق أصله الحيواني ، لكان أداة للراحـة والسلطان ، لاقوة ثقافية . فالعلم جزء من المجهود الجماعي الذي وهب البشر انسانيتهم ؛ حتى بلغ الايمان بالعلماء حداً اعتقدوا أنه يمكنهم بالعلم أن يحلوا لغز الخليقـة . ولكن اذا استطاع ذوو العقول المتوسطة اختـراع بعض الآلات والاساليب ، فان عقولا قليلة في التاريـخ تبينت العلاقات المهمة بين الحقائق واستخرجت نموذجاً واضحاً من فوضاها . ولذلك أشك اذا كان الناس أصابوا تقدماً يذكر في فهم طبيعة الكون وحالة الانسان .

في طليعة القرن السابع عشر ، أكد رينيه ديكارت بان الجسم البشري والنفس البشرية ، وحدتان منفصلتان ، وأن الجسم آلة ويمكن دراسته على أنـه آلة . وقد أفضت افتراضات ديكارت الى تقدم علمي عظيم انتهى الى افتراض جريء

مفاده أن في الوسع ابتكار تجربة كيمائية لخلق خلية حية من مواد كيمائية غير حية . وهذا يعني بأن الجسم الحي ليس سوى آلة فيزيائية كيمائية ، ذات نظام معين يزول بزوال الحياة ويمتاز بالقدرة على النسل والتفكير أي القدرة على الاختيار أما النظام المعين فاعنى به (الاستقرار الدينامي في الاجسام البيولوجية) أي قدرة هذه الاجسام على الاحتفاظ بوحدتها الشكلية رغم أنها تمر في حالة تغير عنيف فيما تمثله أجسامها من مواد . أما في النسل فنجد أن كل مايطرأ على الجنين من حيث تغير شكل أعضائه ووظائفها لا يقتصر على حاجته المباشرة ، بل يمهـــد لتحقيق مايحتـاج اليه الوليد الكامل وذريته من بعده . فالحياة اذن اكـثر من مجرد تعديد جزئيات حمض النيوكليك والبروتين مع الانتفاع بالطاقة الكيمائية لتركيب المواد العضوية وتجديدها . ان الحياة فعل خلاق ينشيء من مصادفات المادة نظاماً ويحافظ عليه ، ويولد اشكالا جديدة بخصائص تسمو على المقومات التي تتألف منها.

ويرى كثير من العلماء أن الحياة قد تكون في استقرار الجزيئات غير الحية داخل الخلايا ، اكثر مما هي في تحول المقومات المتغيرة تغيراً سريعاً . أي أن هذا العالم ينادي بالبحث عن جوهر الحياة من خلال مذهب « **الكينونة** » الذي قال به ديمقريطس وشايعه فيه ديكارت ، لا في مذهب « **الصيرورة** » الذي قال به هيرقليطس وشايعه فيه هيجل . وتعود جذور المشكلة الى الخلاف بين دعاة الاتصال ودعاة الانفصال في الطبيعة منذ أن بدأوا جدلهم في اليونان القديمة. واننا لنجد لامارك وغوته من القائلين بوحدة الطبيعة ، في حين أن ديمقريطس وعلماء الفيزياء الذرية ينادون بالمذهب الانفصالي لسهولة التحليل فيه. ومن المدهش أن تتوحد النتائج بين قول هيرقليطس « **النار اساس الخليقة** » وبين قول الفيزيائيين المعاصرين « **الطاقة أساس المادة** » ، أما المادة التي كانت عند أرسطو طاليس « **الشيء**

الكامن » فانها عند الفيزيائيين « **الطاقة التي تبرز الواقع عندما تولد الدقيقة الاولية**». والواقع أن قدرة المخ البشري على التكهن بأفعال الكون، توحي بأن المخ مرآة لبعض مافي الكون من نماذج . وفي هذا الضوء ، لايدهشنا أن يكون الفلاسفة الاقدمون قد تبينوا لب كثير من مشكلات العلم الحديث ، وان تكون صياغتهم لهذه المشكلات قريبة الشبه بصياغتنا لها مادمنا لم نصب تقدماً يذكر ، في فهم طبيعة الكون وأصل الحياة وحالة الانسان .

ولعل شعور الناس باخفاق العلم في معالجة المشكلات الانسانية ، وفي حل لغز طبيعة الانسان ومصيره ، ادى بهم الى التشكك بقيمة العلم ثم الى الحديث عن افلاس العلم ، وقد تزعم هذه الحركة أولاً ميجيل ده اونامونو ١٩١٣ في كتابه « معنى المأساة في الحياة » ثم جوزيه اورتيغا اي كاسيه ١٩٣٠ في كتابه « ثورة الجماهير » . واذا كان اونامونو يرى ان « العلم لايشبع حاجات قلوبنا وارادتنا » . فان اي كاسيه يحتقر العلماء ويقول : « المتخصص ليس عالماً ، **لانه يجهل ، في الاساس ، كل شيء لايدخل في نطاق اختصاصه ، ولكنه ليس جاهلا ، لانه (عالم)و(يعرف) معرفة جيدة منطقته الصغيرة من الكون. واذن فينبغي ان نقول :(انه جاهل عالم)** .أما ما كنيل ديكسون في كتابه «الوضع الانساني»فقد بين أن (العلم هو تلك النظرة الى الحياة ، التي تستبعد كل شيء انساني من لوحة المستقبل . فهو في نيته غير انساني ، يفترض ـ وياللعجب ـ أنه على مقدار مانبعد عن أنفسنا ندنو من الحقيقة ، وعلى مقدار ماننفصل عن أعمق عواطفنا ، وعن الذين نحبهم ، فاننا نقترب من الواقع ، من القلب المتحجر للكون العلمي) . وقد بين كنيث بولدنغ في كتابه « الصورة » أن في العالم كثيرين يعتقدون ان « العلم يمكن تعريفه تقريباً بذلك الفعل الذي يضع المسائل التي لاشأن لها والتي تمكن الاجابة عنها ، في محل المسائل التي لاتمكن الاجابة عنها » .

ويعود ازدراء العلم والعالم في مثل هذه الكتابات ، الى اخفاق العلماء في نقل انبل نواحي التراث العلمي الى الجمهور ، فعدا عن غطرستهم المهنية في تطبيق الطريقة العلمية ، تجدهم يعجزون عن ايضاح النواحي الروحية الخلاقة التي تدنو الى سر الفنون في كل تقدم علمي عظيم . وهم يهملون أن يذيعوا أن المعرفة بحد ذاتها ثمرة يانعة من ثمار العلم ، بينما يتبجحون بنتائجهم التطبيقية . ولعل بنيامين فارنتون على حق حين قال : « ان الانسان يصنع تاريخه العقلي في خلال فتحه العالم » . فالعلم كالفلسفة لم يزل يطلب لذاته ومن اجل الرضى الفكري بتوسيع نطاق الفهم . وقد جرب بطليموس النشوة الفكرية التي تنجم عن المعرفة ، فقال : « **أنا أعلم أنني زائل ؛ ولكنني حين أبحث في الافلاك والنجوم ، احس أنني لست واقفاً على الارض ، بل أقف جنباً الى جنب مع الاله زفس بذاته** » . لذلك ارى ان العلماء يخونون الجمهور عندما يهملون التشديد على النواحي غير النفعية من نواحي المعرفة العلمية . يضاف الى ذلك ان العلم ليس مصدر معرفة وحسب ، بل هو وسيلة ايضاً ، لأخذ العقل والنفس بنظام دقيق . على أن ألمع العلماء فكراً وأجدهم بحثاً ، يتوقون الى الانفلات من النظام المحكم الصارم القائم على المعرفة الواقعيـة ، لـكي يستشعروا مرة اخرى نشوة الفكر الفلسفي ، وأرى أن العودة الى الفلسفة العلمية تنفي التهمة القائلة ان العلماء يكادون يصبحون طبقة منفصلة عن بقية المجتمع ، بانشائهم ثقافة لاصلة بينها وبين سائر الحياة الانسانية . ان حالة الاختصاص ليست مقصورة على العلم ، فالناقد الفني والعالم باللغة السنسكريتية بعيدان عن التفاهم بعد البيولوجي عن الرياضي ، ولذلك يجب أن نسلم بأن العالم الحديث مؤلف من اختصاصات عديدة ينفصل بعضها عن بعض ، (فالجاهل العالم) الذي وجد «إي كارسيه بين العلماء انما هو نمط مألوف في الدراسات الأدبية والعلمية على السواء .

وعلى ذلك فليس هناك (ثقافتان) كما يرى س . ب سنوه بل هناك عديد من الاعمال الفكرية التي تتصل بالحياة الانسانية . وأياً كانت رطانة العالم في حدود اختصاصه ، ففي وسعه أن يجعل الناس يفهمونه مها بعدوا عن اختصاصه ، شريطة أن يسمو بلغته فوق رطانة فئته . فيجب على العالم أن يحسن الكلام كانسان . ولو اقتصرت الدراسات الانسانية على عرض مؤداها عرضاً فكرياً تقنياً لانفض الناس عنها . فهم يقبلون عليها لا بسبب فحواها الفكري ، بل بدافع صفتها الانفعالية ، بدليل أن الجمهور يترك الادب ويلاحق الموضوعات العلمية اذا كانت تثير الانفعال ، كالدراسات عن غزو الفضاء أو العلاقات الجنسية .

إن ماطرأ من التحول على الحياة البشرية ، خلال مائة السنة الاخيرة كان تحقيقاً لليوتوبيات التي رسمها فلاسفة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر. وكان دور العالم نافعاً في صحة البشر وسعادتهم . وان ثقة العالم بالنتيجة النافعة لعمله دفعته الى ان يترفع عن المشكلات الاجتماعية ليستزيد من معرفة الطبيعة . أما وأن للعلم قوة اجتماعية تزداد بسرعة ، فان العالم سيرى نفسه مسوقاً الى مواجهة المسائل التي يثيرها ضميره . وأهم هذه المسائل التهديد المقترن بالطاقة الذرية وضغط تزايد السكان .وان قدرة العلم على تلبية كل طلب صناعي تقريباً جعلته مصدر خطورة بعد أن كان مصدر أمل . والواقع أن اطراد التقدم التقني الاعتباطي ، دون النظر الى صلته بمعنى الحياة الانسانية ، قد ينتهي الى القضاء على الحضارة . فان لم يزدد هتمام العالم بالفلسفة الاجتماعية ألفى نفسه عرضة لأن تنطبق عليه كلمات أوسكار وايلد: « إنه رجل يعرف ثمن كل شيء ،ولا يعرف قيمة أي شيء » . واذا لم يواجه العلماء تبعاتهم الاجتماعية ، فقد يجدون أنفسهم ذات يوم ، وهم عاجزون عن ضبط القوى التي أطلقوها من عقالها ، وقد يضطرون الى اعتراف يشبه اعتراف قبطان الباخرة

في رواية « موبي ديك » لهرمان ملفل حين قال : « إن وسائلنا سليمة ولكن هدفنا مجنون . » .

وحين يهتم العالم النظري بمسائل الفلسفة الاجتماعية فانه سوف يواجه مسائل فلسفية عديدة في محاولته أن يضع تعريفاً جديداً للأسس الفكرية التي تقوم عليها المعرفة . وسوف يجد أن قسطاً كبيراً من المعرفة العلمية قائم على تقطيع الطبيعة وتجزيئها . ولكننا نرى في الواقع أن بعض الوثبات الكبرى في التقدم العلمي ، لم تجىء نتيجة لتحليل دقيق للأفعال ، بل نجمت من احساس « حدسي » بالواقع بأكمله ، رغم أن معظم مآثر الفكر الغربي نتجت عن الفكر التحليلي . ومن الممكن أن يكون الغرب قد أهمل مواهب استثمار الطبيعة في مدار وجودها الكلي ، بسبب افراطه في تنمية النواحي المجردة للعلم . فيجب أن ننمي قدرتنا على أن ننظر الى العالم نظراً مباشراً ، وأن نربي وعينا على أن كل شيء له قيمة وصلة بكل شيء آخر . فاحساسات العالم هي مواضع الاتصال التي تحفظ لقدرته الخلاقة حياتها وعافيتها . ولو أخذنا العلماء كجماعة ، لوجدناهم يتصفون بوداعة الروح لأنهم يدركون مع ديمقريطس أننا « لسنا نعرف شيئاً واحداً معرفة لاخطأ فيها ، ولانعرفه إلابتغيره وفقاً لمواقع جسمنا وأشياء أخرى . » ومن حسن الحظ أن حدود الفهم تتطابق واتخاذ موقف اجتماعي خلاق . والواقع أن الصفة الدينامية التي يتصف بها العلم الحديث تقترب من تعريف كانت للايمان حيث قال : « الايمان هو التمسك بصحة مذهب ما على اساس ادلة كافية للعمل به ، وان كانت خليقة ألا تكون كافية لرضى العقل . » .

واخيراً ، فوراء جميع هذه الاعتبارات ، وفوقها ، نجد العلماء مقتنعين بأن مايصنعونه له صلة بفهم الحقيقة المطلقة . ومهما تكن المسائل التي ترمض العقل عن

الكون ومنشأ الحياة ومصير الانسان ، فلا بد من أن تكون أجوبة اللاهوتيين والفلاسفة متسقة مع مطالب الذهن المثقف – أي مع الحقائق العلمية . وليس ثمة من يرتاب في أن عالم الاحياء وعالم الجمادات كما كشفت عنها البحوث العلمية مما اعظم من أية صورة تنبثق عن الفكر المجرد او الخيال المتألق . وإذ يميط العلم اللثام عن الاساليب الخفية وراء المظاهر ، يمد امام التأمل آفاقاً جديدة لم تكن في الحسبان . فالعلم هو كالرؤيا ، يوسع نطاق الوعي بشحذ الاحساسات المباشرة التي نشأت منها الفلسفة .



الكتّاب والموضوعات

الآداب

الشمع المسحور

شعر

بدوي الجبل

بردك فوق الخصر جار الرؤى
فخلفه تطفر جنيتان

شيطانتان اسطفتا جنة
قد تؤنس الجنة شيطانتان

دارت على الظمأى حمياهما
فاللهو في الجنة طلق العنان

يدنيهما الشوق ولم تدنوا
فهل هما نهدان ام نجمتان

تموج الحان الصبا فيهما
كأنما نهداك اغرودتان

عشان لا للطير . بل للهوى
عشان . بل للمسك قارورتان

عندي طيوب لك هيأتهـــا | عطر لبـــاناتي وعطر البيان
رشتًا على حسنك رياهمـــا | فهل درى عطراي مايفعلان
حسنك عطر العطر في جنتي | — على غناها — ولبان اللبان
فاغدي على الرمل وروحي ، يضع | ورد ويفرش طيبه اقحوان
عيناك بحر حين اغفى انحنت | فلملمت احلامـــه الضفتان
تغفو بعينيك طيوف المـــنى | عيناك للاشواق ارجوحتان
قلبي وقرطـــاك حليفا ضنى | ألم يئن ان يتعب الخافقان
وخصلتان ارتاحتـــا في يدي | من الدجى المخمور مسكوبتان
شذاهمـــا باق وان غابتـــا | كأنما فرعاك ريحـــانتان
تغـامزين البـــدر في موعد | ففرت لمـا التقت الغمزتان
تنمنم الاحـــلام فضيـــة | وتنسج الشمس .. لك .. الارجوان
وملكك البدر وشمس الضحى | وما يصوغان وما يغزلان
قد باح جفنـــاك بسر الدجى | جفناك من سر الدجى مترعان
تضحك عينـــاك وان جدتا | لاسحر في عينين لاتضحكان
تنطق عينـــاك ولم تنطقـــا | وقد تطيـــلان وقد توجزان
ولم تضيقـــا بمعـــاني الهوى | ألا تلومـــان ألا تعتبـــان

* * *

رشيقة الاحزان والقد .. هل | ينبت في جمر الغضا غصن بان ؟
زلت قلـــبي سدرة المنتهى | ما ارز لبنان وما الغوطتان ؟
وبيننـــا قربى الشذى للشذى | الحسن والشعر رضيعا لبان

ترشف من نهديك اعفاءتي ... كأسين قد اترعتا بنت حان
طافت بك الكأس فرنحتها ... وجن لما شمك الزعفران
نبع الصفا المسحور (١) يشتفه ... قلبي وهذا الحسن والفرقدان
نشتفه حتى ثمالاته ... فنحن لانفنى .. ويفنى الزمان
نشتفه حتى يعود الصبى ... واللمة السوداء والعنفوان
وبيتنا في ربوة سمحة ... حلو السفوح الخضر حلو الرعان
وغابة يغفو الضحى عندها ... وشمسها تغرب قبل الأوان (٢)
قبورنا فيها ولا وحشة .. ... يؤنسها في الوحدة السنديان (٣)
وقبة (٤) تحرس كنز الدجى ... كأنها في الغابة الديدبان
والنبع والقبة في هدأة ... يسرع دهر وهما وانيان
ماهزت الدنيا اثيتها ... فتترب الدنيا ولا يدهشان
ولوحت من بعض افيائنا ... كفان بالحناء مخضوبتان

* * *

حضنت في السمراء دنيا المنى ... حين التقينا كبر العالمان
جزنا حدود الكون لامشرقان ... في جلوة النور ولا مغربان
جزنا حدود الكون حتى التقى ... كل مغيب عندنا بالعيان
وعاد للانجم ماضاع من ... اضوائها واعتنق الازهران
واختصر الدنيا شذى مسكر ... او لمحة عذراء .. او قبلتان

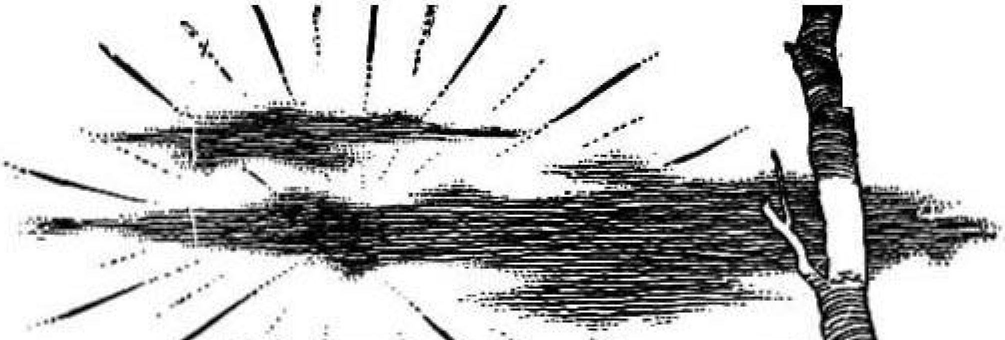
* * *

(١) الاشارة الى ماورد في الاساطير عن وجود نبع يكفل للشارب منه خلود الشباب .
(٢) (٣) (٤) اماكن في القرية بقيت للشاعر من ذكرى طفولته .

بحت بأسراري فعبّوا الشذى ... فضت عن الراح العتيق الدنان
ماغاب عن اعراسنا اهلُنا ... الشمس والانجم في المهرجان
والناس لاتعرف احزاننـــا ... يرثي لنا الشوق ويبكي الحنان
يرفعني الموج الى شاهق ... وحطني .. لاتهدأ الكفتان
زلزلت الامواج زلزالهـــا ... واحتضنتها دجنـــة من دخان
قد رجها العاصف حتى طفا ... لؤلؤها طوع يدي والجمان
ومحنـــة طالت واكرمتها ... بالصبر .. حتى مل دهر .. فلان
لايقنط الحر ولا يشتكي ... لكل بحر هائـج شاطئان
فتشت عن خوفي فلم القه ... كيف ارى الخوف وانت الامان

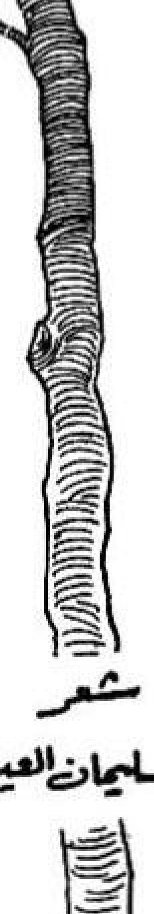
قرّبنـــا الله ففوق الزمان ... نحن مع النور وفوق المكان
نحن وقلبـــانا واســـرارنا ... نعوق .. الى الله .. واغنيتان
أوجهُه .. ام بيته .. قلبي ؟ ... استغفر الله في قبلتـــان
زبـــد جمراً لبخور الهوى . ... في النار هذا الجمر لا في الجنان
يضوء الظلمـــة ايماننـــا ... ويسكر الفجر رحيق الاذان
صلاتنا النور فمن وهجها ... شع الضحى ـ وائتلق النيران
من وردنا (١) .. الزهرة تسبيحة ... والصبح والنجمة تكبيرتان
تغمرني الشمس عشاق الهوى ... فلفّني .. من فرعها .. خصلتان
وجهي ـ ولم تخدع ـ أساريره ... والقلب مرآتان مجلوّتان
كتبت « بسم الله » فالطرس من ... عدن و « بسم الله » حوريتـان
لم يعنني عسر ولا غربـــة ... الله والحسن هما المستعان
عريت فقرى عند بابهـــا ... وتعذب الشكوى ويحلو الهوان

(١) الورد : الحزب من القرآن .



رسالة

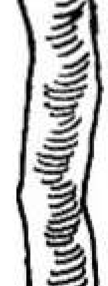
إلى صديق شاب
أخفق حبه الأول



أتُلقي بمجدافك الأخضرِ
ولم تطوِ موجاً ، ولم تبحرِ ؟
أتُلقي به للعُباب الأصمّ ،
وأنتَ على الشاطىء الأنضرِ ؟
يمدُّ لك الموجُ أحضانَه
ويلقاكَ بالعَبق المسكرِ

شبابُك ، والعنفوان البعيدُ
شراعان رفّا ، وأفقٌ جديدُ
أتتعب ؟ إني أحسُّ النشيد
يبرعم عن ألف عيدٍ وعيدُ ..
أتجزع ؟ مازال شوقُ الجليدُ

شعر
سليمان العيسى



صلاةً الى اللهـب المسعرِ
أتلقي بمجذافك الأخضـر ؟

تحبُّ ؟ بلى انتَ للعاصفه
وعشرون .. كيفَ ؟ بلاعاطفه
بلا غيمةٍ حلوةٍ قاصفـه
تزلزلُ صدرَ الفضاء العطري
ولولم تعجلْ ، ولم تمطر ..

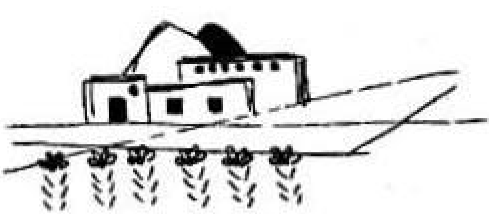
تحبُّ ؟ دع الليل والأنجما
وسمرَ الصخورِ ، وهذي السما
وجذعَ الصنوبرةِ الملهما
يردّد صداك الـذي حطّما
وتعصرُ لهاتكَ نارُ الظما
الى حلمٍ في الأعالي جـديدْ
الى وترٍ لم يطأْهُ نشيـد
أتتعـبُ ؟ والموجُ لم يهدرِ
وتلـقي بمجذافك الأخضر

سأسألُ عنكَ رَمادَ الطريق:
أكانت له حصةٌ في الحريق ؟
جنونٌ.. ربيعُ الشبابِ الوريق
فأرهقهُ..
حمَّلهُ
مالا يُطيق..
جنونٌ يلوِّنُ هذا الوجود
ويُعطيه معناه، سِرّ الخلود
تُحبُّ ؟
سلِ الدربَ عن مزهري..
بقايا الحطامِ على البيدر..

سلامٌ على جمرةٍ في المَدَى
سفحتُ شبابي عليها سُدى
ولو عدتُ جدَّدتُ ذاكَ الصدى
وفتَّشتُ عن قطراتِ الندى
بأعماقِ نبعٍ رهيب القرار
عميقٍ.. عميقٍ.. كعمر البحار
على الموتِ، واللهفاتِ الصغار

على الليل لعنةُ ربّ النهارْ
أتتعبُ ؟
والكأسُ لم تُعصَرِ ..
وتُلقي ، بمجذافك الأخضرِ

على ريشةِ النجمةِ الشاعره
ومن عَبَقِ الذروةِ الساحره
على ثغرِ عصفورةٍ في الجبَل
تعطّره بالرؤى .. والغزل
أخطّ اليكَ ..
أجرّ السطور
ليَلفحَها الصيفُ ، قبل الصخور
فأمسكْ بمجذافكَ الاخضرِ
حنيني .. مع الزورق المُبحرِ



المضمون في الشعر الحديث

وروح العصر

- العصرية وملامحها
- الرمز والاسطورة
- الضباب والتصعيب
- الالتزام والاجتماعية

الدكتور صالح الأشتر

الظاهرة النقدية الغريبة التي يدركها كل متتبع لدراسات النقاد المعاصرين لتجارب الشعر الجديد هي أن أكثرهم قد استهوته بوارق الاطار الشكلي الخارجي لهذه التجارب فوقف عندها ، ولم يتجاوز هذه القشرة السطحية ، وانتهى من بعد الى أحكام سريعة ضلت فهم حقيقة الشعر الجديد، وخدعت عن رصد أبرز مقوماته . .

في رأيي أن أهم جوانب التجديد في هذا الشعر يجب أن تلتمس في مضمونه الجديد ، وأن دراسة جادة لابعاد هذا

المضمون كفيلة بأن تضع أيدي الباحثين على أدق الملامح التي تتميز بها حركة التجديد الشعرية المعاصرة . وليس من ريب في أن مثل هذه الدراسة الجادة لمضمون الشعر الجديد لايمكن أن تنهض بها مقالة في مجلة ، ولهذا سأحاول هنا تقديم تحليل سريع لأبرز عناصر المضمون الجديد ، وعسى أن تتاح لي — في مقالات أخرى — عودة متمهلة الى الموضوع ، لتعميق جوانب البحث ودراسة العناصر الأخرى .

* * *

أظهر ملامح التجديد في المضمون حرص الشاعر المجدد على توفير أكبر حظ فيه من (العصرية) بحيث يكون المضمون تعبيراً صادقاً عن روح العصر ، يعكس بأمانة حقيقة الوعي المعاصر للحياة الراهنة التي نعيشها.

والعصرية معناها هنا الانفتاح على القيم السائدة في عصرنا وتمثلها في الشعر ، والشاعر العصري هو من يعتصر هذه القيم ويتمثلها في شعره ، ويأبى أن يخضع موهبته للقيم القديمة التي كانت سائدة في أي عصر آخر ، ومثل هذا العصري « لوارتد بمعجزة — كما يقول الاستاذ زكي نجيب محمود — الى عصر سابق أو عصر لاحق ، لأحس بالغربة الشديدة التي يؤثر عليها العدم ، كما حدث لأهل الكهف في مسرحية توفيق الحكيم المشهورة ».

لهذا يبحث المجددون عن محتوى داخلي جديد لتجاربهم الشعرية ، محتوى عصري تتمثل فيه إنسانية رحبة موصولة بالتيارات الفكرية المعاصرة ، بفلسفاتها ومدارسها ونزعاتها ، ويرضع من الثقافات العالمية ويستوعبها ويستغل طاقاتها ، وهذا الحرص من المجددين على التهام العلوم العصرية والفلسفات وتمثلها في انتاجهم الشعري إنما هو صورة من صور المشكلة الفنية المعاصرة ، فالفن قد أحس بعقدة النقص وهو يرى عجزه عن مسايرة الكشوف العلمية الباهرة وقصوره عن اللحاق بمعجزات التقدم العلمي ، فالعلم يزحف ويتقدم وينهك أعمق لأسرار ويفك أصعب الطلاسم ويتحدى أسطورة المجهول ، والفن — ابن الوجدان — يزداد ضموراً وتضوياً وشحوباً .. العقل يتقدم ويكتسح آفاقاً أبكاراً لم تخفق في أجوازها من قبل

أجنحـــة نسر ، والضمير ينهصر ويتلوى فوق التراب ، في أرض طرقتهـا الأقدام من غابر السنين ..

يحاول المجددون — إذن — أن يسايروا روح العصر ، وألا يتخلفوا عن اللحاق بالموكب الزاحف ، **وبهذا المعنى تصبح «عصرية الشعر» من أبرز عنـاصر المضمون التجديدي** ، وكأنها استجـابة لصرخة رامبو : « لابد من أن نكون عصريين بصورة مطلقة » ، ويلاحظ الشاعر الناقد الأنكلو اميركي ت . س . إليوت — وهو الأب الروحي لاكثر مجددينا من شعراء مصر والعراق بصورة خاصة — أن ضجة الآلة الـتي تدار بالبترول قد غيرت من الحساسية المطلقة عند الشاعر المعاصر ، والمضمون العصري لشعره يتقرى هذا التغير ويتتبعه ويصوره ! تلك حقيقة العصر ، **والشعر - على حد قول الشاعر الايطالي دومنيكو كادوريس - ينبغي أن يكون محاولة لامتزاج الاحساس الفردي بحقيقة العصر .**

غير أن للعصرية معنى آخر عند بعض المجددين ، ذلك أن هؤلاء لايكتفون بانصراف الشاعر العصري عن القيم التقليدية القديمة الى قيم عصره ، بل هم يريدون منه أن يحمل المعول ليدك تلك القيم القديمة ، بحجة فسادها التـام وحجزها مواهب كثيرة عن الانطلاق في طريق التطور والحياة ، **ومن هنـــا تنقلب (العصرية) حقداً ومرارة وشكاً وحيرة !**

هذه الملاحظة الأخيرة تصدق في إنتاج كثير من الشعر الجديد ، وقصيدة نزار القبـــاني المعروفة **(خبز وحشيش وقمر)** وقصيدة بدر شاكر السياب الطويـلة **(المومس العمياء)** نموذجان رائعان للشاعر العصري المجدد الذى يحاول أن يفرغ في مضمونه الشعري أقباسا من الجمر الملتهب في وجدانه ، وشعلاً من النار التي تفـــح في حناياه بألوان من القلق والتمرد والشك والضياع والتمزق ...

إن نزعة الشك والتمرد في الشعر الجديد لهي أيضاً أثر من آثار التقدم العقلي المعاصر ، فالشك مظهر خارجي لفقدان الثقة في الداخل بالقيم التقليدية القديمة .

* * *

وعندما يقلب الباحث دواوين المجددين العصريين تبرز لعينيه ظـاهرة أخرى وهي **عناية الشعر الجديد باستخدام الرمز ، الرمز الفني البعيد الاغوار الذي**

يزيد الافكار في المضمون الشعري إيحاءً وانفساحاً ، وأداة هذا الرمز عند أكثر المجددين هي **الاسطورة** ، ويقرر بعض النقاد أن المجددين تعلموا من إليوت ـ في جملة ما تعلموا منه ـ استخدام الاساطير والقصص الديني وتحويل كل ذلك الى رموز ، والحق أن الاسطورة اذا تناولتها عبقرية شاعر موهوب تمكنت من أن تجعل منها عملاً فنياً غنياً بمادته ، واستطاعت أن تحول الأسطورة الى رمز . وأن تتخذ من هذا الرمز محوراً خفياً للقصيدة ، وبذلك يزداد العمل الشعري الجديد إشعاعاً وتلألؤاً وإيحاء ...

في شعر المجددين تعبق أنفاس الاساطير الاغريقية والشعبية ،وتعانق ظلال القصص الديني ، ويكفينا هنا ـ على سبيل التمثيل ليس غير ، فليس المجال معيناً على لافاضة والحصر ـ أن نتتبع رصيد الاسطورة والقصة الدينية في قصيدة **(المومس العمياء)** التي سبقت الاشارة إليها ، للشاعر العراقي العصري المجدد بدر شاكر السياب ، ففي هذه القصيدة وحدها قرابة عشر أسطورات وقصص أو إشارات موحية إليها :

- عيون **(ميدوزا)** التي تحول كل من تلتقي عيناه بها إلى حجر !
- غراب **(قابيل)** الذي أرشده ليواري جثة أخيه بعد أن قتله .
- **(أوديب)** الذي تزوج أمه **(جوكست)** وهو لا يعرفها .
- اللغز المرصود على مدخل مدينة **(طيبة)** .
- **(أفروديت)** التي ولدت من زبد البحر وانتقلت الى البر على ظهر صدفة محار .
- الرهان بين الاله والشيطان على شراء روح **(فاوست)** وجسده .
- **(أبولو)** يطارد **(دافني)** ابنة إله النهر الصغير التي استحالت الى شجرة غار ..
- الاساطير الشعبية التي تزعم أن **(يأجوج)** و **(مأجوج)** كانا يلحسان صخور السور ...

إلخ ... إلخ ...

كل هذا دين للأساطير والقصص الدينية في قصيدة عصرية تجديدية واحدة ! ومن أجل شرح رموز الاساطير التي حواها ديوان **(شظايا ورماد)** للشاعرة العراقية نازك الملائكة ، أو التي حوى إشارات إليها ، نجد في آخر هذا الديوان قاموساً صغيراً لشرح كلمات **(يوتوبيا**

Utopia) إلهة القمر عند اليونان،و (**ديانا** Diana) حامية الصيد عندهم ، و (**نارسيس** Narcisse) الشاب العاشق لنفسه ، و (**أبولو** Apollo) إله الوحي والفن ، و (**هياواثا** Hiawatha) بطل أسطورةمن أساطيرهنود الشمال في أميركا ، و .. إلخ ...

ولـكي يتضح لنا كيف يستغل الشاعرالمصري رمز الاسطورة في مضمونه الجديد ، نورد مقطعاً من قصيدة (**رحلة في الليل**) للشاعر المصري المجدد صلاح عبد الصبور ، أسماه :

(السندباد) :

« في آخر المساء يمتلي الوساد بالورق
كوجه فأر ميت طلاسم الخطوط
وينضح الجبين بالعرق
ويلتوي الدخان اخطبوط
في آخر المساء عاد السندباد
ليرسي السفين
وفي الصباح يعقد الندمان مجلس الندم
ليسمعوا حكاية الضياع في بحر العدم

السندباد :

ـ لاتحك للرفيق عن مخاطر الطريق
ـ إن قلت للصاحي انتشيت ! قال : كيف ؟
ـ (السندباد كالإعصار إن يهدأ يمت !)

الندامى :

هذا محال سندباد
أن نجوب في البلاد
إنا هنا نضاجع النساء
ونغرس الكروم للشتاء
ونقرأ **(الكتاب)** في الصباح والمساء
وحينما تعود نعدو نحو مجلس الندم
تحكي لنا حكاية الضياع في بحر العدم ! »

ان الشاعر هنا يستغل أسطورة السندباد الشعبية فيجعل من هـذا المغامر الاسطوري ورحلاته البحرية العجيبة رموزاً غنية بالدلالة والايحاء، رموزاً حية تزيد أبعاد المضمون الشعري عمقاً، وتلونها باشعاعات انسانية فاتنة، ولندع الشاعر نفسه يكشف لنا اسرار استغلاله للأسطورة السندبادية بقوله:

« ان السندباد في رأيي هو رحلة التطلع نحو المجهول، والفنان حين يخرج في رحلة العذاب وراء الخلق هو شبيه السندباد حين يخرج وراء المغامرة، ويعود الفنان من رحلة الخلق المضنية لكي يبسط تجربته أمام قرائه، كما جلس السندباد على باب بيته في بغداد، وتحلق حوله الناس ليطرفهم بأنباء رحلته .. والسندباد كتوم، ولكن لابد له من أن يفضي بسره، وهو يسترجع في ذهنه كلمة القائل: (لاتحدث الرفيق عن مخاطر الطريق !) وكلمة القائل: (ان قلت للصاحي انتشيت ! قال: كيف ؟) ...

ولكن الندامى ـ وكذلك الناس من حول الفنان ـ يرضون بحياتهم الهادئة الطيبة، يرضون بأن يظلوا يضاجعون النساء، ويغرسون شجر الكرم لكي يكون نبيذه لهم دفءاً في ليالي الزمهرير التي يعاني فيها السندباد في رحلته قر البحر، ويقرأون (كتابهم) الساذج البسيط، ويكفيهم أن يسمعوا حكايات السندباد »

لكي يدرك القارىء بنفسه أن وراء السندباد رمز الفنان، وأن وراء مغامراته البحرية صورة لسعي الفنان ومغامراته وراء الخلق والابداع، ينبغي له أن يكون على حظ كبير من الثقافة ودقة الحس ورهافة الذوق ! أما القارىء العادي فمن حقه ـ دون ريب ـ أن يرى في مضمون (السندباد) قبل شرحه طلاسم غامضة تنفره من الشعر الجديد، وألغازاً ضبابية ليس من السهل فكها !

وهنا أصل الى ظاهرة أخرى من ظواهر المضمون العصري للشعر الجديد، وهي ضبابية هذا الشعر وتعمد الغموض والتصعيب فيه .

* * *

لماذا يلتحف المضمون في الشعر الجديد بهذا الحجاب من الصعوبة والغموض فيستعصي بذلك فهمه على اكثر الناس ؟

سبق لي أن عالجت هذا الموضوع في اكثر من مقالة ، وأجدني الآن بحاجة الى أن أعود الى بعض ما كنت قلته في تحليل ظاهرة الغموض في الشعر الجديد .

لكي نلقي الضوء على هذه الظاهرة لابد من ملاحظة جذورها في الشعر الانكليزي المعاصر، فقد بدأت حركة الثورة التجريدية في هذا الشعر تتجه قبل ثلث قرن نحو الخلول والغموض عند امثال (والاس ستيفنس) و (ويليام امبسون) وكان سبب ذلك أن **الشعر كان قد بدأ يغالي في جمع الجزئيات الصغيرة للمشاهد الجمالية ، مدفوعاً برغبة طاغية لتعمد التصعيب ، بغية التخلص من تلك « الاهانة التي تلاحق من يكون مفهوماً !»** على حد تعبير الشاعر ستيفان جورج !

لقد لاحظ النقاد الغربيون هرب ادبائهم من الوضوح الى الابهام والغموض ، ويلتمس **الدس هكسلي** لهؤلاء المتعصبين العذر ، لأن الوضوح صفة ملازمة لمضمون الأدب الشعبي ، **أما الأدب الرفيع العصري الذي يشق طريقه الرائدة الجديدة الى الذروة ، معرضاً عن جميع القيم التقليدية البالية ، محاولاً أن يستشرف المجهول ، فلا يعيب مضمونه ابهام ، فالابهام جزء أساسي من حياة النفس البشرية ، ولا مفر للفنان من مواجهته !**

أحسب أن **ظاهرة الغموض من أبرز خصائص الشعر الغربي الحديث ،** ويعد إليوت في طليعة المتعصبين حتى إن شعره لاتتذوقه غير النخبة المختارة ، وكأن هذا الشاعر العصري المجدد أحس بما يعانيه الناس من صعوبة في تفهم شعره فحاول في مقالة له من كتابه (**مختارات نثرية**) أن يحلل هذه الصعوبة ويدافع عنها ، وقد انتهى الى أن من جملة اسباب الصعوبة «**الجدة**» وعجز القارىء عن فهم هذا الجديد وتذوقه ، أو توهم القارىء بأنه مقبل على قراءة شعر بالغ الصعوبة !

غير أن هذه الفلسفة للغموض في الآداب الاجنبية المعاصرة لاينبغي لها أن تحجب عن أعيننا حقيقة الظاهرة في تجارب شعرنا الجديد .

أود أن اكرر هنا فقرة من مقالة لي قديمة عرضت فيها لضبابية المضمون عند المجددين فقلت فيها :

« أخطر مايعانيه الشعر الجديد ـ في اعتقادي ـ تلك **الضبابية الخانقة التي يرى فيها كثير من القراء باباً موصوداً يخفي وراءه اشباحاً عجيبة يستعصي فهمها**

عليهم ، فيضجون بالشكوى من غموض الشعر الجديد ويتذمرون من ضبابية مضمونه ... أنا أعلم أن هذه الظاهرة عامة في كل ألوان الفنون العصرية الاخرى من موسيقى ورسم وتصوير ونحت وغير ذلك ، وأن تفسيرها مرتبط بانتقال الصورة الفنية في كل هذه الفنون من خارج الانسان الى داخله ، من التعبير الحسي الواضح عن الظاهر ، الى التعبير النفسي المبهم عن الداخل ، من الموسيقى الصاخبة التي تهز الاذن ، الى الموسيقى النفسية الخفية الهامسة التي تهز النفس ... كما أنني أعلم أن هذه الضبابية هي صورة للقلق العـــام الذي تحسه الانسانية في عصرنا دون أن تستطيع التعبير عنه ، لأنها تحسه احساساً ولا تراه .. أنا اعلم كل هذا ، ولكنني موقن أيضاً أن ضبابيـــة الشعر الجديد أثر من آثار اضطراب الحركة التجديدية وهي تتلمس الطريق نحو هدف مستقر ثابت ! »

الحق أنه يجب أن نفرق بين لونين من الضبابية : الضبابية الموحية الغنية والضبابية العمياء الفقيرة .. الاولى لون من التلوين النفسي لاتقدر عليه الا ريشة الفنان المتمكن الاصيل ، فالغموض هنا نبع الخاطر ، يختزل القوى الكامنـــة وراء الالفاظ استغلالاً كاملاً ــ على حد تعبير الشاعرة المجددة نازك الملائكة ــ ويوحي بحالات وجدانية ونفسية بعيـدة الآماد والاغوار ، يعجز عن ادراكها الوضوح ، وأما الضبابية العمياء الفقيرة فهي وليدة العجز والتجارب الفطيرة ، والفكر المراهق البعيد عن النضج والعمق والاختمار ..

« ومن شرائط النصفة » كما يقول الجرجاني ، أن نعترف بأن جانباً ضخماً من الغموض الضبابي الأعمى في المضمون ، في تجـارب الشعر الجديد ، مرده الى جماعة من المزيفين ، اندسوا في صفوف الموهوبين ، وكل بضاعتهم ــ كما لا أمل أن أقول ــ ثقافة فكرية هزيلة ، ومفهومات مهوشة لم يحسنوا استخلاصها من مصادرها من الآداب الاجنبية الاخرى ، ومواهب (عجزة) يعوزها الكثير من التجربة والصقل قبل أن تسفر عن وجهها للناس !

أما الغموض الفني الموحي الذي يتمثل في كثير من نماذج الشعر الجديد فهو ميزة فنية تزيد أبعاد المضمون سعة وغنى وعمقاً ، وتضفي على المضمون غلالة من الابهام والتصعيب ، وتلك سمة من سمات (العصرية) التي يحرص كبار المجددين على توفرها في مضامينهم الشعرية الجديدة .

* * *

آخر عنصر أرصده من عناصر المضمون العصري في الشعر الجديد يكمن في ميل الاكثرين من المجددين الى (الالتزام) والفكرة الشعرية الهادفة ، حتى ان نزاراً القباني ،

شاعر اللهو والمرأة والحب والأشواق والآهات، لم يخل ديوانه الاخير (**حبيبتي**) من ميـل ظاهر الى العناية بالناحية الاجتماعية من حياة المرأة، ويعلل الناقد (ايلي الحاوي) ذلك بأنه قد يكون انقياداً لتيار الأدب الملتزم!

ترضع قضية الالتزام في الفن المعاصر من نقطة (**المسؤولية**) والشعور بها، وعند هذه النقطة تشتبك خطوط مدرستين مختلفتين فكريتين: **مدرسة العالم الاشتراكي التي تعد الاديب (مهندس النفس البشرية)** كما يقول مكسيم غوركي، وتضـع على كاهله حل (القضية الاجتماعية) وتنكر عليه الحق في الانعزال و (التقوقع) الذاتي..

والمدرسة الوجودية السارترية التي تمنح الفنان استقلاله الذاتي وحريته، ولكنها تعده مسؤولا مسؤولية مباشرة عن كل مايصدر عنه..

أنصار قضية الالتزام في الآداب الاجنبية يؤمنون بغاية الفن الاجتماعية فلولاها لكان الفن رفاهية يمكن الاستغناء عنها. إن للفنان رسالة كبيرة عليه أن ينهض مبشراً بها في مجتمعه؛ يقول (والت ويتمان) شاعر الديموقراطية الاميركي: «**إن زمن القسس قد ولى، وعملهم قد انتهى.. ان الشعراء هم قساوسة المستقبل!**» وكتب الشاعر الايطالي دومنيكو كادوريس: «**على الفن أن يتسلح اليوم بالمعول والرفش... يجب أن نكشف للناس عن سر بؤسهم وآلامهم وأن نواسيهم بأحاديث تدفعهم الى الخلاص**».

أما عندنا، في عالمنا العربي، فقد انطلقت الدعوة الى الالتزام من إحساسنا بالمسؤوليـة وشعورنا بها.. انطلقت من ضميرنا المستيقظ بعد حرب كونية ونكبة قومية رهيبة هزت أعماق الوجدان العربي.. فهناك — اذن — **خيوط تربط الدعوة الى الالتزام في مضموننا الادبي بنكبتنا القومية في فلسطين، وكل تجاهل لهذه الصلة بين النكبة واثارة الدعوة الى الالتزام يبعدنا عن فهم القضية فهماً واعياً..**

الشعراء المجددون عندنا أفراد عصريون موهوبون من جيل النكبة، وهم يدركون أن أمتهم تخوض منذ عام ١٩٤٨ معركة الفناء أو البقاء، وأن الالتزام في الأدب العربي المعاصر، شعره ونثره، من أمضى أسلحة المعركة، **وهو بهذا المفهوم ضرورة قومية لاجدال فيها**، وليس من صالح العرب اليوم أن ينظروا الى الادب على انه متعـة عابرة يلهو بها الانسان، أوفن رخيص لاغاية له سوى الامتاع!

وهل علي هنا أن أكرر ما كنت بسطته في أكثر من مقالة وحديث ، من أن **الالتزام غير الالزام** ، فالالزام فرض من الخارج وإكراه للأديب كي ينقلب صوتاً (**ببغاوياً**) هاتفاً يردد في استسلام خامد ماترردده الجوقة ، ويقتل كل نبرة للتمرد أو رغبة في الخلق الفردي المبدع ، أما الالتزام فهو أن يوصي الانسان نفسه من داخله ، وبدافع من ضميره وقناعته ، بأن يقف من قضية ما موقفاً معيناً ، دون فرض أو إكراه ..

من الذي ألزم نزاراً القباني أن ينصرف في قصائده الملتزمة الثلاث (**صوت من الحريم - الحب والبترول - جميلة بوحيرد**) من ديوانه الاخير (حبيبتي) عن المرأة الغريزية ذات الجسد الأكول والشهوة المولولة العارمة ، الى المرأة الوجدانية ، المرأة الانسان التي ترتفع فوق نداء جسدها وعبودية غريزتها !!

من الذي ألزم نزاراً أن يضيف الى المرأة ، في هذه القصائد وأمثالها ، معاني النضال والتمرد والكرامة والبطولة ، وأن يجندها في سبيل المعركة التي تخوضها أمتنا للخروج من ليل المحنة ، والتخلص من نير التقاليد الجائرة ، وحكم الاقطاع والاستعمار !!

إن أحداً لم يلزم نزاراً من الخارج ، ولكنه **صوت الالتزام من الداخل** ، هو الذي لفت شاعر الحب واللهو والمرأة الى أن للمرأة في مجتمعنا العصري اليوم وظيفة كبيرة ورسالة إنسانية جليلة ، وأن المرأة لم تخلق للحب والمخدع وحدهما .. إنه الالتزام الذي صرف الشاعر نزاراً عن مغامراته الليلية وراء (كل الحلوات) اللواتي كان يغني لهن بقيثارته الفاتنة تحت الشرفة :

أنا شاعر حب جوال   تعرفه كل الشرفات

تعرفه كل الحلوات

عندي للحب تعابير   مامرت في بال دواة!

إنه الالتزام الذي يصرف الشاعر عن مغامراته الغرامية العابثة ، لكي يقضي ليله كله في السجن الحربي بوهران ، أمام الزنزانة ذات الرقم ٩٠ ، حيث وقفت البطلة الجزائرية السجينة **جميلة بوحيرد** صامدة هازئة تتحدى وحشية جلاديها العتاة :

« الاسم:

جميلة بوحيرد

رقم الزنزانة تسعونا
في السجن الحربي بوهران
والعمر اثنان وعشرونا
عينان كقنديلي معبد
والشعر العربي الاسود
كالصيف ، كشلال الاحزان

• • •

إبريق الماء . . وسجان
ويد تنضم على القرآن
وامرأة في ضوء الصبح
تسترجع في مثل البوح
آيات محزنة الارنان
من سورة (مريم) و (الفتح) »

وهكذا نجد اكثر المجددين يسكبون في مضمونهم الشعري عصيرا اجتماعياً ملتزماً ، وقد أخافت هذه الظاهرة أعداء الفكرة الشعرية الملتزمة ، فأعلنوا أن الالتزام خطر رهيب يهدد بطغيان الساسة على الادب ، حتى ليصح قول (درنكو ووتر) : « إن الانسان قد اصبح تحت ضغط الاحداث حيواناً سياسياً !! » ونعى آخرون على الالتزام أنه يخرس صوت الذات الفردية ويكبت شعور الاديب الشخصي ليطلق على لسانه صوت النفاق !

وقال الطيبون من اعداء المضمون الملتزم : ما الحاجة الى الالتزام ، والاديب حين يغني نفسه انما يغني كل نفس انسانية . . ألم يقل غوته : « كلما تعمق المرء دراسة نفسه كشف عن نفوس الآخرين ! »

والحق أن كل هذا العداء للمضمون الملتزم نابع من فهم ملتو لقضية الالتزام ، فالمضمون الملتزم يعني أن لصاحبه في فنه موقفاً معيناً من الحياة يلتزم به ، فهو لايستعير مضمونه

من رغوة الاحلام الرومانسية وفورة الاماني الغنائية ، وهو لاينطلق لسانه بعطاء منحرف يمثل الضياع واللاوعي والفضيحة والشهوة المسعورة والشذوذ وتعرية الكلمة وسفورها الجنسي المتحرق !!

إن القصيدة الملتزمة المضمون هي تجربة متكاملة معاشة – كما يقول بعض النقاد – **وهي هادفة الى غاية حقيقية** : ففي تجارب المجددين العصريين من شعرائنا الملتزمين نشاهد عرضاً لقضية الوجدان العربي ، وقضية التخلف الحضاري عن الركب العالمي ، ومواقفنا المختلفة من التقاليد أو من تيارات الحضارة الغربية ، كما نشاهد صورة لكفاح أمتنا ونضالها للاستعمار والصهيونية الباغية وعملائهما في بلادنا .. وبهذا كله يعكس المضمون الشعري الملتزم صورة لازيف فيها عن واقعنا العربي ، ويبلور امانينا وأهدافنا القومية الكبرى ، ويصور تشوقنا اللاهث المتطلع نحو غد عربي متحرر موحد مجيد !

* * *

وبعد ..

فهذا عرض تحليلي خاطف لأهم عناصر المضمون في شعرنا الجديد ، حاولت أن أبرز فيها تعلق المجددين بروح العصر ، ويجب أن أعترف بأن تحديد هذه العناصر لايتوفر له الشمول ، لان تجربة الشعر الجديد ماتزال الى اليوم في دور التكوين والتخمر ، وسيظل المضمون العصري عرضة للتغير والتطور لامد ليس بالقصير ، قبل أن تستقر له صورة مكتملة الملامح واضحة الابعاد !

الأدب اليوناني و كازنتزاكي

للمطران الياس معوض

الادب اليوناني الحديث ادب ثورة وجدانية ، يصور أعمق ما في النفس من خلجات ، ويطرح المشكلات الفكرية التي تشغل العقل وتسهم في تطور الانسان الحضاري روحياً وفكرياً . والادب اليوناني الحديث ادب صاغه العذاب ، وكتبه الالم ، ونشرته حرية اشتريت بالدم . انه أدب امة سحقت عظامها رحى الحقد والكراهية ، ومرغت وحول الصلف والعتو كرامتها الفكرية والروحية والوطنية ، وعقل الباطل الاسود جناح حريتها واحرقت غرسات خيالها نار المطامع ، ونهشتها انياب الفقر ، ولبس جسمها اسمالاً بالية : فلا نهارها المشرق بنهار ولا ليلها الحالم بليل ويستوي الليل والنهار في عيون العبيد .

دموع تذرف في الظلمات فتأسو الليالي، وزفرات يصعدها الصدر لينشرها الريح انغاماً حزينة على اوتار اوراق القصب ، وعيون تحدق الى البعيد البعيد تستجدي الرحمة فلا الرحمة تستجيب ولا البشر يفهمون ما تعنيه عيون ضارعة مسترحمة. لا يفهم المعذبين الا المعذبون ولا يترجم معاني الدموع المتألمة الحاقدة الا الذين يسكبون الدموع. أيفهم الطاغي عذاب الذين فقدوا حريتهم ، أيفهم ما تقوله دموعهم؟ ان الطاغي يعرف ان يجثم فوق الصدور ، وأن يشل حركة الفكر ، وان ينقل كل حركة عقلية ، وان يحرم على عبيده رؤية صورة من صور الحرية. إنه كالذئب الجائع يحب الجثث ، وانيابه البيض من عنف الشهوة تحب ان تمزق. وكم مزق وكم طغى وبغى هذا الذئب النهم. انه لا يأكل من زاد الناس بل يلوك كرامتهم حتى لا يشبع ولا يشرب من مائهم بل دمهم حتى لا يرتوي. ولولا هذا القبس المشتعل في قلب النعجة الهزيلة لمات الامل وانتحر الرجاء تحت أقدام الطاغي. ان الادب والشعر يعرفان ان يصورا هذه المآسي

في أعماق هذه الظلمات بقي قبس الايمان مشتعلا كما يقول الاديب كازانتزاكي. وبقيت في الاثداء الجافة بقية من حليب البطولة ترضعها الامهات اطفالها فيكبرون وفي نفوسهم خميرة البطولة كما يقول الشاعر فالاورتيس ، خميرة الحرية ، خميرة الايمان بمقدساتهم التاريخية ، خميرة بمجدهم الفكري الذي ورثوه وأحبوه وأرادوا أن تبقى رايته مركزة في قلب الشمس. ويشتعل القلب بشرارة الايمان، والعذاب والالم كالنيران تزيد الايمان اضطراماً ويدور الصراع ويقف الايمان الاعزل في ساحة المعركة تحتدم. قبور تفتح وانهار من الدم تجري والحرية بثيابها المغمسة بالدم تنطلق مستصرخة الوديان والبطاح والجبال والسهول والبحار والقبور والتاريخ والقلوب والعقول، فتتحرك عظام القبور وتلتهب بالنار، وتغلي مياه المحيطات، وينفتح الفضاء ،

على صواعق مدمرة ،وتتحرك البحيرات،وتزحف الحياة، كدروع للابطال . المعركة معركة حرية ، المعركة معركة حياة ، المعركة معركة الانسان المخلوق بالحرية ليكون حراً وتنتهي المعركة وينهار الصخر وتعبر الموجة العاتية وقد كانت دمعة كما يقول الشاعر . تعبر في شموخ الابطال لتركز رايتها السماوية حيث كان الصخر العاتي يتجبر.

في هذه الحروب الاستقلالية كان الادب القداحة لصوانة الايمان ، والموسيقى المشتعلة بالعزم لبطولة الابطال واللسان الذي تذف النار فاحرق هشيم الاستكانة في النفوس وأهلها ، والعاصف العاتي الذي اقتلع اغراس المذلة من الارواح ،والفكر الذي نقل كل امجاد الماضي وسكبها عنفاً في الشرايين ، والخيال الذي وشح الاجساد بالاساطير ، والعقل الذي فتح باب الحضارة الحديثة لتدخل انوارها الى تلك السراديب حيث عشش الجهل واختنق الضياء .

كان الادب اليوناني في بدايته أدب ثورة استقلالية الهب النفوس ثم صار ادب ثورة فكرية وجدانية ، والادب ثورة دائمة ، ثورة على الانغلاق الفكري ، ولا معنى للادب في عالم مقيد الجناح .. ثورة على مستغلي الحياة لغاية في النفوس لانهم يشوهونها فيتشوه التفكير .. ثورة على بائعي الحريات بثمن بخس من نفوسهم الرخيصة ولا يقوم الادب اذا كانت الحرية الفكرية والروحية تباع وتشرى ، ثورة على الانسان الذي يستغل الانسان باسم انسانية مريضة : انسانيته . ثورة على الفكر الرخيص الممثل لاهداف البشر الرخيصة ، لاولئك الجالسين في عالم الظلمة يطلقون ابالسة الدمار التي تتحكم في نفوسهم ليشوهوا وجه الحياة وما كانت الحياة مشوهة لولا دنس النفوس الخبيثة .ثورة الادب يثيرها الادب نفسه ،معناه ،وعمقه ، واهدافه ، ومراميه ، ومنابعه . ثورة الادب تثيرها حريته ، وحرية الادب حرية

كيانية تتجمع فيها كل اهداف الانسان المثالية . يموت الادب اذا خسر ميزته الثورية ، والثورة الادبية ثورة صامتة سلاحها منخل لايحتفظ إلا بالدر والجوهر ، ثورة الادب ثورة أزلية حتى تحقق صفاء الادب ويصبح مبدعاً في ذاته ومكان الابداع العقل والقلب لسمو لايعرف الانحدار والظلمات،سمو يسمو الى الاستقرار النهائي في المعرفة والحقيقة .

ليس الادب بضاعة تباع وتشرى في الاسواق . هذا مس بالادب ذاته من حيث رسالته . ولا عواطف واهواء محمومة ونزوات طائشة تخدم مصالح الافراد والجماعات . الادب تعبير للعجب الكامن في اعماق النفس ، تعبير لما هو فوق الانسان مادة ، لاعطاء معنى للمادة . انه الفكر النابع من اعماق الذاتية الالهية التي فينا لتحرير الانسان من عنف المشاعر المدمرة وعتقه من ظلمات الفناء العاصفة في هيكله . انه الروح الحالمة في هيكل الحرية والخاشعة في قدس المحبة . انه حياة الانسان المجردة من كل انانية وغطرسة ، وطموح يغني وطمع يسوّد النور . انه الحقيقة التي يسلكها الانسان وينتهي اليها مطافه ليعيش حراً جميلاً تحت شعاع شمس الحرية الناعم . والادب معركة . معركة بين الحق والباطل ، بين الفكر واللافكر ، بين النور والظلمة وتقرير مصير الادب مرتبط بارادة الانسان ، بايمانه ، بقوة الكفاح الارادي من اجل هذا الايمان ، بادراكه لسر وجوده والغاية من هذا الوجود ، بانفتاحه النير على ذاته الحقيقية . وانفتاح الانسان على ذاته بالمعرفة ، انفتاح على المعرفة الكلية ، انفتاح على العالم الالهي الذي يكشف الحقيقة كشفاً للمؤمنين فكلما توغل الانسان في عالم المعرفة اقترب الادب من حالة الكشف . فالادب صورة حية وتعبير صادق عن نمو الانسان الروحي وتحديد للمدى الذي بلغه في طريقه الى الحرية والحق . ومن هذه الحقيقة نبعت وجدانية الادب اليوناني الحديث.

عندما كان الادب في صراعه مع البطل كان نيكوس كازنتزاكي لما يزل في احضان الغيب وعندما اخذ الادب اليوناني يركز قدمه في وطنه بعد غربة طويلة كان الاديب اليوناني الكريتي يرسل اول صرخة في وجه الحياة. وعندما فتح عينيه على مايجري ويدور حوله، رأى شعاع الشمس يبكي كآبة كما يقول في كتابه « الكابتن ميخالي »والسماء ملبدة بالغيوم التي لا تمطر ،والنسيم المنتاج الذي يغازل الورود والازاهير محمل لا بأرج الورود بل بالروائح الكريهة التي يتقيأها الطاغي في سكره ومجونه . والربيع الذي يمثل وجه الحياة النضرة لايختال ضاحكاً بل يتمايل كئيباً ، والبحر ، هذا المدى البعيد للخيال ، يلوح محدود الافاق ولا يوحي الا بما يشجي . امواج تتلاطم امام عيني الفتى ، تتلاطم فوق صخرة الظلم والظالم الهازيء الماكر لا يلين ولا تحركه اناشيد الموج الحزين. وتتعاقب اندفاعات الامواج ، موجة تلو موجة ، وتتكسر تحت اقدام الصخر اشلاء من الزبد القاني . ان شعباً يريد حريته وحقه فأين هي الآذان تسمع . اين هي النفوس تتحرك ، واين هو الانسان يهدي الانسان الطاغي ويعلمه معنى حقيقة الوجود .

كل شيء يحرك روح الاديب بالثورة . كل شيء يعذبه ويؤلمه . وطنه مستعبد وابناء كريت يموتون بسياط الجلادين . الثائرون في كل مكان اتستطيع العين ان تقاوم المخرز ؟ انهم يؤمنون بانهم سيغلبون بايمانهم لانهم يحاربون من اجل قضية عادلة . لقد اراد القدر ان يحملوا على اكتافهم ثقل مسؤولية الحرية . لقد كتب عليهم ان يشتروا حريتهم بالدم . وماذا اذا اشتروها؛ اليس الموت افضل من حياة رخيصة يرون فيها الموت في كل لحظة ؟ الا يفضل الموت على حياة لا كرامة فيها ولا قيم ؟ كان كازنتزاكي يرى هذه اللوحة ومثلها لوحات في تاريخ وطنه ، يراها فيتألم ويعض على شفتيه حنقاً . انه لا يستطيع ان يفعل

شيئاً فعظامه لما تزل رخصة ويعيش مع خيالاته وتصوراته ويرسم لوحة لوطنه في خياله . ان الحياة لا تقاس بالزمن ، **والتاريخ لاتعبر عنه القوة بل الفكر حتى ولو كان مطموراً** ، على المرء ان يعمل ليكشف حقيقة تاريخه حتى ولو كان تاريخ مذلة . عليه ان يكافح القدر وان يتغلب عليه والفكر المؤمن اقوى من المستحيل . وينكب كازنتزاكي على الدرس ، والمطالعة ، فيقرأ نيتشه ، ويقع تحت تأثيره ، ويتصور تحت تأثير هذا التفكير انه سيصبح الهاً ويترجم الادب الغربي وينقل الادب اليوناني القديم الى الادب الحديث ويتابع دروسه في الجامعة وينهي دراسته في القانون . انه مؤمن بعبقريته ، مؤمن بامكاناته . انه يريد ان يسام في عملية الخلق في العالم الادبي ،ان يسام في بعث وطنه الفكري بعثاً يتناسب مع تاريخه.

بهذه الارادة القوية التي تغلبت على الفقر والفاقة ، وبكل ما اختزنه في اعماقه من صور للحياة مؤسية شق كازنتزاكي طريقه في عالم الادب فاتجهت اليه الانظار كاديب ثائر على الاوضاع الاجتماعية ، اديب لا يقبل المساومة وانصاف الحلول فالقضية قضية حياة او موت ، حرية او عبودية ، نور او ظلمة ، ادب او لا أدب. **ان الادب هو الوجه الحقيقي للوطن وهو القوة التي تحركه نحو الاعاجيب.**

كان كازنتزاكي يستهدف في ادبه تحقيق اللوحة التي رسمها في خياله لوطنه كما يقول في قصيدته « وجيا اليونان » كان يريد ان يجعل منها هذه القاعدة لعالم مثالي . انها الحرية التي يحبها . لايحب كازنتزاكي « الاهواء ولا البطولة العمياء ، ولا المالقة المكفوفي النظر ولا العقول الممزوجة بتراب الأرض ولا أفكار المتأدبين الحومّة فوق المستنقعات . يحب زهرة الحرية المتضوعة بأرج الحرية . يحب معارك ميسيلونكي التي اشعلت الظلمة وحولت مرابض الوحوش الى حدائق يصفق فيها الحمام ويطن النحل . يحب الصراع . يحب صراع اليونان واليونان في صراع دائم

منذ ثلاثة آلاف سنة. تقبض على راية النصر وهي على شفير الهاوية مضرجة بالدم

« هنا عظمة اليونان »

كان كازنتزاكي مفكراً عميقاً وشاعراً حالماً ومصوراً بارعاً ونقاداً عنيفاً. اذا نقل شعر الاقدمين ابدع، واذا ترجم الادب الغربي أجاد، واذا عالج فن المأساة عالج عمقها. لا يندفع وراء خياله، ولا يترك عقله العوبة بيد اهوائه. انه يعرف ان يكبح جماحه. اذا كتب عرف أن يختار الصور التي تكشف عما يريد، والتي تدخل الى حيث يريد، واذا أراد أن يريك طريق الحرية، اسمعك رفيف جناحيها، وأراك نورها ينساب الى روحك، وارادتك، وحرارتها تداعب شرايينك بدفئها. لقد شق الاديب طريقه فوصل الى قمة مجده في وطنه، فاحبه الاحرار من ادباء اليونان، وقدرته الطبقة الكادحة، وصفقت له. لانه كان أصدق من مثل احلامها وامانيها، وعبر عن خلجات وجدانها، وخافه الادباء التقليديون العائشون في كلاسيكيــــة الادب. وبقفز كازنتزاكي من حدود بلاده الى المحيط العالمي الواسع الى منتدياته الفكرية، ومكتباته، وادبائه فيحاضر، ويناقش، ويفرض ارادته، وتترجم كتبه الى اكثر اللغات، وينال جائزة مؤتمر السلام العالمي، ولا عجب اذا احتل الاديب كازنتزاكي هــــذه المكانة الفكرية في عالم الادب. فكازنتزاكي هو ابن لتاريخ عظيم، ابن الاساطير والنور والغار، ابن الفكر الذي فرض نفسه على الانسانية قديمها وحديثها، ابن الحرية التي خرجت من عظام القبور، ابن الشعر الثوري الذي الهب النفوس، ابن العناد الثوري الذي صمد من اجل الحصول على حريته، وقال كما قال الشاعر فالاوريتس **«في ثباتي على حريتي تتحقق حريتي وحرية الاخرين»**، ابن ذاته التي عاشت في حرمان من الحرية، والتي رأت الدم يجري من اجل انعتاق وطنه وتحرره، ابن ثورته العميقة على المجتمع

الذي يدوس كرامة الانسان ويدنس حرمته . لاعجب اذا انفتح قلب كازنتزاكي ليصوغ مافيه من المخزنات المؤسية صوراً للمآسي لاتثير في النفس الكراهية لقساوة الانسان وبغيه وطغيانه فحسب ، بل تنقلك من الكراهية الى مفهوم يوجهك الى انسانية الانسان لتقدسها . لاعجب اذا صاغ هذه الاناشيد العميقة التفكير ،العذبة العاطفة ، الجميلة التعبير ، القوية المعنى ، والمنيفة الغاية لهدف سام مقدس . ويصعد كازنتزاكي في الجبل دون ان يتوقف عند السفوح فيصل الى قمة اولمب آلهته . ومن هناك يشرف على الانسانية ، على وطنه فيحدق اليه وطنه كقمة فكرية جديدة من قممه ويحدق كازنتزاكي اليه ليراه على صورته الحقيقية ، تطاحن على الرئاسات ، تطاحن من اجل الارض ، وانقسامات داخلية تهدد انسانية الانسان وكرامته ، ومفاهيم ضيقة للحرية ، وضرب الحق بالحائط من اجل مصالح رخيصة والانسان يبقى المعذب الوحيد الذي لايؤبه له .

يحمل الاديب كازانتزاكي رجال الدين مسؤولية العبث بمفهوم الحرية ، وينتقدهم بقسوة ، ويعتبرهم مسؤولين عن هذا التطاحن الطبقي القائم في وطنه . فالمسيحية التي يحملون رسالتها لاتفرق بين السيد والعبد ، ولا عبيد في المسيحية بل احرار بالايمان . ولا تقبل التحكم ، ولا تقف من النفوس موقف الديان العاتي . المسيحية دين محبة ، واخاء ، وحرية . دين عدالة ، وغفران ، ورحمة وتسامح ، دين تضحية ، من اجل خلاص الآخرين ، دين العزاء للمكلومين ،وقوت للجياع ، وماء للعطاش الى التقوى والبر . دين الفداء للحرية ، دين الخبز الذي يعطى للبشر فيذوقون لذة الحياة ، دين القوة الذي يقف في وجه الطاغي ليقوده الى العدل ، دين الوقوف الى جانب الضعفاء حتى يحصلوا على حقهم في الحياة ، دين المساواة بين العبد والسيد بالمحبة والحرية . **ان رجال الدين تركوا اقدس ما في الناموس**

وصاروا ناموساً لانفسهم ، تركوا المحبة ، والفداء ، والتضحية ، ومحبـة القريب ، ليعيشوا على هامش الحياة التي تكفل لهم سلطاناً ارضياً مع انمعلمهم يقول ان ملكوتي ليس من هذا العالم ، والعالم يكون له اذا حوله الانسان بحريته ملكوت حرية . انهم فضلوا سهولة الحياة القائدة الى الدمار على الحياة التي تبتدي بالعري بالتمزيق « بالصلب لتحقيق القيامة » كما يقول في إحدى قصائده . ويطرح كازنتزاكي ثقل تفكيره في الميدان ، ويدعو الى المسيحية التي تفاعلت تاريخياً مع النفوس وخلصتها في احلك الظروف . يطرح شعاراتهـا كاساس لنهضة روحيـة للكوت إنساني حر ويهاجم من يشوه هذه الشعارات . فيثور من هوجم وهـدد سلطانه ويصفق المفكرون والبسطاء في الايمان ، يصفقون لأن الاديب تجرأ على طرح المشكلة التي تئن منها اليونان وتسبب هذا الصراع الطبقي وما كانت المسيحية ألا عدوة الطبقات . لقد طرح الاديب المشكلة وقدم الحلول انها الثورة والقلب . الثورة على الاوضاع القائمة وقلبها لتسود الشعارات الخالدة : الحرية المحبـة العدل والمساواة والايمان بالانسان .

ان كازنتزاكي يعرف مايعانيه مجتمعه من علل ويعرف الدواء ، يعرف ان الدين يستطيع ان يحل المشكلة ، ان يقيم الاموات فكرياً اذا صار له من يحمله الى النفوس على حقيقته . يعرف انه اذا تحقق تفاعل بين مضمونه ، وبين الكيان الذي حفظه نقياً حتى في أحلك الظروف يستطيع ان يغير الواقع المتأرجح بين الشك واليقين ، وان يعيد للانسان اتزانه الداخلي ويحول انظاره نحو الهدف المخلوق له . ويطلع كازنتزاكي بكتابه « المسيح يصلب ثانية » ليصور مايعانيـه المجتمع من جراء هذا التطاحن السري القائم بين المسيحية بمعناها الانساني والالهي العميق وبين مفهومها السطحي الذي يدين بها رؤساؤها ، بين اولئك الذين يرون

في المسيح ذكرى لمأساة وبين الذين يرون فيه وجوداً حقيقياً يعيش ويملك بينهم بالمحبة والعدل والحق .

ان كتاب «المسيح يصلب ثانية » يصور الصراع الحاصل بين الخير والشر ، بين المحبة والكراهية ، بين الحرية والعبودية يصور الصراع بين الطبقات ، صراع العدالة بين من يفهم العدالة كقانون جاف وبين من يفهم العدالة كقانون جوهره العدل والمحبة ، بين من يحمل صليبه ليسكب دمه فداء عن كثيرين ، فداء عن البشر من أجل حريتهم وبين من يحمل صليبه ليصلب لا شهواته بل حرية الآخرين لتبقى له مطامعه وكبرياؤه لينتصر الشر الى حين ولكن الغلبة الأخيرة للخير . لقد حرك كازنتزاكي كوامن نفوس مجتمعة لقد استجابت الى الدعوة وليس الدوي الذي سببه هذا الكتاب في المجتمع اليوناني على اختلاف مذاهبه وتفكيره الا الدليل القاطع على التأثير الذي كان بسبب افكاره الثائرة بحق وعدل . وكان الأدب ينتظر مثل هذا الكتاب وخصوصاً اذا كان الكاتب مثل كازنتزاكي .

في كتاب « المسيح يصلب ثانية » يعطي الاديب القضية الدينية مضمونها الميتافيزيقي . ان الدين يهذب ويروض ويردع ويزجر . يهذب النفس ويروض الارادة ويوجهها ، ويردع عن الاهواء كمرض يشل حركة الارادة ، ويزجر عن المعاصي لانها تتنافى مع طبيعة المعرفة والحق والحرية . كل هذا للحفاظ على الصورة الالهية والآية نقيتين ليبقى تفاعلها في خط مستقيم يضمن للانسان سلوكاً بالحرية الى الحياة الحقيقية . وكل مايتم في الحياة الاجتماعية هو نتيجة لعمل الصورة الصامت . وكل ثورة فكرية واجتماعية مصدرها هذا العمق الذي يريد ان يحقق ملكوته . وملكوته هو الخالد . ولا وجود للحضارة لولاه ولولا يقظته الدائمة حباً بالانسان .

لقد تصور الادباء كازنتزاكي بعد ان نشر كتابه المسيح يصلب ثانية أنه قد

انهى رسالته ولكن هذا الاديب العملاق لا يعرف الوقوف . فما دام على قيد الحياة فالانسان يشغله ، يشغل فكره وعقله وروحه . في قلبه كنوز كثيرة وفكره لما يزل يحب المستحيل ويطارده ، يريد وهو في الشيخوخة ان يسجل تلك المآسي التي سجلها عقله الباطني ، تلك القصص البطولية التي قام بها ابناء وطنه كريت من اجل حريتهم واستقلالهم . وفي غمرة من التذكارات ، والانسان يحن الى ماضيه مهما كان هذا الماضي ، وفي شيخوخة سكب عليها العمر كل ثلوجه بعد اصياف حارة من العذابات والآلام ، يقفز حلم الطفولة ، تلك اللوحة التي تخيلها الى فكره وارادته ويقرر ان يكتب تاريخ كفاح جزيرته في ايام الكابتين ميخالي ليكون شاهداً في التاريخ على قساوة الانسان وبطولة الانسان المؤمن بحريته وحقه . لا يريد ان تبقى هذه الحقائق في عالم سره . انه لا يملك هذا الحق . انها ملك وطنه ، ملك تاريخها ومن ككازنتزاكي، من غيره يستطيع ان يصور مآساة وطنه من عذاب وشقاء ؟ وينكب الاديب على الكتابة ، يكتب عن الارادة وعن قبس الايمان، عن الموت والقيامة ، موت الانسان في سبيل الحرية ، ليحيا الانسان وتحيا الحرية، ويموت الطغيان بما تطعمه الحرية من جثث تحترق بالنار وينشر كازنتزاكي كتابه « الكابتين ميخالي » فتصفق له الاوساط الادبية . انه الياذة الادب الحديث ، الياذة كريت ، الياذة قبرص، الياذة كل انسان يحب حريته ويكافح من اجل الحصول على هذه الحرية .

الحرية او الموت هذا هو محور الكتاب ، لا حياة ولا معنى للحياة بدون الحرية . وما هي الحرية ؟ انها الخير كل الخير . والخير لا ينال مجاناً . لا يحتاج الى صراع وكفاح ، لا يعطى بل يغتصب اغتصاباً والغاصبون هم الذين لا يعيشون لنفوسهم بل للانسانية ولا يرون مالهم بل ما للآخرين من حق في الحياة،

الناصبون هم الذين يسفكون دمهم في سبيل القضاء على العبودية التي تتحكم بمصائر البشر والذين اختارتهم الحرية ليكونوا تعبيراً عنها ومقراً لانطلاقها ، فقضية الحياة هي قضية حرية ، بها تأخذ الحياة وجوداً ومعنى وبدونها يبقى الانسان هذه الفتيلة المدخنة بالاهواء المظلمة .

يقول كازانتزاكي في داخلنا قوة فوق قوة الانسان . وكل انسان مسؤول عن اعماله . والحياة هي ملك لاولئك الذين التهبت نفوسهم بطلب المستحيل . على الانسان أن يضع المستحيل نصب عينيه والا يصغي لما يقوله المنطق فالمنطق عاجز عن فهم السر الكامن في أعماقنا المجترح للاعاجيب . فالشعب اليوناني مدين لهذه الشعلة المباركة التي لا تنطفيء . انها تشتعل في الوقت اللازم . في هذا العالم السري من النفس يقوم الخالد في الانسان ولولا وجود هذا السر لاندثر العالم منذ آلاف السنين »

في داخلنا سر عظيم في داخلنا شوق للحرية . ان الكابتن ميخالي يعرف ان يحقق هذا الشوق . يحققه في الموت من اجل الغاية الكبرى . انه يموت وهو ينادي بحرية وطنه ، انه يندفع ليخلص رأس ابن اخيه فيمسكه مقطوعاً ويرفعه كراية للجهاد . ويرفعه الى فوق وينادي الحرية ... وقبل ان يتمكن من ترديدها ثانية تصيبه رصاصة في فمه فيسقط قتيلا ويبقى رمزاً للحرية المناضلة .

ان كازنتزاكي في كتابه الكابتين ميخالي يعيد الى الادب اليوناني ادب الملاحم . وفي كتابه « المسيح يصلب ثانية » يفتح طريقاً جديداً الى مجتمع جديد يقوم على مفهوم روحي وحرية فوق قوة الانسان تقوم في اعماق الانسان . وفي الكتابين يعبر تعبيراً حياً عن نظرته الشاملة الى الانسان .

فالانسان في نظره فوق الكون المادي وجد ليطور انسانيته بارادته الى

الحرية الحقيقية الكافية لكرامة الانسان ولحياته العادلة . وانك لتلمح هذاالتفكير في شعره ومآسيه كما تلمح في كتابه النضال الروحي في سبيل تحقيق المستحيل ، هذا الانسان الشامل الكامل ، هذا الانسان الحاوي كل معاني الازل في اعماقه.

وبعد هذا كله ماذا يكون الجواب لو طرح هذا السؤال **ما هو اثر كازنتزاكي في الادب اليوناني الحديث** ؟ ان الادب اليوناني الحديث بشعره ونثره اثناء الثورة وبعد الاستقلال ، وفي تطوره ، وبعد ان اتخذ بعد سنة ١٩١٠ طريقاً وجدانياً يتجمع كله في ادب كازنتزاكي ، وتلمح ذلك في الصور التي يعرضها عليك في كتابه « الكابتن ميخالي » « والمسيح يصلب ثانية » وميزته الاساسية صدقه وتصميمه على جلائل الامور ، صدقه في تفكيره وصدقه في عواطفه . انه يكتب مايؤمن به، وما يعمله صورة لما يؤمن به وفضله على الادب هو فتحه لمجار فكرية عميقة وتركيزه على ان يكون تاريخ امته وفيه الرائع من البطولة مستنداً لكل قلادة فكرية حتى يخلد وطنه وتخلد بطولاته ويبقى وهو مصلوب، محط الانظار بانتظار القيامة من عالم العذاب، وعظمة اليونان في عذابها المجترح الاعاجيب بالايمان

ولد كازنتزاكي في كريت سنة ١٨٨٠ ومات في فريبورغ من اعمال المانيا سنة ١٩٥٧ ونقل جثمانه الى مسقط رأسه كريت .مات وشعاره هذا البيت من الشعر الذي يوجز كل شخصيته « ليس القدر بكلي القدرة بل روح الرجل الحر النقي الذي لايعرف التشاؤم » .





ايليا اهرنبورغ يقول :



ترجمة : حسين حاصباني

عرف الناس منذ زمن بعيد كثيراً من الفنون التشكيلية ، منها فن التصوير ، وفن الرسم أي فن الخطوط ، وأما الرسام فأكثر مايولي عنايته ذلك التأثير الشديد الناجم عن تنافر البياض والسواد . وأما المصور فلا يستعمل أبداً الأسود والأبيض خالصين نقيين. فهو يمزج الأبيض بألوان ومواد حتى وهو يصور الثلج الناصع . وكذلك يفعل بالأسود حتى وهو يصور ثياب الحداد القاتمة السواد . وعلى هذا جرى المصورون جميعاً على تباين عصورهم واختلاف انماطهم ، (فرفائيل) لم يصور بأسلوب فناني بومبيي ، ولم يشبه فن (رامبراند) فن (فان ايك) ، وليس (ماتيس) مثل (بوسان) ، فكلهم مختلفون أزماناً وأذواقاً ، لكنهم متفقون على أن التصوير لايمكن أن يعتبر فناً للخطوط يعتمد على تنافر الأبيض والأسود .

فاذا انتقلنا الآن من الحديث عن الفنون التشكيلية الى الكلام عن الأدب والأدباء . بل عن تشيكوف بالذات ، لرأينا أن أدبه خلو من البياض والسواد الصافيين الخالصين من كل مزج . وقد قيل في تعليل ذلك انه يصور عصره ، وهو عصر كئيب ، باهت ، لا أسود ولا أبيض ، بل بين هذا وهذا ، رمادي الصبغة. واذا صح هذا القول في وصف الشخصيات الحائرة من جماعات المتحررين والمثقفين الذين يضنيهم القلق وترين عليهم الكآبة ، فليس صحيحاً في تصوير الحب ، ولا في تصوير الفن . والحب والفن يعج بهما أدب تشيكوف وتعج بهما دنياه . ولعل الاصح هو أن هذا الكاتب الكبير ، في تقصيه لهذه العوالم التي تزخر بها النفوس البشرية انما كان يستعمل أساليب المصور لا طرائق الرسام .

ومن الطبيعي أن تكون لتشيكوف ما يحبه ويميل اليه ، وما يكرهه وينفر منه ، ونفوره وحبه يظهران بوضوح وجلاء في كتابته . لكنه منصف رفيق فلا يضيف الى ما يحب جمالاً من عنده ، ولا الى ما يكره قبحاً من عنده ، بل يحاول دائماً أن يجد لمحات من انسانية وجمال ، حتى فيمن يكرههم أشد الكره . حتى أن بعض النقاد عابوا عليه هذا الموقف من أشخاص رواياته ، وزعموا انه فاتر قليل الحماس ، وما دروا أنهم هم الفاترون الباردون في موقفهم من الفن الحقيقي .

ولعل أن مثل هؤلاء النقاد خدعوا ببعض آراء تشيكوف نفسه ، فقد قال أكثر من مرة أن الكاتب ينبغي أن يظل هادىء النفس ، صافي الذهن عندما يكتب مؤلفاته ؛ لكن (بونين) قال معلقاً على ذلك : لاريب في أن تشيكوف لم يكن يعني الصفاء والهدوء العاديين ، بمعناهما المألوف ، وإلا ، فكيف يكون هو اكثر الأدباء الروس احساساً رهيفاً ، وتأثراً سريعاً بالأحداث النفسية ؟

وإذا شئنا ، بعد ذلك ، أن نستبين معنى هذا الصفاء الذي يتحدث عنه تشيكوف ، فلن نجد خيراً من أن نعرض لمحتين من رسائل الكاتب الكبير .

وأما الأولى فهو ما كتبه لأخيه ، وهو مازال في التاسعة عشرة من سنيه ، حول قصة (كوخ العم توم) . قال : « لقد سبق أن قرأت هذه القصة . لكني أعدت قراءتها منذ ستة أشهر ، وأنا أنظر اليها نظرة علمية : فما استوفيتها حتى أحسست بالقرف والغثيان ، وكنت كهؤلاء المساكين الذين يصيبهم الغثيان بعد أن يتخموا من أكل العنب المجفف » .. وبديهي أنه لم يحس هذا الاحساس لأنه يخالف الكاتبة في الرأي ، فهو مثلها عدو للرق والاسترقاق . انما الذي أثار اشمئزازه هو الفن الكاذب في القصة ، الفن المصطنع ، المليء بالتفجع :

وأما اللمحة الثانية فما كتبه إلى القاصة الناشئة (افيلوفا) : « ... ثم خذي عني هذه النصيحة أسوقها اليك كأني قارىء عادي : ... عندما تصفين أبطالاً بائسين عاجزين وتريدين أن تستدري عليهم شفقة القارىء وعطفه فكوني أكثر هدوءاً ، أكثر برودا ، فذلك أدعى الى ابراز بؤسهم وشقائهم ..

ويبدو أن (افيلوفا) لم تفهم ذلك . فعاد يكتب إليها بصبر وطول أناة : « لقد قلت لك يوماً أن الكاتب ينبغي له أن يظل هادىء الشعور عندما يكتب المآسي والأحزان . ولكنك لم تفهمي ما قلت . وأنا أعيد عليك أن الكاتب قد يبكي ويتوجع ويتنهد مع الاشخاص الذين يخلقهم . ولكن ينبغي له أن يفعل هذا بلطف فلا يشعر القارىء .

ولا يحسبن امرؤ بعد هذا أن أدب تشيكوف بارد لا يؤثر في القارىء ، فعندما كتب الى أفيلوفا نصائحه كان هو نفسه مكباً على كتابه قصته (الغرفة رقم ٦) . وهي قصة أثارت الشجون في نفوس الالوف من الناس ومازال ، حتى أن لينين نفسه بعد أن قرأها ، وكان في الثانية والعشرين ، كتب يقول : « انتهيت أمس مساء من قراءة (الغرفة رقم ٦) . فشعرت بخوف حقيقي يأخذ بنفسي ، حتى

لم أعد أطيق البقاء في غرفتي ، فقمت وخرجت .. لقد كان يخيل الي فيها أني ، أنا أيضاً كنت محبوساً في الغرفة رقم ٦ .. » واذا كان الامر كذلك ، فهل يمكن القول أن تشيكوف لا يشارك أشخاصه في عذابهم وحيرتهم ، وأن أدبه يخلو من الحماس ؟ إنه يتصور جميع اشخاصه من الداخل ، من داخل نفوسهم ، بل يجعل أكثرهم يروون بأنفسهم قصصهم وذكرياتهم ، سواء أكانوا أخياراً ام أشراراً ، أذكياء أم أغبياء ، عظماء أم تافهين .

ولم يترك تشيكوف فئة من الناس ، أو طرازاً من العيش ، أو نموذجاً من الشخصيات ، أو نوعاً من الطباع الا صوره في مؤلفاته . فيقرأها الناس مرة ثم مرة ، وهم دائماً في عجب من أمر هؤلاء الأشخاص لشدة ما يتدفق فيهم من الحيوية والحركة ، وما يتنزى فيهم من حرارة الحياة الحقيقية : فيهم الأطباء والاساتذة والفلاحون والمفكرون والاغبياء والمغرورون ، وفيهم السيدات المتأنقات ، والنساء المتحررات ، والغواني المتبرجات المترمتات رياء وكذبا ، وجميع ضروب الناس وصنوف الأخلاق ، وقصص الحياة وفواجعها ومهازلها ، ومآسيها ومضحكاتها .

ولم يعمر تشيكوف أكثر من أربعة وأربعين عاماً . وفي السنوات الأخيرة من حياته نزل به مرض عضال عياء شديد الوطأة ، فما زال به حتى أضناه وأنهكه ودفع به إلى التماس الراحة في (يالطا) حيث عاش عيشة المعتزل المتكف .

ولعل من الخير أن نذكر هنا ، على سبيل المقارنة ، أن تولستوي عندما كان في الرابعة والأربعين لم يكن قد شرع في كتابة « آنا كارنينا » وأن دوستوفسكي ، في هذا السن ، لم يكن قد أتم « الجريمة والعقاب » وأن ستاندال ، لو أنه مات في الرابعة والأربعين ، لما خلف وراءه تراثاً أدبياً يذكر .

وقد يكون مرضه الطويل هو الذي حدا ببعض النقاد إلى وصفه بأنه رجل ذاو ذابل عديم النشاط ، فيه بطء وثقل . . وليس هذا من الصحة والواقع في شيء . لأن تشيكوف قد وجد المفتاح السحري الذي يفتح قلوب الملايين من الناس ، ولم يكن ليجده لو لم يكن متوثباً ، متفتحاً ، مولعاً بالحياة ، لا يكتفي أبداً بمشاهدتها متفرجاً متأملاً ، بل يخوض معركتها وينزل إلى ساحتها مشتركاً في صخبها وعراكها وحركتها .

وهو ، إلى ذلك ، شغوف بالاسفار . تواق إلى الرحلات والنقل . فجاب الأمصار والأصقاع ، وعرف شمس روما وثلوج القفار الاوكرانية والفيافي الروسية المثلجة . فما يكاد يستقر به المقام في مكان ، حتى أحس السأمة والضجر ، وأزمع سفراً جديداً ، وكان يقول : « الميت وحده يحتاج إلى أشبار من الأرض يدفن فيها . أما الحي فما به حاجة الى الالتصاق بمكان ، ولا الى اشبار من الأرض أو عقار أو أملاك . انه بحاجة الى الأرض كلها . الى الطبيعة كلها . ليكشف فيها بحرية عن فكره الحر » .. وهو ، أينما حل ، يبادر الى مجتمع الناس فيغشاه ، والى السكان فيتصل بهم ويعاشرهم . وهو لم يفعل هذا ليتخذ منهم نماذج لشخصياته ، وانما كتب عن الناس لأنه عرفهم وأحبهم .

وكان تشيكوف في شغل دائم ، لا يكاد ينفلت من عمل إلا عمل . وليس أغرب من مشاكل هذا العبقري ، ولا أكثر انسانية وبراً بالمساكين منها، نذكر على سبيل المثال انشغاله في اقامة مستوصف أو تشييد مدرسة أو تنظيم مستشفى أو مساعدة فقير ، وعلاج مريض ، وإنقاذ فلاحين من المجاعة ، ومجلة أدبية من الافلاس ، وشاعر بائس من العوز ، وكاتب ناشيء من اليأس .. وهو ، مع كل هذا ، يقول للناس : ليس في الدنيا كلها أكسل مني .. ومما يستطرف ذكره

في هـذا المجال أنه كان مولعاً بأعمـال البستنة ، يقوم بها بلذة وشغف .. وكان كثير الاهتمام بما يزرع من نبات وزهر ، فيرسل الكتب والبرقيات للتوصية بهـا ورعايتها وسقايتها،ويستقدم من أطراف الدنيا أنواعاً جديدة من الأشجار والأزهار.

ولم يكن ذلك لهواً بالنسبة إليه . لم يكن هواية كهوايات صيـد السمك وقنص الوحش . بل كان يراقب تطور نبتة أو تفتح زهرة أو نمو غرسة ، فيجد في ذلك نشوة الابوّة ، ويخالجه احساس عميق بالحياة ، إحساس دافيء حي تهتز له جوانب نفسه كلها ، وقد قال مرة في هذا الموضوع : إن كل شجرة هنا قدغرست أمام عيني . لقد رأيتها تخلق وتكبر ... وقبلي لم يكن هنا إلا أرض بوار موات ، ووديان عقيمة بلهاء ... بعد سنوات ، بعد بضع مئات من السنوات ، ستتحول الأرض كلها إلى جنات غناء مزهرة .

* * *

ومن أجمل طباع هذا الكاتب العبقري أنه كان يوحي إلى الاطفال وإلى الحيوانات ثقة وحباً ، فتأنس إليه وتحس عنده أمناً وطمأنينة ... كان يحب الاطفال ويفهمهم ، لذلك كان عالم الاطفال في رواياته عالماً مشوقاً مضيئاً . وكان يحب الحيوانات، ويربي عدداً منها ، لذلك جاء وصفه للحيوانات حياً صادقاً مليئاً بالحركة ، وقد أبدع بصورة خاصة ، في وصف الحزن الذي ران على قلب الكلب في رواية (كاشتنكا) عندما ماتت الاوزة ، ولولا حبه للكلاب لما استطاع مثل هذا الوصف الرائع .

هذا ، وإن الشائع بين الناس هو أن المتفائل يظل دائمـاً هاشاً باشـاً ، وأن من يحب الناس يكون دائمـاً باسم الثغر ، مفتوح القلب ، ومن يحب اللذائذ والاطايب يسعد بمجلسه ، فاذا أكل استفز فيمن يراه شهوة الطعام ، وإذا ضحك

سرت في مجلسه الضحكات ، وهو حلو الحديث ، صريح الحب للحيـــاة ، يكاد يناديي به على الملأ نداء مجاهراً . أما تشيكوف فهو على غير الشائع المألوف من كل ذلك ، فهو لطيف معتدل ، لا يبالغ في التفاؤل ولا يغرق في التشاؤم ، لا يصرخ في شكواه ، ولا يضج بضحكته . لقد كان يحب الحياة . حباً هادئاً صامتاً .

وكل هذه المشاركة في حياة الناس، وكل هذا الحب لدنيا النبات والحيوانات، وكل هذا الاتصال بمعاشر البشر وهذا التجواب في الاقطار والامصار . . كل هذا أمده بالكثير من معرفة طباع الناس وعاداتهم . بل بأهم وأعظم من ذلك ، أي بما يجب على كل فنان حتى أن ينفذ إليه . . وهو النفس البشرية . ونحن حريون ، في هذه النقطة بالذات ، أن نذكر شيئاً عن الدكتور تشيكوف ، فقد كان طبيباً قبل أن يكون مؤلفاً . وكان منصرفاً أول أمره الى الطب ، لا يعاني الكتابة إلا في أوقات فراغه . فلما طار صيته كروائي ظل متردداً في المهنة التي ينتسب إليها ، وكان يقول : الطبابة زوجي ، والكتابة عشيقتي وأنا لهذه ولتلك معاً .

وقد زعم بعض النقاد أن تشيكوف لم يدرس الطب إلا بحكم ظروف خاصة وأنه لم يكن يميل إليه ،وقد سره أن تخلص منه وعمل في الأدب والقصة . وقد ورد شيء من هذا في بعض رسائل تشيكوف . . لكن الحقيقة هي أنه يبدي تبرماً بالادب أكثر مما يبديه من الطب ، وقد جاء على ذكر هذا البرم وهذا الضيق في كثير مما كتب وقال . حتى يحار المرء في أمره . ولعل الحقيقة أنه كان دائماً قليل الثقة بنفسه ، فلم يعتقد قط أنه كاتب موهوب ، حتى وهو في سنوات النجاح العظيم ، ولم يعتقد قط أنه طبيب كفء ، حتى وهو يصيب النجاح والرواج في هذا العلم .

ومهما يكن من أمر فقد كتب عام ١٨٨٩ هذه العبارات : « أنا لا أشك في أن دراسة الطب قد أثرت على عملي الأدبي أوسع التأثير وأحسنه . فقد وسعت افق مشاهداتي وملاحظاتي ، وزودتني بثروة من المعلومات التي كان لها من الفضل علي ككاتب مالا يقدره إلا الطبيب وحده . »

وقد أجمع الأدباء على أن فضل الطب على تشيكوف كأديب يتجلى في ابداعه في وصف بعض الحالات المرضية ، فقد وصف بروعة ودقة وصدق امرأة في حالتي المخاض والوضع ، وشاباً في إبان نوبة عصبية جامحة ، وشيخاً في حالة انهيار شديد وغير ذلك .. ولكن من الخطأ الظن بأن هذا هو كل ما أفاد الكاتب من الطب . فلنقرأ هذه العبارات التي تبرز وجهة نظره في الموضوع . قال : « تمر بالاطباء أيام وساعات مخيفة لا أتمنى مثلها لأحد ... إن الاطباء وحدهم يعانون مثلها ، ولاجل ذلك ، ومن صميم قلبي ووجداني ، أرى انهم جديرون بالرحمة والغفران » .

فقد عرف تشيكوف الخوف على حياة مريض ، والشعور بالعجز عن معونته وتعاقب الأمل واليأس حول سرير المريض . ولولا هذه « الساعات والايام المخيفة » التي تحدث عنها ، لعسر عليه كثيراً أن يفهم (الساعات والايام المخيفة) التي يمر بها أبطال رواياته . وفي هذا ، بصورة خاصة ، كسب الكاتب من معرفة الطب ، وانه ككسب أثمن وأفضل من معلومات تفيد في اتقان وصف الحالات المرضية .

* * *

ولقد توفي تشيكوف قبل ثورة تشرين الأول بثلاثة عشر عاماً . وقد مضت سنوات على تلك الثورة . وقال التاريخ كلمته فيها وفي العهد البائد الذي

اطـــاحت به ، ويبقى مع ذلك ، فضل تشيكوف لأنه شاهد عيان يروي للجمهور شهادته ويعرفه على نقائص العهد الذي مضى .

ورغم تطاول العهد ، وتوالي السنوات ، فلا يزال أدب هذا الكاتب الكبير ينبض بالواقعية ، والحياة ، ولا نزال نحسه معاصراً لنا ، مصاحباً لنا في حياتنا الحالية اليومية .

وربما كان السر في ذلك ، ماجاء على لسان الدكتور استروف في قصة « العم فانيا » : ان كل شيء في الانسان يجب أن يكون رائعاً : وجهه ، وملابسه ، ونفسه ، وفكره »

هكذا كان يريد للانسان أن يعيش ؛ وعندما يقول أن الحياة ستصبح جميلة وسعيدة بعد قرنين او ثلاثة ، فقد كان يعبر عن رغبة عميقة في نفسه ، وعن ايمان صادق في تفكيره وعقله . وقد وضع على لسان الاستاذ العجوز ، بطل روايته الشهيرة (قصة قاتمة) مايفيد أن الاستاذ يتألم في أواخر حياته ، من أنه سيموت دون أن يستطيع تكوين « فكرة عامة » تجعل للحياة قيمة ومعنى . وقد فسر النقاد هذه « الفكرة العامة » على أنها تلمح الى حنين عميق الى الدين ، رغم أن تشيكوف نفسه لم يكن ديناً ولا مؤمناً . وفسرها آخرون على أنها تعبر عن توق الاستاذ العجوز الى بعض المثل العليا في السياسة والاجتماع . وفي هذا التفسير بعض الحقيقة . أما كل الحقيقة فهو أن هذا الاستاذ ، شأنه كشأن الكاتب نفسه ، انما يتعذب من عدم وجود الانسجام الحقيقي ، والجمال الحقيقي ، والانسانية العميقة . ومن أجل هذا قال (توماس مان) أن الناس سيظلون يفهمون بطل (قصة قاتمة) وسيظلون يحبونه مهما طال الزمن ، ورغم انقضاء العهد الذي تصوره القصة ، ومجتمعه ، وأخطائه .

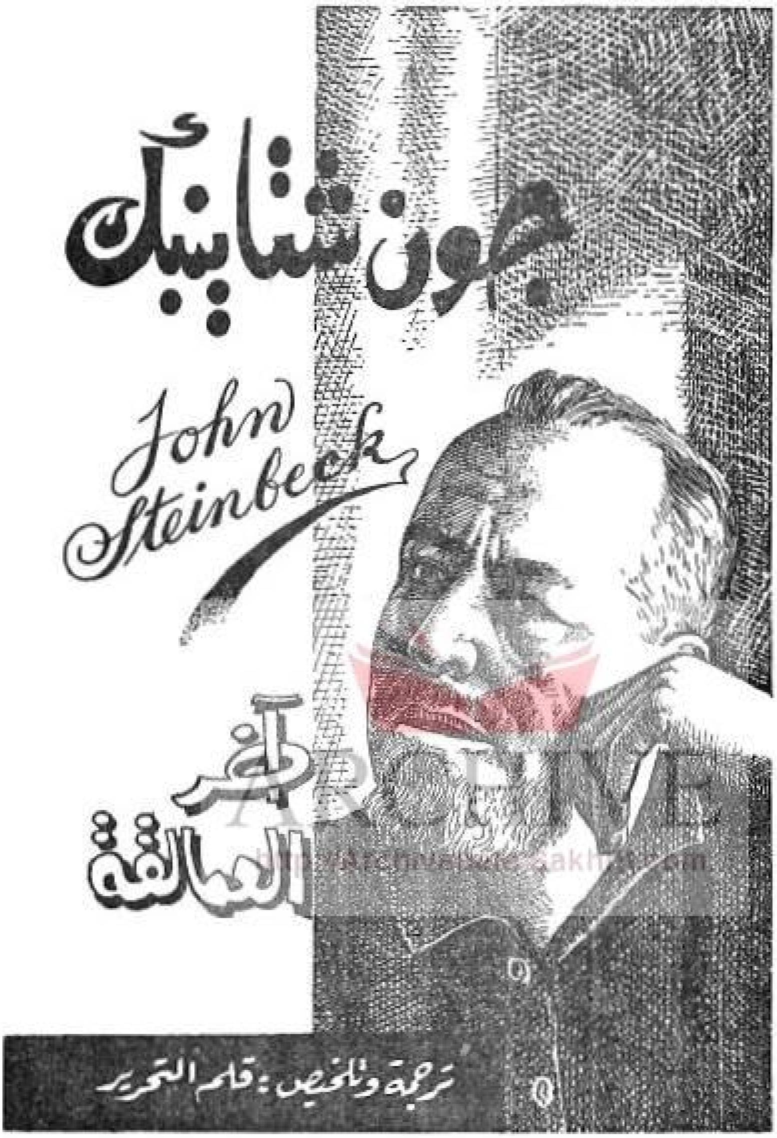
وهذا صحيح . فليس هناك انقطاع ابداً بين الواقع والشعر ، بين ظروف

عصر ما وقوانين الفن الازلية . فالفنان يعبر عما حرك شعوره وشعور معاصريه فاذا قدر له ان يتجاوز القشرة والغلاف وينفذ الى القلب البشري فيلقي على اسراره العميقة نظرة فاهمة واعية ، كانت آثاره خالدة على الدهر ،حبيبة الى قلوب الالاف من الجيل الذي يليه ، وأبنائه وابناء أبنائه ...

وأنا ، كلما مررت أمام نصب تشيكوف في (استرا) أتطلع بلهفة الى هذا الوجه ، وأبتسم له . وانه من العسير علي أن أعبر عن كل ما احسه من عرفان الجميل نحو هذا الكاتب الذي أعتبره أكثر الكتاب جميعاً انسانية وحباً . لقدكان يقول أن المرء يكتسب غنى كلما اكتشف جديداً ، كأن يعرف نظام الدورة الدموية ، أو يحس روعة لحن جميل جديد . وأنا أقول أن تشيكوف قد وهبني ثروة وزادني معرفة . لقد جعلني اكتشف (تشريح) العواطف ، وعلمني عبارات ستظل في ذهني ، مع أشعار بوشكين وقصائد (بلوك) ..! لم يكن يقصد الى أن يعلم شيئاً . ولكنه مع ذلك علم آلاف الاشياء لملايين البشر ، في بلادنا ، وفي خارج حدود وطننا العظيم ، وفي كل مكان يعيش فيه الناس ، يحبون ، ويتعذبون ، ويحبون ، ويكافحون ، ويسعدون ويشقون .

وأنظر الى الاشجار القديمة قرب دير (نوفويسالم) وأقول في نفسي : لعل أن الكاتب العظيم قد تفيأ ظلال احداها ، في احد أيام الصيف .. وأنا ،عندما أفكر فيه ، لا أتخيله رجلاً من عهد مضى ... إنه يبدو لي معاصراً لنا ،يعيش معنا. ثم أبتسم ،ومن كل قلبي أقول له: شكراً لك .شكراً كثيراً لك ياتشيكوف ..

●



قال روبرت كانترز احد محللي الكاتب العالمي شتاينبك : ان شتاينبك كاتب انساني وحنون ، والى جانب ذلك فهو صاحب سخريات طريفة وناعمة.

وعندما منحت الأكاديمية السوفياتية جائزة نوبل للكاتب الاميركي شتاينبك بدا لأكثر الناس أن في ذلك إراحة للضمير الادبي في العالم ، لأن اثنين من (الثلاثة الكبار) في الادب الاميركي قد نالا قبله تلك الجائزة وهما همنغواي وفولكنر . وكان من الظلم ألا يمنحها ثالثهم العظيم. وكان البعض يعللون تأخر منحها له بأنه لايزال في الستين وقد يفاجي

العالم برائعة أدبية كبرى يعطى بعدها الجائزة الرفيعـة . ومع أن ذلك صحيح وغير مستبعد فان اعجاب الناس بأدبه انما ينصب على روائـع حوالي ١٩٣٠ اكثر مما ينصب على نتاجه الجديد ، وتلك الروائـع وحدها قد تبرر منحه جائزة نوبل .

وكان اول انتاجه عام ١٩٢٩ وآخره عام ١٩٦٢ ، ولكن خيار قصصه تتجمع في سنوات محدودة : تورتيلا فلات (١٩٣٥) ، والمعركة الحائرة (١٩٣٦) ورجال وفئران (١٩٣٧) والوادي الكبير (١٩٣٨) وعناقيد الغضب (١٩٣٩) ، ويمكن ان يضاف (شرقي عدن) الذي كتبه عام ١٩٥٢ ، ولو أن أكثر شهرة هذا الكتاب إنما تعود الى الفيلم السينمائي المأخوذ عنه وبصورة خاصة الى بطل الفيلم جيمس دين .

واذا كان أحسن آثار همنغواي هو (وداعاً ايها السلاح) فان أفضل مؤلفات شتاينبك هو في رأيي (رجال وفئران) . وقد وصف فيه صداقة قوية نشأت بين عاملين زراعيين أحدهما عملاق أبله لايدري حقيقة قوته البالغة . ولا تزال هذه الصداقة قائمة بينهما كأنها سور منيع يحميها من الاحساس بالوحدة . بل انها لاتزول حتى في الساعة الأخيرة عندما يقتل أحدهما الآخر رحمة به وشفقة عليه . ولم يبلغ شتاينبك في أي كتاب آخر مابلغه هنا في الجمع بين الرواية الريفية والمأساة الأغريقية نجاحاً طبيعياً كاملاً ، بل لم يكن في أي كتاب آخر مثله هنـا من حيث السيطرة الكاملة على مشاعره كشخص وفنه ككاتب .

ولست أزعم التقليل من شأن الفصول الرائعة الأخاذة الـتي في (عناقيد الغضب) فهي في الحقيقة قصة خالدة من قصص العمال الزراعيين الاميركيين في أحلك أزمات ١٩٣٠ وما حولها . ولعلهـا آخر وأجل الزهرات التي تفتح عنها الادب الواقعي الكبير ، حتى أن الصور الرائعة القوية المؤثرة التي رسمها فيها قلمه البارع قد هزت ضمير امتـه وكانت سلاحاً جباراً في مكافحة الظلم والجور . وهو فيها أقرب الى جماعـة الثائرين العاطفيين منه الى جماعة الثوريين النشيطين .

ولا يجوز لنا أن نغفل هذه القصص الصغيرة الساخرة التي ضمها كتابه (تورتيلا فلات) فقد رسم فيها الطبقات الكادحة البائسة ومن فيها من مقامرين ، ومتسكعين وسكيرين وعاهرات ، وصفهم كلهم وصفاً مشبعاً بالرقة والحنان والسخرية .

وفي رأيي ان أسوأ مافي شتاينبك هو انتقاله من العواطف والقلوب الى الافكار والعقول . وأن خير مافيه انما هو هذا الشعور الانساني المفعم بالحنان الحق ، سواء أكان غاضباً ثائراً ام كان هازلاً ساخراً .

وقد قيل أن عالمه هو مدينة ساليناس . كما ان عالم فولكنر هو مدينة اكسفورد غير أن هنالك فرقاً واضحاً بينهما . لأن شتاينبك يظل اكثر اقليمية وفولكنر اكثر اتساعاً وأرحب أفقاً .

لذلك اذا قارناه بالأحياء من الادباء الذين نالوا جائزة نوبل امثال فرنسوا موررياك ، وسان جون برس ، واليوت ، وبرنارد رسل ، فلا شك أنه يقف في الصف الثاني ولكن اذا نحن ذكرنا حنانه الحقيقي على البائسين وبراعته في وصفهم وتنوع صوره التي تشمل رقة الحنان وزمجرة الغضب وقهقهات الضحك فنحن ندرك لماذا منح هذه الجائزة التي لفتت اليه انظار العالم كله .

وبعد ! فانا نرجو لك قطافاً طيباً ياصاحب العناقيد .

أنا وأمريكا

نماذج من أدب شتاينبك

كان شتاينبك قد قام بجولة واسعة في انحاء الولايات المتحدة ، يرافقه كلبه شارلي الضخم . وقد خرج من هذه الجولة بكتاب رائع اسمه : أناوشارلي وأميركا. واخترنا من هذا الكتاب ، ثلاث لوحات عن الحياة الاميركية وهي لوحات غريبة ، مليئة بسخرية ناعمة جداً ، حتى لايكاد المرء يعرف أين يجدّ الكاتب وأين يهزل هذا الهزل الفني الرائع الساخر .

١ – هاري المستوحش

أعتقد أني رجل معروف في فندق (أمبسادور) في شيكاغو ، وأن لي فيه مكانة وحرمة. ومع ذلك فلم يبد لي شيء من الحب او الاكرام عندما وصلت اليه ذات صباح وأنا في ثياب الصيد والقنص ، مغبر معفّر ، طويل شعر الذقن ، منهوك القوى من طول السفر ، محمر العينين من طول التسهد والسرى . وكنت قد احتجزت لي غرفة قبل قدومي . لكنها كانت مشغولة بنزيل لن يغادرها قبل الظهر . وقد شرح المدير لي ذلك ، فعذرته وغفرت له ... وإنما كنت أتوق الى حمام دافئ وفراش وثير . وطالما أني حرمت منهما الى حين ، فلا أقل من أن أستقر في مقعد واسع في ردهة الفندق .

وما كدت أفعل حتى رأيت القلق والانزعاج يتراقصان في عيني موظف الاستقبال . ولعمري ليس الموظف بذلك ملوماً . فلست شيئاً تزدان به ردهة أنيقة مترفة في معبد الراحة والفخامة الذي يسمى فندق الامبسادور . ثم اتصل الرجل برئيسه ، وانتهى الأمر باتفاقنا على أن أحتل موقتاً غرفة قد خلت منذ لحظات بسفر شاغلها ، فاذا كان الظهر انتقلت الى غرفتي . فما أعجب وما أعظم مايستطيع الذكاء الألمعي والصبر الهادئ اذا اجتمعا على مشكلة عويصة مثل

مشكلتي . إذ نلت أنا ما أصبو اليه من فراش وحمام ، وتخلصت الادارة من وجودي المزعج في ردهتها الفخيمة .

وهكذا دخلت الغرفة قبل أن يصلح الخدم من شأنها وهي ماتزال كما تركها عليه نزيلها . وتهاويت على مقعد واسع ، وانحنيت على قدمي لانتزع منهما حذائي . ونزعت أحدهما . وقبل أن تمتد يدي الى الثاني استرعى انتباهي أمر ، ثم ثان ، ثم ثالث .. وهكذا .. وسرعان مانسيت السرير والحمام ورأيت نفسي منصرفاً بكليتي الى (هاري المتوحش) .

* * *

هذا .. وإن الحيوان اذا ارتحل عن مكان ترك فيه آثاراً تنم عليه . واذا قام أو قعد ، واذا اضطجع او انطلق ، بعث في الاوراق حفيفاً ، وفي الاغصان تمايلاً ، وترك على العشب المتكسر آثار خطاه . أما الانسان فيخلف وراءه اكثر من ذلك . فاذا غادر غرفة قضى فيها ليلته ، ترك فيها شيئاً من خلقه وطبعه وحياته ، وسيرته ، وأمانيه وآماله . وكأن شخصيته تلتصق بالجدران فما تنفلت منها الا شيئاً بعد شيء . ولعل ذلك يفسر حكايا الاشباح ، وقصص الارواح ... ولذلك أتأثر أنا أشد التأثر بما يترك الانسان بعده من دلائل وآثار . وأنا ، بعد ، مقر معترف بأني امرؤ طلعة كثير الفضول . فلم أر نافذة انزاحت عنها ستائرها الا تطلعت الى داخلها يجوس فيها نظري تفحصاً . ولم يترام الي صوت متحدثين إلا استرقت السمع ، وأرهفت الاذن ، أصغي الى حديث لاشأن لي به ولا علاقة . ولو شئت لبررت ذلك بأن مهنتي تفرض علي التطلع الى الخبايا والاسرار ومراقبة الناس وملاحظة أحوالهم وأعمالهم . لكني أعترف بالحقيقة وأقول بكل صراحة وكل بساطة أني فضولي طلعة .

* * *

ولنعد الآن الى (هاري المتوحش) لقد بدأ الرجل يبدو لي بوضوح ، وكأنه يتشكل ويتجسد ، ويتكون من جديد من اجزاء نفسه التي غادرها هنا . ولقد بدأت احسه كائناً حياً ملموساً أعرفه اكثر مما أعرف الناس الذين أعاشرهم كل يوم .

وقبل أن أصفه لكم ، واجعله يمثل امام عيونكم ، اسمحوا لي ان اقول لكم أن (هاري) ليس بالحقيقة (هاري) . وأنه من سكان مدينة وستبورت ، وقد علمت ذلك من (فاتورة) غسيل وكي بعض قمصانه . فالمرء يقيم حيث يغسل قمصانه ويكويها . وهذه فلسفة معروفة . وأظن أن سفرته الى شيكاغو كانت سفرة أعمال ، وذلك يعني أنها لاتخلو من بعض الترفيه التقليدي . ثم اني اعرف اسمه الحقيقي لأنه وقع به في سجل الفندق عدة مرات . وفي كل مرة كان توقيعه يختلف قليلاً عما سبق ، مما يدل على أنه غير شديد الثقة بنفسه في دنيا الأعمال .

وكان قد بدأ رسالة الى امرأته . ثم القى بها في سلة المهملات . فالتقطتها وقرأت فيها مايلي:

يا (عزيزتي)

كل شيء على مايرام . وقد حاولت الاتصال بعمتك فلم افلح ... اتمنى ان تكوني معي هنا لعلك تخففين عني عناء الوحدة الشديدة ، والوحشة الثقيلة في هذا البلد الغريب . وأنا اكتب اليك بانتظار (س . أ) . وآمل ان يحمل معه نص الاتفاق الذي ...

والواقع أن (العزيزة) لم تجيء الى زوجها المستوحش المتوحد . وأن الزائر المنتظر لم يكن (س . أ) حامل الاتفاق ، بل امرأة بين البيضاء والشقراء ، تستعمل لشفتيها قلم حمرة باهت اللون شاحبه ، لاتزال آثاره على حافة الكأس واعقاب السجائر . وقد شرب الاثنان زجاجة كاملة من الويسكي وتركاها فارغة الى جانب زجاجات الصودا ووعاء خاص لمكعبات الثلج . وكانت المرأة تستعمل عطراً قوياً ثقيلاً . لكنها لم تنم مع هاري . فليس لها أي أثر على الوسادة الثانيـــة على السرير ، وليس على ملاءات السرير بقايا من احمر الشفاه أو مساحيق الزينة .

ولا أدري لماذا أحب ان يكون اسمها (لوسي) . ولكني لاأدري انها كانت حادة الطبع عصبية المزاج ، تدخن باستمرار ، سيجارة بعد سيجارة ، فما تدخن من احداها مقدار الثلث حتى تتركها وتشعل غيرها . وهي لا تترك سيجارتها تنطفيء على مهل في المرمدة بل تسحقها فيها سحقاً عصبياً .وكان على رأسها قبعة صغيرة تمسكها أمشاط منحنية سقط أحدها متقلبا من شعرها ، كما وقع منها دبوس قرب السرير ومنهما كليهما عرفت ان (لوسي) كانت ذات شعر كستنائي .

ولاأدري إذا كانت لوسي من المحترفات ، لكنها على كل حال ذات خبرة كافية وحس عملي فلم تترك وراءها تلك الآثار التي تخلفها المرأة الهاوية ، ولم تسكر مع أن كأسها كان يمتلىء ويفرغ باستمرار لكن محتواه كان يستقر في حوض الورد الأحمر الذى كانت تفوح منه رائحة الويسكي .

ولا أدري فيم تحدثت مع هاري ولا أدري إذا كانت قد خففت عنه وحشته على أني اعتقد أن كلا منهما قد قام بما كان منتظراً منه.فشرب هاري حتى ثمل وهـــاج معدته فأخرجت الخمر قيئاً كريهاً ، فقد وجدت في الحمام آثار ذلك ، كما وجدت فيه علبة فارغة من علب الدواء .

وجماع القول أني عرفت (هاري المستوحش) معرفة وثيقة ، وعلمت منه على الأخص اموراً ثلاثة ، أولها لم يحصل على اية متعة من ليلته ، وثانيها انه كان في الحقيقة برماً متألماً يشكو الوحدة والوحشه ، وآخرها أنه رصين هادىء ، فلم يأت عملاً مستهجناً ولم يوقع ضرراً أو أذى ، ولم يترك أثراً حسياً مادياً لفرحه وسروره أو ثورته أو مرضه .

وقد أخذ هاري بقلبي وبدأت أرتاب فيه وقت أخرى وجوده فأخذت أجوس الغرفة ، متواثباً ، قافزاً ، مضطرب الخطوة ، بقدم منتعلة ، وقدم حافية ، ورحت أدور في المكان بحثاً عن الرجل .. وتطلعت تحت السرير ونظرت داخل الخزينة ، فلم أرفيها أثراً منه ، حتى ولا ربطة عنق. وقعدت ، مكتئباً ، حزيناً ، لأني لم أجد هاري ، هاري المتوحش .

●

٢ — الغول وابنه

قبل أن أباشر جولتي في أنحاء بلادنا الأميركية ، سمعت الكثير من النصائح والتعليمات والارشادات يغدقها علي أصدقائي بكرم وسخاء ، وكان بينهم صحافي سياسي واسع الشهرة ، رفيع المنزلة وكان قد جاب البلاد كلها برفقة المرشحين لرئاسة الجمهورية . وقد ألفيته متألماً كاسف البال . ذاك أنه يحب بلاده ويراها مريضة سقيمة وقد شكا الي بمرارة فقال :

إن انت عثرت في جولتك على امرىء فيه رجولة وجرأة ، فدلني عليه لأسافر إليه وأراه فأنا لم أر في كل أسفاري إلا انتهازية وجبناً . لقد كنا أمة من العمالقة فما دهاهم وأين هم . وان الدفاع عن بلادنا لن ينهض به (المديرون) و (الموظفون) وانما يحتاج الدفاع الى رجال فأين ذهب الرجال ؟ فو الله لم أجد في كل أميركا أناساً فيهم شجاعة وبأس الا الزنوج السود وحاشا أن أكون آسفاً لأن الزنوج كذلك، بيد أني لا أحب أن تخلو لهم ساحتنا وأن يكونوا وحدهم أهل الفحولة والرجولة . فهلا وجدت لنا في طول اميركا وعرضها عشرة من البيض . عشرة فقط سليمي البنيان ، شجعان لا يأخذ بلبهم الخوف من أن يكون لهم رأي أو معتقد أو فكرة غير ما تجمع عليه الكثرة من حولهم ...

وكان صديقي صادق الشعور ، فأثر علي تأثيراً شديداً وأخذت أتحرى الناس فوجدت أنه على حق . فلم أسمع أحداً من مواطني الاميركيين يتحدث عن عقيدته حديث المؤمن المتمسك بل لم أشهد في كل سفرتي الطويلة إلا معركتين حقيقيتين ، حاميتين تهاوت منهما القبضات العارية والكمات الشديدة الخانقة . لكني عرفت أنهما ما نشبتا الا من أجل النساء والشهوات .

وقد قال صديقي أيضاً :

« كان لدينا في السابق شيء نحفل به ، ونهتم له ، ونحسب له أعظم الحساب ، ذلكم هو الشعب ، فأين ذهب هـذا الشعب ، وهل تعد شعباً تلك المجموعة من رجال حسان كالذين تجد صورهم في الاعلان عن معجون الاسنـان أو زيت الشعر ، رجال همهم في الدنيا سيارة

فارهة ، أو سيارة جديدة ، رجال هم زبور نساء وغزاة قلوب ، وقلوبهم هم قلوب ضعيفة تفتك بها الجلطة الدموية ... لقـد كان في بلادنا شعب ،وعنه تحدث لنكولن، وعنه تكلم الدستور ، أفليس غباء وحمقا الاعتقاد بأن دستورنا قد تكلم عن شبان جعلوا مركز حياتهم صوت صفارة ، وغمزة عين ، وصورة دعاية » .

وقد رأيت ذات يوم مصداق قوله :

كان البرد شديداً والثلج يتساقط بغزارة فيغطي الطرقات بغبار أبيض متكاثر . ودنا المساء، وخفت الضوء فتوقفت بسيارتي في أعلى أحد المضيفات لأتزود بالوقود ، أمام مجموعة من الابنيـة الصغيرة المكعبة . ولما لم أجد أحداً عند المضخات ، دخلت الى مكان لم أر في حياتي ماهو أقبح منه منظراً وأبعث على الاشمئزاز والريبة ـ وهو معمل صغير لاصلاح السيارات. وهو ، في الوقت نفسه مطعم المسافرين . وكانت أجيال لاحصر لها من الذباب قد تركت آثارها على اللافتات الغريبة المعلقة في المكان ، والتي تحمل عبارات غير مألوفة . فقد كتب على احداها « هنا تأكل حــلوى كالتي تصنعها أمك اذا كانت أمك تستطيع عمل الحلوى » وكتب على ثانية « نحن لاننظر الى ماقي فمك ، فلا تنظر انت الى ماقي مطبخنا » وعبارات أخرى من هذه البلاغة وهذا البيان .

ثم سمعت شجاراً في غرفة خلفية لعلها المطبخ . وكان أحد الصوتين خشناً غليظاً والثاني اكثر صفاء وأقل ضخامة . فناديت ، فبرز لي رجل كبير الهامة ، ضخم القامة ، مخيف المنظر . واتفقت معه على أن أختار لي احدى غرفه، ولكي مرقداً لليلته ، وأن يقدم لنا الطعام لقاء دولارين في اليوم ، وهي تعرفة الشتاء كما قال .

ولما دخلت الغرفة تحققت أن اصحابها لم يدخروا جهداً في جعلها قبيحة المنظر قليلة الراحة. فالسرير مكدود متعب ، تكثر فيه الحفر والحدب ، والجدران صفراء قذرة والستائر كثوب عجوز فقيرة متشردة . وفي الغرفة كلها رائحة غريبة ، متداخلة العناصر ، رائحة جرذان وفئران وعفن وغبار قديم. بيد أن ملاءة السرير نظيفة . ففتحت النافذة،فدخل الهواء وأزاح من المكان ذكرى آخر من نام فيه .

وبعد قليل قرع على بابي ثم دخل منه شاب في نحو العشرين ، يرتد ثياباً رمادية .وصدرة من الصوف عليها شعار مدرسة ثانوية في (سبوكن) . أما شعره الاسود اللماع فكان تحفةمن تحف فن التصفيف والترجيل . وقد انطلقت خصلتان من جانبي الرأس فستا الاذنين مساً رفيقاً ثم اندفعتا نحو أسفل الرأس تتلاقيان فيه مع خصلة رئيسية مركزية مهدت بعناية وارسلت الى الخلف.

وكانت ذكرى غول الطعم ماتزال ماثلة في ذهني. فلما رأيت الغلام دهشت للشبه والاختلاف بينهما . ولما تكلم عرفت أنه صاحب الصوت الثاني في الشجار الذي سمعته منذ قليل .

وكان قد عرف من لوحة سيارتي أني من نيويورك ، فأخذ يحدثني عن رغبته الشديدة في الذهاب اليها ، وعن السأم والضجر والفراغ وكل مايعانيه في حياته بالريف ، وعن طموحه الى مستقبل لماع ودنيا جديدة . وكنت أحاول أن احبب اليه مكانه وقلت له أن أهل المدينة يتمنون حياة الريف ، وأن السأم والملل هنالك كما هما هنا ، وأن وجود أبيه كاف لجعله زاهداً في تركه. فقال أنه في خلاف دائم معه ، وأن الرجل لايبالي بغير القنص والصيد والخمر .

ثم ذهب . وقد أصلحت من شأني . وقصدت (المطعم) للعشاء . فاذا بصاحبه ينظر الي نظرة المحنق الغاضب . وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة حتى بدا كثمرة الكرز المحروقة . وبادرني يقول : ألم يكن يكفينا مالدينا من مشاغل ومتاعب حتى تأتي أنت ، ومن نيويورك بالذات ، وتملأ عقل الصبي بأفكار غريبة وحكايا سخيفة .. ودافعت عن نفسي مااستطعت لكنه لم يقتنع فان كوني من نيويورك هو ، بحد ذاته أس مزعج مسي• .

وجلسنا الى الطعام . فأخذ الرجل يغمغم ويتسخط . ثم أخذ يتبسط أمامي . وحكى لي قصته مع الصبي : « ان روبي لم يكتف بمدرسة البلدة بعد أن أنهى صفوفها . وهو يتردد على مدرسة ليلية يتلقى دروسها ويدفع أجورها ... وليتك تعرف ماذا يدرس . انه يدرس فن الحلاقة . وأية حلاقة ! حلاقة الشعر للسيدات . فهل أدركت الآن سبب شجارنا وخلافنا ؟ »

ونظر الغلام الي ليبحث في وجهي عن نظرة الاحتقار التي كان يتوقعها . واجتهدت أن أبدو رصيناً جاداً حيادياً . وأخذت أشد على لحيتي اظهاراً لتركيز الفكر وإعمال الذهن . ثم قلت: مهما يكن جوابي فلابد أن يحنق أحدكما علي" . ولا آمن أن يثور علي ويؤذيني ، لقد والله احرجتني يارجل .

ولا ادري لماذا راق هذا الكلام للرجل المستدير الوجه . فتنفس تنفساً عميقاً ، وانفرجت أساريره ، وارسل مايشبه الضحكة ، فخف التوتر في الجو .. وعاد يلح علي لأقول رأيي .

قلت : لقد سبق لي أن فكرت في الموضوع كثيراً ، وأنا اعرف عددا لايستهان به من النساء والصبايا . من مختلف الاعمار والبيئات والثقافات ؟ وهن يختلفن في كل شي• عدا امراً واحداً : هو الحلاق . حتى ايقنت ان الحلاق هو صاحب اكبر نفوذ واعظم سلطان في كل المجتمعات الحديثة .

ولست مازحاً في هذا، بل انا جاد كل الجد . لقد درست الموضوع أدق دراسة واوسعها، فعندما تذهب المرأة الى الحلاق (وكلهن يذهبن اليه) يطرأ عليها تحول وتغير عظيمان . انها تحس عنده انها في رعاية وأمن واطمئنان ، فتهدأ نفسها وتقر بلابلها وتتراخى اعصابها بعد توتر وقلق .

فهي لاتشعر عنده بحاجة الى اي جهد ، اي نضال ، اية مواربة ، لأن الحلاق يعرف لون شعرها الحقيقي ، وبشرة وجهها الاصلية ، وهيئة وجهها بدون زينة او قناع ، ويعرف من كل ذلك عمرها الصحيح الذي لايمكن ان تكشفه لأحد ، فتحس باستسلام وراحـــة ، وتروح تقول له اموراً لاتجرأ أن تعترف بها للكاهن نفسه ، وتخوض معه في مواضيع تخفيها عن طبيبها الشخصي .

وعندما تضع المرأة حياتها الخاصة وأسرارها الدفينـة بين يدي الحلاق ، يصبح له من السلطة والتأثير مالايبلغه انسان سواه بل انه يصبح عالماً ، ملمـا بالفنون والاداب . ولقد سمعت بعض الحلاقين يتحدثون بجرأة واعتداد عن الفن والسياسة والادب والاقتصادوالتربيةوالأخلاق. وإن للحلاق الطموح الذكي من التأثير على النساء مايتجاوز ادراك اكثر الرجال .

وكان الرجل الغول ينظر الي بدهشة واستغراب . وتطلع الى ابنه ببعض الرضا وبعض الاعجاب وقال له « أتسمع ياروني ، هل سمعت بشيء مثل هذا من قبل » وقال روني منتعشـاً متطاولاً : نعم كنت أعرف هذا . في دراستنا فصول خاصة بعلم النفس . ونظر الغول الى ابنه في حنان واعجاب وقال : يالله .. لم اتصور في حياتي كلها مثل هذه الامور .

ثم ضحك ، وأقر عمل الصبي . وفكر في الامر . وانتهت مشكلتها .

أما أنا فقد قضيت ليلة مزعجة ، افكر فيما قلت . وأخشى أن يكون اندفاعي في مساعدة الفلام ، سبباً في أن يولد في اميركا وحش جديد أومسخ جديد .

٣ ــ شارلي .. لم يكن ملقحاً

ان شلالات نياغارا رائعة الجمال . انها تشبه اللوحة الكبيرة المعلقة في ميدان التايمس . وأنا سعيد حقاً لاني رأيتها . فأنا مستطيـع الآن أن اجيب (نعم) عندما يسألونني عن زيارتهـــا ، فأكون صادقاً في جوابي . وقلما اكون كذلك .

والحقيقة أني لم اكن أنوي زيارتها ولا اقصد الذهاب الى (اريه) في بنسلفانيا . لكني اضطررت الى ذلك اضطراراً في بعض اسفاري . وكان السبب في ذلك كلبي المسكين شارلي .

وقد علمت من خبرتي الكثيرة وتجـاربي المتعددة أني احب كل الشعوب واني اكره كل الحكومات . وأن (فوضويتي) الطبيعية انما تتيقظ بصورة خاصة على الحدود حيث يقوم موظفون بارعون صابرون باداء وظائفهم الصعبة في شؤون الهجرة والجمـارك . وأنا ، طول حياتي ، لم أهرب شيئاً ، ولم أغش موظفاً ، ولم أكتم اسراً ، ومـع ذلك فما أكاد أقترب من مخفر جمركي حتى يداخلني شعور بالذنب يزعجني ويربكني .

وقد وصلت الى جسر كبير فدفعت الرسوم واجتزته فوصلت الى أرض حرام ثم الى مكان يخفق فيه علما كندا وأميركا متجاورين . وقد أبدى الموظفون الكنديون أدبا جما ولطفا كثيراً وسألوني عن وجهتي ومدة اقامتي وفحصوا سيارتي . ثم جاء دور شارلي فسألوني هل أحمل شهادة بتلقيحه ضد مرض الكلب . فقلت انه كلب عجوز وقد لقح منذ زمن طويل ولم أجد حاجة الى تلقيحه من جديد . فقالوا أن من الافضل لي ان اعبر الحدود وحدي وأن اترك شارلي حيث هو . فأكدت لهم أني لن اقيم في كندا وانما اعبر فيها بضعة كيلو مترات ثم اعود ، اختصاراً للطريق . فقال الموظفون : نحن نفهم ذلك تماماً ولكن لاحيلة لنا بالأمر فالولايات المتحدة لن تسمح بأن يعود الكلب إليها . وان موظفيها سيطلبون شهادة التلقيح حالما تصل الحدود عائداً .

وكان معنى ذلك أني مضطر الى الرجوع مسافة عشرين كيلومتراً . والقح الكلب واعود وأقفل راجعاً وقال الموظفون الكنديون : لا بد لنا في هذا الازعاج انها تعليمات حكومتك لا حكومتنا وانما نحن نحذرك كما تقضي التعليمات .

ولا شك في أن هذه الامور جعلتني أكره الحكومات . كل الحكومات . فهناك على الدوام تعليمات وأنظمة وأشياء مكتوبة وأوراق مطبوعة ليست شخصاً فأقاتله ولا جداراً فأهدمه أما التلقيح بالذات فأنا من المؤيدين له ، الداعين الى جعله اجبارياً لأني أعلم أن الكلب داء خطير مخيف لكن الذي يعني هؤلاء الموظفين ليس التلقيح بذاته وانما الشهادة به وهكذا الحكومات دائماً : لا تهمها الوقائع وانما تهمها الأوراق .

واستدرت واتجهت نحو الراية ذات النجوم . نحو حكومة أخرى ، ومشاكل أخرى .

وقال لي الموظف الامريكي : أمواطن أميركي انت ؟

قلت : أجل

قال : هل معك ما يجب أن تصرح به

قلت : أنا لم أعبر الحدود

قال : وهل تحمل شهادة تلقيح لكلبك

قلت : ولا هو قطع الحدود

قال : انك آت من كندا

قلت : بل أني لم أذهب اليها قط

فتصلبت نظرة عينيه وارتفع حاجباه في شك وارتياب ، وطلب الي أن أدخل مكتبه ، ثم أجرى اتصالات هاتفية تبين بعدها صدق قولي . وكأن براءتي ضايقته . فقال : أرني جواز سفرك وعدت احتج بأني لم أترك البلاد فلا حاجة الى ابراز جواز السفر . لكني مع ذلك مددت به مستسلماً . فتصفحه

وقلبه ، ودرس الاختام ، وتمرس في الصورة حتى وصل الى الصفحة الاخيرة فوقع فيها على حروف وأرقام مكتوبة بقلم الرصاص . فزاد تقطيباً واتخذ سمة الجد الشديد يسألني عنها فقلت في مسكنة وتأدب : انها ارقام هاتف كتبتها هنا لعدم وجود ورق في متناول يدي وأنا مستعد لأن أمحوها قال : اجاهل انت ؟ اما تعرف ان القانون يحرم افساد الوثائق الرسمية فاياك ثم اياك ان تعود الى مثلها .

فقلت في طاعة وانكسار : ابداً .. ابداً لن افعل مثل هذا .

وكان في قلبي اشياء اخرى احب أن اقولها له ليرضى عني : لن اكذب ابداً ، لن اسرق ابداً .. لن اشتهي امرأة غيري .. لن أتصل بأشخاص مشبوهين ، لن ...

لكنني لم أقل شيئاً .. طوى الرجل الجواز وأعاده الي . وقال بلهجة المتسامح المتعطف : يمكنك أن تذهب الآن .

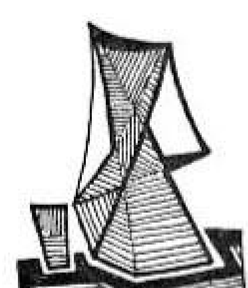
لماذا اكره الحكومات ؟؟ لماذا اكره موظفي الحكومات ؟ اولئك الذين يعرفون كيف يجعلونك تشعر بالضآلة والذلة ، فلا تسترد الشعور بشخصيتك إلا بعد زمن ...

* * *

و.. كما كان شارل سبباً في أن رأيت (الرين) ورأيت الشلالات . وقد نزلت في فندق فخم وتناولت عشاء عالياً واطمعت شارل أطايب مآكله .

وقبـل أن أنام اخذتني المعترض في ذهني كل ما كنت احب أن اقوله لموظف ذاك ، وكلها عبارات ذكية طريفة ، عبارات لايجب هو أن يسمعها .

وظلت كما أنا .. احب جميع الشعوب واكره جميع الحكومات .



الكتاب والموضوعات

الموسيقا التونسية

لمحات عن تاريخها وصلتها بالموسيقى الشرقية

بقلم : نجاة قصاب حسن

في رحلتي الى تونس مع مسرح الفنون الشعبية السوري (آب ١٩٦٢) أتيح لي أن ألقى عدداً من الموسيقيين التونسيين المشاهير من نظريين وعمليين ، وقدموا لي من المعلومات المكتوبة ومن الالحان المسموعة مايسمح لي بأن اعطي لمحة موجزة عن الموسيقا التونسية تاريخاً وحاضراً وعلاقة بالموسيقا السائدة اليوم في المشرق . وكان في طليعة من أنست بلقائهم والاستماع اليهم البحاثة الاستاذ عثمان الكعاك من كبار الرجالات التونسيين ومدير المكتبة الوطنية فيها ، والاستاذ صالح المهدي مدير مصلحة الفنون المستظرفة (الجميلة) في الجمهورية التونسية

وقد شعرت وانا القى الاستاذ كماك باحترام عميق لسعة اطلاعه لم اشعر بمثله الا وانا القى صديقه وزميله السوري الحلبي المرحوم الاستاذ علي الدرويش . ولعل الكثيرين من قراء «المعرفة» لايعرفون ان الاستاذ الشيخ علي الدرويش احد كبار الموسيقيين العرب في النصف الاول من القرن الحالي ، قد عمل في تونس وكان من رواد نهضتها الموسيقية بالاضافة الى اشتغاله مع البارون ديرلانجه في تحقيق عدد من أنفس الكتب الموسيقية العربية القديمة ككتاب الموسيقي الكبير للفارابي (١).

وقد كانت تونس وفية له ولذكراه بقدر ما كانت حفية به وبعمله ، وأسمت قاعة من قاعات مكتبتها الوطنية باسم علي الدرويش . وحدثني الاستاذ صالح المهدي ـ وهو قانوني سابق هجر القضاء الى الموسيقا لحبه اياها واتقانه العزف على الناي والتلحين فسمي مديراً لمصلحة الفنون ـ أنه حين نشبت الحرب العالمية الاخيرة وانقطعت بلاد المشرق العربي عن بلاد المغرب ، سمع بوفاة الشيخ علي وكان استاذاً له ، فلما وضعت الحرب اوزارها وبلاياها اجرى اتصالات كذبت النبأ ، وكان المرحوم الشيخ علي يومها في العراق .. وقد كانت هذه الحادثة وامثالها من الحوادث التي اطلعت عليها في زيارتي لتونس ، وما لمحته من تقارب شديد بين الشعبين العربيين في سورية وتونس من الشواهد الناطقة على أن ماصنعه التاريخ من صلات القربى لاتهدمه السياسة ولا بعد الشقة ولا الحروب ولا انقطاع الصلات . ولو أعوز الناس شاهد على وحدة الامة العربية لكان هذا التماثل الكبير بين الفن التونسي والفن السوري ، مع مابينهما من فرق ناجم عن الحضارة العربية الواسعة من ابلغ الشواهد واكثرها عروبة ، أي وضوحاً .

الموسيقا التونسية في العصر البربري

جلب البربر معهم حين نزحوا من اليمن ، الموسيقا اليمنية وموسيقا خليج العرب وما فيهما من اثر بين لألحان الفرس والهنود ، ولذلك فالموسيقا البربرية التي لاتزال آثارها ظاهرة في المغرب الاقصى ولا سيما في جبال خمير .. وجزائر قرقنة وجربة ، تحمل شبهاً واضحاً بالموسيقا الهندية .

---

(١) نشر هذا الكتاب بالفرنسية ، وقد اطلعت على نسخة منه في المعهد الموسيقي الشرقي يوم كنت اميناً لسره عام ١٩٥١ وسعى الاستاذ فخري البارودي ، من زعماء النهضة الموسيقية في بلادنا ، كي اعاونه في نقله الى العربية ، ولم نكن نعرف ان نسخته العربية المحققة موجودة في مكتبة علي الدرويش . وقد اعتذرت يومها عن هذا العمل لما في نقل كتاب عربي عن ترجمته الفرنسية من مخالفة للأعراف بالاضافة لما ينجم عن ذلك من تباين بين ترجمة الترجمة والاصل المكتوب ببيان عربي قديم . وستسعى وزارة الثقافة والارشاد القومي الى نشر هذه المخطوطة بالتعاون مع ورثة المرحوم الشيخ علي الدرويش .

وفي موسيقا الجزر تلمح ظاهرة غريبة منفردة هي وجود موسيقا « القرب » Cornemuse التي يلبس عازفوها ازاراً يشبه ما يلبسه ابناء سكوتلاندا حين يعزفون الموسيقا نفسها ، وفوقها صدرية وعمامة أو طربوش مغربي ويرقص الراقصون مرتدين الالبسة نفسها على نغمات الطبل الكبير والصرناية وقد درس (لحمان) هذه الظاهرة المتبقية من الموسيقا البربرية في ابحاث مستفيضة محاولا ان يستكشف اسبابها ومنشأ هذه المشابهة بين ما في تونس وما في سكوتلاندا .

الموسيقا الفينيقية والموسيقا الرومانية

ولما ذهب الفينيقيون ـ وهم موجة من موجات الهجرة العربية القديمة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ـ الى قرطاجة في تونس عن طريق البحر ، حملوا معهم موسيقاهم المتأثرة بموسيقا الآشوريين من ناحية ، وموسيقا قدماء المصريين من ناحية اخرى . وفي زمن الفتح الروماني للشمال الافريقي ، أسس يوبا الثاني معهداً للموسيقا بمدينة شرشال في الجزائر ، وجلب له اساتذة من اليونانيين ، واسس التونسيون معهداً للفنون ملحقاً بجامعة قرطاجة يدرس الموسيقا والرقص والتمثيل ، واحدثوا امكنة خاصة للسماع الموسيقي (اوديون) في كل بلدة ، وانتشرت الثقافة الموسيقية انتشاراً واسعاً ظل حتى انتشرت النصرانية في البلاد في القرن الثاني بعد الميلاد ، فانقلبت الموسيقا الى الحان كنائسية . ولكن الموسيقا الشعبية لم تلق تشجيعاً من الاحبار فكان ان تلاشت الى حد كبير ولم يصل الينا منها شيء يذكر ايوصف .

الموسيقا العربية الأولى

وفي السنة السابعة والعشرين للهجرة ، حملت القبائل العربية معها ألحانها وابرزها الحداء والترتيل ولا تزال قبائل بني مرزوق العربية تستخدم الحداء حتى الآن ، فكانت غزوة حضارية تسير في ركاب الفتح الاسلامي ، ولما استقر الفتح الاسلامي في تونس والمغرب وسكن الولاة القصور وجمعوا حولهم مجالس الأدب والطرب على غرار ما فعله الخلفاء الأمويون في حياة البذخ ، واستكثروا من المطربين الذين كانوا يستقدمون أفضلهم من المشرق ، قامت نهضة موسيقية كبيرة في المغرب ، زاد في غناها ما استقدمه الجيش الخراساني معه من آلات طرب فارسية الاصل وانغام الموسيقا وقوانين .

الموسيقا الاغلبية

ويقول الاستاذ الكعاك —— ومنه استمددت هذه الدراسة —— ان الموسيقا الاغلبية فيها انواع ثلاثة : قصورية (نسبة الى قصور الولاة والأثرياء) ورباطية ودينية . فالقصورية هي

التي جلبها زرياب معه من قصر الرشيد (٢٧٠هـ) بعد أن انفصل عن الموصل ونشرها في المغرب والاندلس ، وهي تعتمد على القصيد الفصيح ينشده المنشد الواحد ويصطحب العود للايقاع والنغم، ولا يرافقه فيه المرددون أي الجوقة . وكانت تنصب في قصور الولاة (الستارة) وهي منصة عالية في ركن القاعة أو الصحن تنزل عليها ستارة يجلس أمامها المغنون وخلفها الجواري ، وكان المغنون يحملون في ايديهم العيدان والرباب والطنبور والدف والناي والقانون (١) والنقارات ، وينشد واحدهم من مقام معين يلحنه ارتجالاً وفق التجلي والحال النفسية ، وترقص الجواري على النغمات ويكون رب القصر جالساً بحيث يراهن وحده ويسمع الجلساء الموسيقا والغناء ولا يرون الرقص. وفي القيروان ازدهرت ، تبعاً لذلك ، حرفة النخاسة الفنية ، فكان النخاسون بدار (النابغة) يشترون الجواري البربريات والصقليات والصقالبيات والقوطيات والسودانيات ويعلمونهن الادب والشعر والغناء والرقص والظرف ليبيعوهن بعد ذلك بأغلى الأثمان ، فكانت تلك هي المدارس الاولى في تخريج القانات ، وقد وصفها ابراهيم الرقيق القيرواني في كتابه (البذور في وصف الحور) .

والرباطية فيها اشعار ترقق القلب وتثير الوجد وتسيل الدمع ، كلها وعظ وتصوف وتعلق بالحب الالهي ، ينشدها الرباطيون بأصوات ملائكية وايقاعات تحدث الجذب . والموسيقا **الدينية** فيها انشاد المدائح النبوية وقصائد التشوق الى الحج وسمر المآذن في رمضان وتلاوة القرآن .

ويلي هذه الانواع نوع رابع هو موسيقا الجند والزنوج ، وكان هؤلاء هم الحرس الخاص للأغالبة ، وهي موسيقا حماسية ايقاعية فيها طبول وصنوج وصورنايات (آلة نفخ تشبه الزورنا المنتشرة في الريف السوري) .

الموسيقا الفاطمية

وفي ايام الفاطميين جاء الموسيقي مؤنس البغدادي فأدخل الى تونس ، زيادة على الألحان التقليدية المشار اليها ، الألحان العراقية الشعبية التي لاتزال آثارها في انواع من الغناء الشعبي التونسي تسمى بالصالحي واغاني الجريد وهي تشبه العتابا والموال العراقي .

الموسيقا الصنهاجية

لقد حدثت في الشمال الافريقي ولا سيا في تونس ثلاث حوادث فنية غيرت وجه الفن

(١) التزم مسرح الفنون الشعبية في سورية هذه الآلات دون غيرها من الآلات الغربية الدخيلة كالكمان ومشتقاتها .

في الشمال الافريقي . فان تكاثر البربر جعل الطغيان للموسيقا البربرية . ثم جاء الهلاليون بالالحان البدوية الموزونة التي منها الملزومة والقسيم والمسدس والعرف ، فانتشر هذا النوع من الغناء والموسيقا في البوادي مصحوبا بالشبابة والرباب والدف . واخيراً جاءت الاغاني الاندلسية المركبة على الموشح والزجل في عهد الصنهاجة ، وقد جاء بها الموسيقار الشاعر المؤرخ امية بن عبد العزيز بن الصلت . وقد ورد ذكر امية في معجم الادباء لياقوت على أنه هو الذي جلب الموسيقا الاندلسية الى تونس .

وكانت الموسيقا الاندلسية قد تحولت من القصيدة ذات الوزن الواحد والقافية الواحدة والمنشد الفرد ، الى الموشح الذي له اوزان وقواف متعددة ، يؤديه منشد مع جوقة تردد مقاطع من غنائه . وكان من أثر تعدد الاوزان والقوافي دفع السأم والملل وخلق مرونة في الجملة الموسيقية ، ومن أثر تعدد المغنين تغيير نبرات الغناء ، وكان المنشد يردد غصن الموشح في حين تردد الجوقة البيت ، فتكون بذلك مفارقات صوتية بين الفرد والجماعة والثقيل والحاد .

وكانت الموسيقا الاندلسية أقوى هذه الحوادث الفنية وأبقاها أثراً .

الموسيقا الحفصية

ولما سقطت اشبيلية في الاندلس سنة ١٢٧٣ ميلادية ، وكانت اشبيلية عاصمة الفن في الاندلس كما هو شأن فيينا عند الاوربين ، انتقل اهلها بفنهم الى البلاد التونسية فازدهر فيها الفن .

وقد عقد عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته فصلاً عن الموسيقا وتاريخها والموشحات والازجال يلقي ضوءاً ساطعاً على الموضوع ، كما الف محمد الظريف المتصوف (ناعورة المطبوع) أي جدول المقامات الاندلسية ، وعرف النوبة التي هي وحدة غنائية في مقام واحد تتألف من (مصدر) كالمدخل الموسيقي و (برول) وهو قسم الموسيقا الراقص .

ومما يذكر أن الموسيقا الأندلسية تضمنت ما يسمى الخرجة ، وهي ابيات اوزانها وقافيتها عربية ، ولكن كلامها بالاسبانية ، يتغنى بها نصارى الاندلس بالمعاني العربية نفسها وقد الف (غيوم دا كيتان) موشحاً باللغة الفرنسية القديمة جعل له خرجة بالعربية ، فيها جنوح إلى الغرام العذري .

وفي العهد الحفصي ايضاً نشأت موسيقا الطرق ، كالشاذلية (موسيقاها بسيطة) والقادرية والسلامية (موسيقاها مركبة) وانتشرت كذلك الأغاني المولدية والبردة والهمزية .

الموسيقا المرادية

حدث في عهد المرادين حادثان موسيقيان **الأول** ظهور الموسيقا التركية بظهور الأتراك ، نفسهم وهذه على أقسام .

١ – **دينية** ، وقد غيرت لحن الأذان في الجوامع الحنفية وطريقة ترتيل القرآن ، كما أحدثت الحان الطرق كالمولوية والبكتاشية .

٢ – **عسكرية** وهي طبال الباشا المعروف بمهتار باشا ، والموسيقا النحاسية ، والصنوج المصحوبة بالقبعة الصينية وذيل الحصان ، والمارش العسكري ، وموسيقا القراة البحرين .

٣ – **الموسيقا المدنية** : وهي البشارف على الخصوص والموشحات ذات التراكيب والحلاجين الشرقية .

وصارت الموسيقى العائلية جزءاً لازما لحياة العائلات التركية او الكوروغلية او المشتركة لان الثقافة الموسيقية من مشمولات الثقافة العائلية التركية .

والحادث الثاني قدوم مهاجرة الاندلس بعد سقوط غرناطة واخراج البقية الباقية من العرب من الاندلس وظهور الفن الموسيقي الغرناطي المعروف في تونس بالمألوف اي الفن المحفوظ الكلاسيكي وانتشر هـذا الفن بصيغ مختلفة في المغرب والجزائر وتونس وليبيا بحسب الجهات التي قدم منها المهاجرون وبحسب الاستساغة المحلية كما انه انقسم بتونس نفسها حسب المدن والقرى الاندلسية . فهو في تستور غيره بالعاصمة لا سيما وان العاصمة مزجت بين الفن التركي والفن الاندلسي ، اما تستور ففنها صرف . وينقسم الفن الى ١٣ نوبة بعدد الطبوع « المقامات » وتتركب النوبة من حيث اللفظ من قصائد وموشحات وازجال ومن حيث الطروبات الى بطيء (بطائحي) وسريع (برول) ومن حيث جموت الاصوات الى شائب (ثقيل) وشباب (حاد) وتراث الموشحات والأزجال الغنائية التي جاءت من الاندلس يوجد مجموعا في مدونة تسمى « الروضة الغناء في فن الغناء » تعرف فيها المغاربة والجزائريون والتونسيون حسب هوائهم . فتجد الفصل الاول من الموشح عند المغاربة والثاني عند الجزائريين والثالث عند التونسيين . ثم ان الملك الحسيني الثالث محمد الرشيد جمع المألوف على الطريقة الجزائرية بعد مزجه بشيء من الفن التركي وجاء احمد باي الاول فعقد لجنة مركبة من الموسيقار الايطالي فردي والموسيقار التونسي احمد الاصرم . فضبط فردي الفن الاندلسي بالعلامات وحرر احمد الاصرم دراسة في تاريخ الموسيقا واحوالها . وفي سنة ١٩١٥ ظهر المستشرق الانكليزي البارون درلنجي فجمع المألوف من جديد وضبطه بالعلامات . والفضل يرجع الى مساعديه الشيخ احمد الوافي والاستاذ المنوبي السنوسي .

وفي سنة ١٩٣٤ اسس معهد لحفظ التراث الموسيقي التونسي يسمى الرشيدية وقد جمع الفن الاندلسي والموسيقى الشعبية وبث الذوق الفني السليم ، وأحدث المعهد متحفاً ومكتبة ومدرسة فنية تخرجت منها طبقات عديدة . والفن الاندلسي حر وديني فالفن الحر هو الذي في الغرام البشري

والفن الديني هو الذي في الحب الأهلي فتجد نفس القصائد والموشحات والأزجال مركبة على المعاني الصوفية حسب الطرق . واشهرها الطريقة العزوزية نسبة الى زاوية سيدي علي عزوز بتونس وهي مدرسة لاخراج الفنانين الدينيين من مؤذنين ومجودين وتلاة بردة وهمزية ومولديات والمألوف العزوزي .

الموسيقي الحسينية :

وهي لا تختلف عن الموسيقى المرادية ، ولكن مدرسة (باردو) الحربية الجامعة للفنون ادخلت الموسيقا الحماسية العصرية والاناشيد العسكرية ، ثم بدأ التأثير المصري والشرقي عامة يظهر في التلاحين بما حملته الجوقات الشرقية والاسطوانات وفرق التمثيل واشرطة السينما والاذاعات من آثار زادت وضوحاً على الأيام .

الموسيقا في عهد الاستقلال التونسي

حصل انقلاب واضح في الموسيقى التونسية بعد الاستقلال يتبين لنا ذلك اولا في التلاحين الوطنية سواء الاناشيد الرسمية او مدائح الزعماء والمجاهدين او اناشيد الحوادث مثل مجموعة الاناشيد التي الفت بمناسبة غزوة بنزرت المستقطعة .

الظاهرة الثانية هي تأسيس المعهد الموسيقي التونسي الذي يحرس على سواء الموسيقى العربية او الموسيقى الاوروبية .

الظاهرة الثالثة هي انشاء ـ مصلحة الفنون المستطرفة يشرف عليها تونسي يشار اليه بالبنان في هذا الميدان وهو الاستاذ صالح بن مهدي الذي لمستوى رفيع في الثقافتين الادبية والموسيقية وقد شارك في المؤتمرات الفنية الدولية وسار بالفن التونسي خطوات شاسعة الى الامام وبعث الفن الفولكلوري من مرقده ودون مجموعة الاغاني التونسية واخرج طبقات من الفنانين المثقفين ودعته بعض الحكومات لتنظيم فنونها .

الظاهرة الرابعة هي استقلال الاذاعة الوطنية التونسية وقيامها بمشروع جبار لاحياء الفنون وانشاء تلاحين جديدة وانتخاب الاجواق المقتدرة وبث الثقافة الموسيقية في الطبقات . وقد اعتنت بالمألوف كما اعتنت بالاغاني الشعبية واهتمت باستخلاص الفن التونسي الصرف كما اهتمت بنشر الفن العربي او الاوروبي وبانشاء التلاحين الوطنية واحياء الفن الديني بصورة تذكر فتشكر .

جدول الموسيقى التونسية الحاضرة

هذه الموسيقى تشبه مخروطاً قمته المألوف الاندلسي وقاعدته الموسيقى الفولكلورية الشعبية وما بينهما نجد (الفوندو) أي الاغاني التونسية البلدية ، و (العرضاوي) الذي جاء من صعيد مصر ، والاغاني الدينية وأناشيد المولد والاناشيد السلامية وغيرها .

وفي تونس لاتزال آثار الاقطار العربية تبدو في المناطق المختلفة فموسيقا الجريد تحاكي موسيقا العراق ، وموسيقا الجهات الشمالية الغربية تحاكي موسيقا اليمن ، وموسيقا الجهات الشمالية الشرقية تحاكي موسيقا بلاد الشام ، وهلمجرا .

والمألوف التونسي ، وهو قمة المخروط كما ذكر يشبه الموشحات السورية بعض الشيء ، والارجح أن الموشحات الاندلسية انتقلت الى المشرق عن طريق تونس ، وكان محي الدين بن عربي استاذ جلال الدين الرومي شيخ المولوية هو الذي نقل الموشحات الى قونية مقر هذه الجماعة . ويمتاز المألوف عن الموشحات السورية بأنه اقل استخداماً للاوزان المركبة المعقدة التي نظم عليها المتأخرون ، واقرب الى الهدوء والجلال ، بالاضافة الى بعض الفوارق التي تهم المختصين وقد يطول شرحها في مثل هذا المجال .

الخلاصة

هذه لمحة عن تاريخ الموسيقا في تونس ، لاتكتمل ان لم تعالج بقية الفنون الشعبية في هذا القطر العربي الحبيب في موضوع ثان . على انني اخرج مما تقدم بنتيجة كبيرة ، وهي أن صلة تونس بالفن الاندلسي كانت صلة وثيقة ومباشرة ، فدراسة الفن التونسي مفتاح للفن العربي المزدهر في الفردوس المفقود . وقد صرفت مصلحة الفنون المستظرفة اهتماماً كبيراً للموسيقا العربية القديمة يتناسب مع أصالتها واقبال الشعب التونسي عليها ، ولا ريب في أن التعاون الثقافي بين الجمهوريتين السورية والتونسية سيعطي ، في هذا الميدان وغيره ، أفضل الثمار .



المسرح في اليابان

قديماً وحديثاً

تلخيص : طارق الشريف
عن : ك . ب . شينكوكاي



فرقة يابانية تقليدية
تقدم احدى حفلاتها في البلاط

يتميز المسرح الياباني (١) عن المسارح الأخرى في العالم ، بعدد اشكاله وتنوعها ، وارتباط هذه الأشكال بالحياة اليابانية العريقة القدم ، ويعتبر المسرح الياباني بمثابة متحف يضم كل تقاليد اليابان ، هذه التقاليد التي يفخر بها اليابانيون ويتناقلونها من جيل الى جيل .

ومن الواضح أن الاشكال المتنوعة للمسرح الياباني قد اثرت بعضها في البعض الآخر على الرغم من أن لكل نوع منها مصدراً يختلف عن مصدر الآخر ، وهو من نتاج طبقة اجتماعية تختلف عن الطبقة التي نما فيها المسرح الآخر .

المسرح الارستقراطي

ان اكثر أنواع المسارح عراقة في اليابان مسرح (البوجاكو) الذي يرتبط ارتباطاً اساسياً بالرقص والغناء التقليديين اللذين كانا يقدمان في المعابد اليابانية .

وهذا المسرح مدين للموسيقيين التقليديين (الكاجاكو) الذين استطاعوا أن يساهموا مساهمة بعيدة في تطويره .

وقد بلغ هذا المسرح ذروة تقدمه بين عامي (٧٩١ — ١١٦٢) في عهد سيطرة البلاط الامبراطوري والطبقة الارستقراطية التي كانت تحكم اليابان فعلاً .

ومع تدهور نفوذ هذه الطبقة وحلول طبقة عسكرية محلها، تدهور هذا المسرح وبدأت الكوميديا الشعبية تحل محل الرقص التقليدي الذي كان منتشراً في بلاط الأسرة الحاكمة وبيوت الأسر النبيلة . ونتيجة لازدياد نفوذ الطبقة العسكرية التي حكمت أخذ الاقطاع ينتشر ويسيطر وأصبح الغنى وكبر الملكية أكثر أهمية من النبل وعراقة الأصل .

(١) نشرت هذه الدراسة في كتاب نحو ثقافة يابانية .

المسرح العسكري

ومع قيام الحرب الأهلية اليابانية (١٥٦٥ — ١٦٦٠) انهار المسرح الراقص نهائياً إذ أن الحرب بما خلقته من اضطرابات وفتن دفعت المشرفين على المسرح إلى التفكير بوسائل ترفيهية تضحك الطبقة الحاكمة والجمهور، ونشأ نتيجة لهذا مسرح (الكوميديا الشعبية) أو ما يسمى بمسرح (نوح).

مسرح التجار ؟!

وبعد انتهاء الحروب وحلول السلام انتهى نفوذ الطبقة العسكرية، وبدأت طبقة التجار تستولي على الحكم شيئاً فشيئاً، وبدأ المسرح يتطور تبعاً لتبدل الحكام وتطور المجتمع. ومن هذه المرحلة نشأ مسرح (الكويوجين) الذي يمكن اعتباره نوعاً من انواع مسرح (نوح) وقد تطور ليلائم أوضاعاً اجتماعية جديدة

ومسرح (الكويوجين) يعتمد اعتماداً كلياً على الحوار بين شخصيتين أساسيتين، ويهدف للترويح عن النفس وهو صلة الوصل بين مسرح نوح ومسرحي الطبقة البرجوازية (الكابوكي) و(البونراكو).

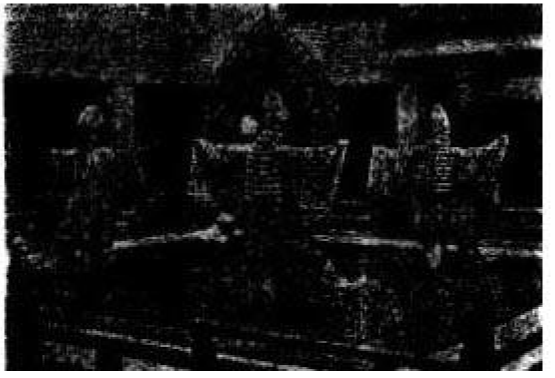
المسرح البرجوازي

نشأ مسرح (الكابوكي) كمسرح نوح من طبقة اجتماعية شعبية إذ أن امرأة تدعى (او كونو) وهي راقصة شعبية وضعت أسس هذا المسرح على أساس أن المشتركات في تقديم مسرحياته جميعهن من النساء وتقوم النساء فيه بكل الادوار بما فيها ادوار الرجال. ولم تكن الغاية التي انشأ من أجلها هذا المسرح فنية بحتة في البداية، إذ أن مسرحياته جميعاً تنتهي جنسية أو عاطفية. واهدافه لا أخلاقية في أغلب الأحيان، وموجه بصورة خاصة لمجتمع يحب لذته ويقدمها على كل شيء.

أما مسرح (البونراكو) فهو شديد الشبه بمسرح العرائس لكنه يختلف عن المسرح الشائع للعرائس بضخامه (اللعب) المستخدمة فيه، إذ يحتاج تحريك اللعبة إلى ثلاثة أشخاص.

المسرح المعاصر

بدأت الثقافة الغربية تؤثر في اليابان



البوجاكو

يؤدي بعض الرقصات على مسرحه

منذ عام ١٨٦٨ ، إذ تأثرت اليابان بالثقافات الحديثة وبالمسرح الحديث . ولعل أول تأثير للمسرح العالمي كانت نتيجته تطور مسرح (الكابوكي). فقد تأثر هذا المسرح بالرومانتيكية التي صادفت نجاحاً كبيراً .

ولكن مسرح (الكابوكي) بدأ يواجه الجيل الجديد الذي نشأ حديثاً ، وقد خلقت الظروف الاجتماعية الجديدة مسرح اليابان الجديد (سوشي شيباي) الذي هو بمثابة تقليد للمسرح الغربي .

وهذه الحركة الدرامية الحديثة بدأت عام ١٩٠٧ بعد أن تخلصت نهائيـــاً من سيطرة (الكابوكي)وبعد أن مرت بمرحلة انتقالية تهتم بروائع المسرح العالمي. ولكنها واجهت تطوراً صعباً وظروفاً عصيبة لأن جمهورها محدود جداً ، ولكنها تعتبر أحد أوجه المسرح في اليابان اليوم .

« البوجاكو » أو المسرح التقليدي

تعتبر (الكاجاكو) أقدم انواع الموسيقى التي ظهرت في القرن الثامن الميلادي ، وهي التي يطلق عليهـــا اسم الموسيقى اليابانية التقليدية ..

وهذه الموسيقى بدأت منذ ظهورها ترافق (البوجاكو) الذي كان يقدم مسرحياته في البلاط الامبراطوري وقصور النبلاء (انظر الصورة رقم ١)

ومن امتزاج الموسيقى التقليدية مع الرقص الذي يدور حول فكرة معينة نشأ مسرح (الكاجاكو) الذي مازال

حتى اليوم موجوداً على نطاق ضيق جداً في البلاط الياباني ويقدم في المناسبات .

ويقدم (البوجاكو) عادة على مسرح خشبي مربع (انظر الصورة (٢)) طول ضلعه سبعة أمتار . ومحاط من جوانبه الأربعة بحاجز خشبي ويوجد في الجانب الخلفي منه درج يستعمل للدخول إليه .

ويجلس الجمهور حول المسرح وعلى اطرافه الثلاثة بينما يبقى الطرف الرابع خلف المسرح حيث يجلس الموسيقيون أحياناً . وإذا قدمت احدى الحفلات في الهواء الطلق ينتقل الموسيقيون إلى نفس المسرح كي يستطيع الجمهور سماعهم .

يقسم الراقصون في المشهد عادة الى قسمين قسم يميني وقسم يساري وتتباين الوان ثياب القسم اليميني عن اليساري ، إذ يرتدي اليمينيون البسة خضراء أو صفراء أما اليساريون فيلبسون ألبسة حمراء دوماً . ويضع الراقصون على رؤوسهم قبعة من القماش تشبه الطائر ، ويؤدي المسرحية عدداً من الاشخاص يتراوح عددهم بين (٢) أو (٤) أو (٦) وأحياناً واحد



القناع الذي يستخدمه « نوح » في مسرحه



— ٤ — لعبة من مسرح «البونراكو» مع الشخص الذي يحركها

أما الآلات المستعملة فهي بدائية جداً ويرافق كل قسم من القسمين نوع من الآلات يختلف عن الآلات التي ترافق الآخر.

ان قيمة هذا المسرح تاريخية بحته، وقد أثر تأثيراً كبيراً على المسرح الياباني، ولكن من الصعوبة بمكان ان نعتبره ممثلاً للمسرح الياباني الحقيقي.

مسرح نوح أو المسرح الراقص

نشأ (نوح) في طبقة شعبية، كفن متجول، وحين وطد دعائم مسرحه بدأ يعتبر من كبار الممثلين في اليابان. ومسرح (نوح) يختلف اختلافاً كبيراً عن المسرح التقليدي، وتقسم المسرحية عادة الى خمسة أقسام تقدم معاً في أغلب الأحيان:

١ — الجزء الديني: يهتم بالآلهة وأحاديثهم

٢ — الجزء العسكري: يولي المعارك الحربية اهتمامه وعلى الأخص الأبطال العسكريون.

٣ — الجزء النسائي: ويمثل هذا الجزء مسرح نوح الحقيقي، ويركز اهتمامه على امرأة تقوم بالدور الرئيسي فيه، وهو الجزء الذي يلبغ مرتبة فنية عالية.

٤ — الجزء الواقعي: ويتحدث عن

اشخاص حقيقيين وليس عن اشباح اشخاص اويهدف لتصوير واقع معين .

٤ ــ الجزء الخامس : يعتبر بمثابة الحركة الأخيرة في المشهد ويتضمن في اغلب الأحيان حكمة معينة يراد ترسيخها في أذهان المشاهدين .

وتقدم المشاهد على مسرح بدون (ديكور) وعلى أرض خشبية ، ويقدمه في أغلب الأحيان راقص واحد يرافقه بعض الراقصين الفرعيين ، وأقصى عدد يصل إليه مقدمو البرنامج ثلاثة أشخاص.

أما الموسيقيون الذين يساعدون على تقديم المشاهد فيبلغ عددهم ثلاثة يضاف اليهم بعض المغنين ، والموسيقى في المشاهد ليست مقصودة لذاتها بل كعامل يساعد الراقصين والممثلين على تأدية أدوارهم .

ولنوح تقليد أساسي أصبح عادة متبعة في كل المشاهد التي يقدمها ، وهذا التقليد هو ارتداء قناع خاص يضعه كل الممثلين على وجوههم . (انظر الصورة رقم ٢)

الكويوجين أو مسرح الحوار

يختلف مسرح (الكويوجين) عن مسرح (نوح) اختلافاً كبيراً على الرغم من أن المسرحين قدنشآ من مصدر واحد وهو الطبقة الشعبية .إذ أن (الكويوجين) يعتمد على الحوار ، والكوميديا ، والنقد اللاذع ، وهو يشبه مسرحيات (الفارس)، وهذا المسرح يتباين مع مسرح (نوح) الذي يعتمد بشكل أساسي على الموسيقى والغناء .

وبعبارة أخرى إن مسرح (نوح) ومسرح (الكويوجين) يتكاملان إذا قدما معاً إذ يشاهد المتفرج الرقص والغناء والكوميديا والنقد ويسمع الحكم .

إن الطابع الأساسي (للكويوجين) هو الطابع الواقعي ولكن التطور الذي خضع له والتأثر بالبيئة الاستقراطية قد غيرا من اتجاهه ، فأصبح (الكويوجين) المسرح النقدي الحقيقي ، يرافقه الرقص أحياناً كي يجذب المشاهدين ويرفه عنهم .

ولا يستخدم الوسائل المسرحية والحيل التي شاعت في المسرح الياباني كثيراً ، وإن اعتمد على الموسيقى والغناء لكنه يستخدمها بشكل يختلف عن استعمال (نوح) لهما .



— ٥ — فتاة في مسرح الكابوكي ..

وهو أكثر صلة بالطبقات الشعبية بينما تطور (نوح) كي يرضي الطبقات الموثرة.

مسرح نوح ينقسم إلى أقسام عديدة وتظهر في كل مسرحية وبشكل أساسي شخصيتان (السيد) الذي ينتقد و (الخادم) الذي يرافقه ، وتمثل هاتان الشخصيتان الدورين الأساسيين ، أما باقي الأشخاص فادوارهم هامشية وهم قله في أغلب الأحيان .

ومن أشهر مسرحيات (نوح) مسرحية (بوشيارى) التي تمثل بشكل أساسي تقاليد نوح التي تطورت مع الزمن والأحداث . ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

« يستغل خادمان غياب سيدهما ليدخلا إلى قبو الخمر ليشربا منه نظراً لأن سيدهما كان دوماً يمنع عنهما الشراب، ويخشى السيد هذا فيعمد إلى ربط يدي أحدهما وراء ظهره ويدي الآخر على عمود خشبي فيتعاونان معاً ويتغلبان على الحبال ويصلان إلى القبو ليسكرا، ولكن سكرهما الشديد ينسيهما عودة سيدهما وهكذا يقبض عليهما » .

ورقص الخادمين وقد ربطت أيديهما هي المشكلة الأساسية في المسرحية وهي العنصر الكوميدي الذي يرغب الجمهور ويضحكه .

وتظهر بعض مسرحيات (الكويوجين) على شكل حوار مفهوم أكثر من الكلام الذي يتفوه به ممثلو مسرح (نوح) ، وقد تظهر شخصية (الكويوجين) التي أصبح لها طابعاً معيناً في مسرح (نوح) لتؤدي بعض الأدوار أو لتروي حوادث مسرحية سيرى الجمهور أحداثها .وهكذا أصبح (الكويوجين) الممثل الحيوي في المسرح الياباني أو الشخصية الفعالة التي ترتكز المسرحية عليها .

البونراكو أو مسرح العرائس

مسرح (البونراكو) من أشهر المسارح اليابانية ، وهو نوع قديم يعود تاريخ تأسيسه إلى ثلاثة قرون ، ويمتاز



فتاة تؤدي دور الرجل - الى اليسار

صورة من مسرحية حديثة يقدمها مسرح شيمبا . . .

بناحيتين أساسيتين أولهما (غياب الزمن) في المسرحيات التي يقدمها. وثانيها (الخيال الواسع) الذي يسيطر على اخراجها..

وشخصيات المسرح عبارة عن لعب تحركها الأيدي كمسرح العرائس الشائع، وهذا التحريك يؤدى بمهارة تجعل الجمهور يندمج مع اللعب تماماً . ويحاول محركو اللعب أن يعكسوا انفعالهم الداخلي بدون أن يراهم الجمهور لذا تبدو العواطف كأنها خارجة عن اللعب بالذات . وهذا هو سر سحر هذا المسرح، إذ تصبح اللعبة بعد فترة جزءاً من المحرك وليست عبارة عن أشياء خارجية حين تصبح لها حياة وشخصية بالنسبة للجمهور . (انظر الصورة رقم ٤)

وتساعد الموسيقى والغناء ايضاً على خلق الجو الدرامي إذ يرافقان المسرحية ويحاولان عكس تطور احداثها .

ولم يخلق (البونراكو) منذ البداية على شكله الحالي ، لكنه تطور ليصل لهذا الشكل ، فقد بدأ على شكل شخص واحد يحرك لعباً صغيرة ويحمل هذه اللعب التي وضعت في صندوق متحرك .

وتطورت هذه اللعب فيما بعد وأصبحت تمثل ثلاثة أضعاف حجمها وتحتاج الواحدة إلى ثلاثة اشخاص لتحريكها ، وقد أضيف الغناء والرقص بعد ذلك إلى العرض .

وبوجود المغنين والموسيقيين أصبح هذا المسرح شديد التأثير على الجمهور ، ولعل أهم مشكلة يواجهها هذا المسرح هي مشكلة التوفيق بين الموسيقى والغناء والحركات لأن الثلاثة يساهمون في تأدية المشهد في وقت واحد .

ويهتم كل محرك من محركي اللعب الثلاثة بجزء معين يحركه إذ يحرك الاول الرأس واليد اليمنى والثاني اليد اليسرى وجسم اللعبة والثالث يهتم بتحريك رجليها .

ويجب أن لا يغرب عن بالنا أهمية الموسيقى والغناء في تحريك اللعبة لاظهار العواطف والمشاعر التي يقتضيها الدور .

إذ أن على المغني أن يقلد اصوات النساء والرجال من مختلف الاعمار وعليه ان يعطي كل شخص نبرة معينة تميزه ، وعليه أن يعبر عن انفعالات الاشخاص كي تظهر

حيوية اللعبة ، لذا قد يضطر للبكاء احياناً، ويتحرك بعصبية احياناً اخرى ، ويؤدي كل الحركات المسرحية .

أما الذين يحركون اللعب فلا يتفوهون بأي كلمة سوى بعض الاصوات الضرورية لايجاد الأنسجام الضروري بين المغنين والموسيقيين من جهة وحركات اللعب من جهة اخرى .

لذا تبدو العناصر الثلاثة الموسيقى والغناء واللعب عناصر متكاملة تساهم في انجاح مسرحية (البونراكو) مسرح العرائس الياباني .

الكابوكي أو المسرح القومي الياباني

الكابوكي هو المسرح القومي الياباني المعاصر ، وانواعه متعددة واهمها ثلاثة الكوميدي والتراجيدي والراقص، وهذا المسرح يتمتع اليوم بشهرة عالية للقيمة الفنية الكبيرة التي توصل اليها .

وهو بنفس الوقت مسرح الطبقات الشعبية ، واقرب مايكون لمسرح (Shaw) في اوربا ، ولذا استطاع ان يعكس نتيجة الاتصال بالعالم التطور الذي بدأ يدخل اليابان بعد تماسها مع الغرب . ويمكن ان نلمس فيه بعض اللمسات (الرومانتيكية) التي أثرت على المسرحيات الاولى التي قدمها حين كان المتفرجون يفضلون أخلاقية طبقة المحاربين . واللمسات (التراجيدية) حين سيطرت طبقة التجار. ويعتبر (الكابوكي) اليوم أقوى مسارح اليابان وأكثرها شهرة . (انظر الصورة رقم ٥) .

وقد استفاد هذا المسرح من تجربة كل المسارح السابقة وبقي محافظاً على صفة معينة فيه لايمكن أن تكون قديمة عريقة ولا مجددة ناقلة ، وهذه الصفة لايماثلها في المسرح شيء آخر .

إن (الكابوكي) ليس مسرحاً فلسفياً ولا مسرح مثقفين أو ادباء انه المسرح الشعبي الذي يهدف للتسلية على أساس فني صحيح . ويعتمد (الكابوكي) على ناحيتين أساسيتين :

١ — المهارة .

٢ — حسن استخدام العواطف وتضخيمها .

وهو واقعي في اتجاهه لذا يقف على نقيض مسرح (نوح) ، ويعتمد اعتماداً كبيراً على الحركة إذ يقوم الممثلين بحركات دائمة ودون توقف وتزداد هذه الحركات قوة وشدة في كل لحظة ، وحين يهبط الستار وتنتهي المسرحية تصل هذه الحركات الى أعنف لحظاتها .

فالتاجر الذي يود اظهار غضبه يقوم بتحريك يديه وأصابعه كأنه يريد أن يستجدي القوة ، وهذه الحركات هي التي توحي بالغضب الذي تملكه .

وقد حدثت في عام (١٧٨٥) ثورة هامة في المسرح الياباني إذ ظهر المسرح الدائري والمسرح المتحرك الذي يمكن اخفاء جزء منه بواسطة مصعد ، ويمكن المخرج من استخدام هذه الميزه لرفع الممثلين أو بعض تجهيزات المسرح اثناء التمثيل .

وأدى هذا التطور الى ادخال تغييرات كبيرة على (الكابوكي) ولكن أهم عقبة يواجهها هذا المسرح هي :

« كيف يستطيع ان يحافظ على طابعه كمسرح قومي شعبي ياباني يعبر عن الاحساسات الاجتماعية التي تطورت اليوم كثيراً نتيجة التفاعل الحضاري ويبقى أميناً بنفس الوقت للتراث المسرحي الياباني » .

المسرح الياباني الحديث ؟!

نشأ المسرح الحديث في اليابان نتيجة التماس المباشر وشبه الكامل مع المسرح العالمي ، ويعتبر (الشينغيكي) اكثر المسارح اليابانية صلة بالمغرب . والشينغيكي تعني باليابانية المسرح الحديثة ، وقد بدأت هذه الحركة في عام ١٩٠٠ وهي حركة مضادة للكابوكي ، والمسرحيات التي اعتاد هذا المسرح على تقديمها إما كلاسيكية أو حديثه . إذ قدم شكسبير وابسن وتشيكوف وغوركي وتنسي ويليامز وانج وأنوي وسارتر . هذا بالاضافة إلى مسرحيات كتبها اليابانيون .

وأكبر نجاح حققه هذا المسرح من وجهة نظر فنية ومن وجهة إقبال الجمهور عليه يعود إلى المسرحيات المترجمة التي قدمها .

وقد نشأ حديثاً مسرح (الشيمبا) ويعتمد هذا المسرح على المسرحيات

الميلودرامية التي تتحدث عن الحب بين شاب وفتاة من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين ويخلق مواقف مسرحية اذ تقف العوائق الاجتماعية دون زواجهما وتنتهي بالتقاء الحبيبين ، ويتأثر (الشيمبا) اليوم كثيراً بالمسرح الغربي الحديث . (انظر الصورة رقم ٦) .

ومن مزج مسرح (الشينغيكي) أو المسرح الحديث مع (الكاجاكو) أو المسرح التلقيدي ظهرت انواع جديدةمن المسرح استطاعت ان تحظى بتأييد جمهور واسع ، ويقدم مسرحيات تقليديةفي قالب عصري ، وهذا المسرحهو المفضل عند المثقفين اليوم .

اما المحاولة التي يسعى المسرح الياباني اليوم لبلوغهـا فتتلخص في الوصول الى خلق دراما يابانية حقيقية بجذورها التقليدية وطابعها المعاصر ، وهذا هو حلم المستقبل بالنسبة لكل تجربة المسرح اليـــابانـي المعاصر .



كيف نفهم الفن ؟

فن التصوير

القسم الاول

بقلم : هيلين غاردنر

ترجمة : الدكتور قتيبة الشهابي

يختلف مفهوم الفن عند الناس ، باختلاف طبيعة كل منهم وتكوينه ، فبعضهم يفضل الموسيقى على غيرها من الفنون لأن الايقاع والنغم عندهم أداة تعبير تنبع من أصالة النفس . بينما يفضل الآخرون الرسم لأن اللون هو انعكاس جمالي للأشياء المحيطة بهم والتي يحيونها كل يوم ، مع ان اللون هذا لايشكل إلا عنصراً واحداً من مجمل عناصر اللوحة وليس الا أداة تعبير مفردة في يد الرسام ، في حين يكون الخط ، والنور والظل ، وسائل اخرى متممة لاتنفصل عن اللون في التكوين الفني بل تشكل معه ارتباطاً وثيقاً ضمن الاطار العام .

ومع ان الرسام لايملك كتلة « Mass » تمكنه من اظهار البعد الثالث (العمق) — كما يملك النحات او المعمار مثلاً — فانه يضطر الى خلقه على السطح المنبسط الورقي او القماش بشكل إيحائي بحيث يظهر حقيقياً في اغلب الأحيان ، وبهذه الوسائط المحدودة — الخط ، النور والظل ، اللون — يبدع الرسام اشكالاً وحجوماً وفراغات يجمعها رباط وثيق ضمن أبعاد ثلاثة (طول — عرض — عمق) على وجه مسطح ، أوليس الرسم يبدو بعد هذا محدوداً اكثر من الفنون الاخرى ..؟ وعلى النقيض من ذلك فانه أشد ليونة ومرونة ، واقدر على خوض مجالات واسعة في المواضيع والتعبير ، لان الرسام كثيراً مايقدم بنجاح ، إيحاء بالحركة المستمرة التلقائية ، بينما لايستطيع النحات الا تشكيل

رأس العرافة

ميكل انجلو

لوحة جدارية في كنيسة السكستين



حركة ساكنة . وهذا مايعطي الرسم أفضلية حركية ، الا انها افضلية خطرة في نفس الوقت ، اذ بينما تهب مدى اوسع للتعبير ، فانها قد تكون انحداراً الى مستوى النقل المجرد للطبيعة كما هي ، بصرف النظر عن مجموعة الاحاسيس العاطفية للرسام . والسؤال الآن : هل يحتم الرسم على الفنان ـ عند اختيار نوعية الموضوع ـ موضعاً معيناً او طريقة عمل محددة كما يفرض النحات او المعمار ؟ الواقع غير ذلك لان الرسام يتفاعل تلقائياً وبشكل عفوي فجائي مع مؤثر آني أو حادثة ولدت الآن ، لا كما يحدث عندمايشرع المعمار ، أو النحات في اقامة بناء او تمثال ، فهنا تتدخل لغة الارقام والدراسة الموضوعية المسبقة للمشروع قبل بدء التنفيذ .

والرسم بعد ذلك أعرق انواع الفنون قدماً واسبقها الى الظهور بظهور الانسان الاول . فرسوم جدران الكهوف انجزت قبل ان يتعلم البناء او حتى يفكر في عمل تمثال . ومنذ ذلك الوقت ، لم يزل الرسام في كل انحاء اليابسة يحاول ابداع الاشكال الجديدة بنفس الوسائل التقليدية : ـ الخط ، النور والظل ، اللون ـ على سطح منبسط .

الخط : هو اداة تعبير غنية بالمعاني والاشكال ، منه الدقيق المنمق والخشن المشرشر ، ومنه المتموج والمستقيم ، المرتعش والثابت المتين ، المنكسر وغير المنكسر ، المنساب والمزوى ، وهذه الخطوط جميعاً تكون نتيجة جزئية لنوعية الاداة المستعملة في الرسم ، بينما تعود البقية الى رد فعل لعاطفة الرسام ومدى سيطرتها على يده اثناء العمل .

والخط ايضاً ، مهما اختلفت نوعيته لايخرج عن كونه مستقيما اومتكسراً ، منقطعاًاومستمراً ، منحنياً او مشدوداً ، افقياً اوعامودياً ، مائلاً اومتقاطعاً ، ولكل من هذه الاشكال اهميته ومدلوله ومعناه ، اذ بينما يوحي الخط الافقي بالسكون والراحة والاطمئنان يكون الخط العامودي مصدر احساس بالحركة التي تصور العظمة والقوة والجبروت . وفي حين يقدم الخط المنحني شعور اللين والمرونة يظهر المنكسر اضطراب العواطف والانزعاج والقلق .

وكيفما كان اتجاه الخط فانه قد يتقطع في حركته بشكل يجعله مرئياً هنا وضائعاً هناك . متجمعاً في عمق الصورة متفرقاً في بدايتها ، واضحاً في هذا الموقع مبهما في ذاك . أو قد يكون مجموعة احساسات شعورية ولا شعورية بوجوده او بعدمه ، وقد يواكب في سيره بعض الخطوط الاخرى او يختلف معها فيخلق اشكالاً ومساحات رائعة المعنى والتعبير .

الظل والنور : للظل والنور أهمية كبرى في مجال العمل الفني لأن مسؤولية تباين الاشكال والمساحات تقع على عاتقهما اكثر مما تقع على عاتق الخط المفرد أو حتى مجموعة الخطوط .

تبدو بعض الالوان أشد ظلمة أو نوراً من الالوان الاخرى . فالاصفر لون النور والازرق لون وسط بين النور والظل بينما اللون الاحمر عاتم التأثير ، وقد يؤدي اللون الواحد احياناً الى احداث الايحاء بالنور والظل عند اختلاف درجة قوته بين الفاتح والغامق .

أما قضية انارة الاشكال في اللوحة ، فيختلف حسب شدة المنبع الضوئي أو عدم شدته ، وهذا مايكسب الموضوع تأثير العمق والحجم والبروز .

اللون : هو واحد من أقوى عناصر التأثير والتعبير في العمل الفني ، ويحدث تأثيره هذا بعوامل غريزية (فيزيولوجية) صرفة تتحول في العقل الى جملة احاسيس ومشاعر ، فالأصفر مثلاً يؤدي الى تيقظ شعور البهجة في حين يهدىء اللون الازرق الاعصاب ويسكن اضطرابها ويعاكسه في التأثير هذا اللون الاحمر الذي يهيجها ويزيد من انفعالها .

وبهذا الشكل من الاستجابة الفيزيولوجية ، إضافة إلى الارتباط اللوني بالطبيعة الخارجية — كالابيض والاصفر للنور والضياء ، والازرق للسماء والبحر ، والأخضر للنبات والاصفر والاحمر للنار — حلت الالوان محل المعاني في لغة العواطف فالازرق يرمز للحب العذري والحقيقة والاخلاق أما الأحمر فللحب الجارف وللغيرة والحماسة والشهوة.

إن اختلاف قوة اللون تبعاً لاختلاف صفاته



رأس سيدة

لفنان مجهول من فلورنسا

لوحة مرسومة بطريقة التيمبرا

الطبيعية ـ الاحمر والاصفر الوان حارة وبارزة والأزرق والأخضر باردة عديمة البروز ـ خلق للفنان مشكلة دقيقة عند الاختيار ، لأن عليه أن يدرس كل واحد على حدة اولاً ثم علاقته مع الالوان الاخرى ثانياً وبعد ذلك يقرر أي تناغم لوني «Harmony» سيستعمل واي تضاد «Contrast» سيختار حتى يخرج العمل الفني اكثر مايكون صدقاً في تصوير التعبير الذي يريد .

ما تقدم بحثه ، يعطي فكرة موجزة للامكانيات التي يستطيع الرسام استعمالها في عمله ، « الخط النور ، والظل ، اللون ، السطح المنبسط » . أما من أين تأتي الالوان ؟ وكيف يتم تثبيتها على السطح بشكل دائم ؟ . هذا هو الموضوع الذي سيأتي ذكره الآن ..

الى وقت قريب لم يكن الرسام ليستطيع شراء الالوان المعبأة في المواسير المعروفة الان والجاهزة للاستعمال ، بل كان يضطر الى تحضيرها بنفسه بسحق الأصبغة الخام ومزجها بالزيت او بغيره للحصول على اللون والقوام الذي يريد . اما مصدر الاصبغة فعناصر التربة الطبيعية والنبات والفلزات المعدنية أو أنها كانت تركب اصطناعياً . وقد أعطت الارض الالوان الحمراء والصفراء والبنية بحالة أتربة مشوبة بالحديد يستخلص منها اللون بسحقها وغسلها . أما خامات النحاس ، فواحدة من أهم

مصادر الأخضر والازرق، ويعطي حجر الازورد بعد سلسلة طويلة معقدة من التفاعلات الكيميائية لون أزرق البحر الفني الجمال ، ويعطى الاحمر القرمزي والاحمر القاني من الزنجفر أو يركبان اصطناعياً ، في حين يستخلص الاسود من الفحم الناتج أثر حرق الخشب او العظام أو الشحم او غير ذلك من المواد . وما زال الانسان بعد ذلك يحاول ويحاول في سبيل اكتشاف مصادر لونية غنية أخرى

والسؤال الان : كيف يحول الرسام هذه المساحيق الصباغية الى حالة سائلة أو قوام لين يتمكن بعدها من حلها بالفرشاة وتثبيتها على اللوحة بشكل دائم ؟

الواقع أن هناك طرقاً عديدة مختلفة الوسيلة والتعبير هي :

« التصوير الجداري ـ التيمبرا ـ الالوان الزيتية ـ الالوان المائية »

التصوير الجداري Fresco : هو فن قديم منتشر في انحاء كثيرة من العالم ، يقوم الرسام فيه بالتصوير على سطح جدار مطلي بالجص الرطب بواسطة الوان ممزوجة بالماء بحيث لا يتخلل اللون عمقاً في الاساس بل يبقى قريباً من السطح حيث



البامبو في مهب الريح

فنان صيني

لوحة بالألوان المائية

يكون معه ـ نتيجة تفاعل كيميائي ـ جزءاً ثابتاً لاينفصل ، يبقى مابقي الجدار ويزول معه ان زال . ويعتبر العمل العظيم الذي قام به (ميكل انجلو) عندما صور خالدته (الخليقة) على سقف كنيسة السيستين ، اروع ما حققه الانسان المبدع في هذا المجال

ان الفنان الممارس لهذا النوع من التصوير ، يحتاج لمجهود ضخم لأن عليه أن يمزج الالوان ، ويهيء الاساس الجصي ، ويفرشه على السطح بطبقة متساوية الثخانة ، ثم يبدأ بالتصوير عليه بحالة رطبة ـ أي قبل ان يجف ـ بكل سرعة ممكنة وبطبقة واحدة من الالوان ، اذ ان الخطأ هنا لامجال له ، وقضية ثقة الفنان بنفسه قضية اساسية لأنه عندما يضع اللون في مكانه المطلوب عليه ان يكون متأكداً من انه هو اللون المطلوب، فلا مجال بعد ذلك من تغيره او ازالته اللهم الا اذا اضطر الى وضع لون آخر فيكون ذلك مرة واحدة فقط شريطة أن لايكون الاساس الجصي قد جف او تصلب . والتصوير الجداري بعد ذلك محدود الالوان ، أو نوعية الالوان على وجه أدق لأن مادة الكلس التي يتركب منها الجص لاتقبل التفاعل مع كل الانواع الصباغية .

ولأن هذه الطريقة من العمل الفني تتطلب سرعة فائقة في التصوير ، تتطلب جرأة وثقة ، تحتاج لعفوية ومراس كبيرين ، اضافة الى القيود اللونية التي ذكرت ، كان التصوير الجداري أشق انواع التصوير ، الا أنه في يد فنان عبقري ، عمل من اروع الاعمال الفنية الخالدة .

التيمبرا Tempera : تتصف هذه الطريقة بالتصوير على صفحة خشبية بألوان ممزوجة ببعض المواد اللاصقة كالصمغ او العسل او البيض ، ثم تمديدها بالماء . أما الاساس هنا فيكون بطلاء الصفحة الخشبية بطبقات عديدة من الجص العادي Plaster of paris ، ممزوجاً بالغراء بحيث تكون هذه الطبقات او كل طبقة منها متساوية الثخانة ، على ان تترك لتجف ثم تصقل وتنعم قبل وضع الطبقة الاخرى فوقها حتى تجيء الاخيرة صقيلة تماماً كالعاج .

يرسم الشكل المطلوب على ورقة منفصلة او موضوعة فوق اللوحة ومنها ينقل الى السطح ، او أن يرسم مباشرة على اللوحة ، ويجيء دور الالوان ، فاذا كان اللون الذهبي داخلا في اللوحة فيوضع اولا سواء في الارضية او في التفاصيل الدقيقة للشكل كالشعر او القماش او غيره . وبعد ان يجف يلمع بصقله وتنعيمه فيبقى محتفظاً بصفائه وبريقه ، ثم توضع الالوان حسب مقتضياتها بطبقات رقيقة ناعمة الملمس كي تجف بسرعة لأنها إن سالت ، شوهت لمسات الفرشاة الظاهرة وبدلت شكل الخطوط الواضحة . أما البقع الغامقة والظلال القاتمة فهي صعبة التحقيق هنا لأنها تحتاج الى مهارة في وضع طبقات متتابعة متساوية بلمسات رقيقة متجانسة . وبعد الانتهاء من التلوين تطلى اللوحة بالفرنيش عدا المساحات الذهبية وتترك في الشمس لتجف تلقائياً .

ومن الجلي هنا، أن المشاريع الكبرى كالتصوير على الجدار ، والزخرفة الواسعة لايمكن أن تنفذ



بهرام في الجناح التركي

مينياتور فارسي

بالوان التيمبرا نظراً للصعوبات التي تقدمت ومع ذلك فقد اعتبرت لوحات التيمبرا على صغر حجمها ، لوحات تزيينية اكثر منها تصويرية لأن لمسات الفرشاة غير الضائعة هنا تحقق دقة متناهية في اظهار الشكل اضافة الى ان الحدود الواضحة جداً للموضوع المرسوم تجسمه وتقربه من النحت. أما الظلال الخفيفة ، وعدم وجود تضاد شديد ، فهي التي تعطي اللوحة قالباً يبعد اشكالها عن البروز ويضفي عليها سطحاً مبائياً املس. اضافة الى ان الالوان هنا تكون اشد صفاءاً منها عمقاً بحيث يصبح النور الذي يخرق الغطاء الشاف للصورة ، والذي يعكسه الاساس الجصي مرة اخرى ، اعمق اثراً في خلق العمق والتألق والتناغم اللوني خصوصاً عند وجود لون الذهب.

غير أن صعوبات هذه الطريقة كسرعة جفاف الالوان ومشقة مزجها وعدم تباين النور والظل بشكل ظاهر ، قادت الفنان الى تجربة مركبات لونية اخرى اكثر مرونة وقابلية للتكيف والتمازج الى تجربة مواد تجف بسرعة معتدلة ، تمتزج بسهولة وتسيل بشكل معقول ، تقاوم عوامل الطقس كالرطوبة المختلفة الشدة التي تؤثر فيها اكثر من أي شيء فتؤكدها او ترجمها مشوهة بذلك العمل الفني .

ونتيجة هذه التجارب ، توصل الفنان الى التصوير الزيتي باستعمال الالوان الزيتية المعروفة الآن.

التصوير بالالوان الزيتية

Oil Painting :

ينقسم التصوير الزيتي الى فروع كثيرة يمكن تصنيفها بطريقتين ، مباشرة وغير مباشرة .

١ - الطريقة غير المباشرة : تتصف بقربها للتيمبرا ، لأن خطواتها الاساسية هي نفس الخطوات حيث يرسم الشكل بالتفصيل ، وتجسم النماذج باعطائها النور والظل بعد وضع لون الاساس الذي غالباً مايكون بنياً أو أحمر أو أخضر ، ويفضل أن تكون هذه الألوان عاتمة حتى تشكل أرضية طلية تتباين عليها الالوان والاشكال فيما بعد . وفوق هذا الاساس اللوني يبدأ العمل الفني النهائي بشكل طبقات رقيقة عديدة من الالوان المطلوبة الممددة بالزيت حتى يصبح القوام سائلا فتكون المساحات المطلية شفافة أو شافة يخترقها النور فتعكسه الأرضية القاتمة فيخلق بذلك الاحساس بالعمق ، في حين تظهر بعض الطبقات الاخرى عاتمة فتوحي بالتباين .

تجفف كل طبقة مذكورة قبل وضع الاخرى فوقها بترك اللوحة في الشمس زمناً كافياً ، حتى يتبخر الفائض من الزيت الذي إن بقي ، أدى الى اصفرار الالوان على مر الأيام .

٢ - الطريقة المباشرة : يحمل السطح في هذه الطريقة مسؤولية التأثير ، لأن الألوان هنا غالباً مايكون كثيفة غير شفافة ، قليلة لاتعكس النور الا بمقدار . وقد يوجد هنا اساس لوني او قدلا يوجد ، والموضوع مرسوم بشيء من الاستهتار ، والخفة ، اما اللون فلا يوضع بعد دراسة وتحديد النور والظل مسبقاً كما في الطريقة غير المباشرة ، بل هو الذي يظهرهما لوحده أي أن اللون هنا هو الذي يحدد بذاته الفروق بين الظل والنور كما يشعر به المصور في هذه اللحظة بحيث تكون طبقة الالوان مفردة ولاشيء تحتها الا السطح مباشرة . وللمسات الفرشاة اهمية كبرى لأن شدة التأثير يتوقف على جمال سطح اللوحة الذي قد يكون ظاهراً نتيجة رقة طبقة اللون فيبدو القماش تحته بكل تفاصيله ، أو أن يكون مغطى تماماً بسماكة لونية كثيفة ،وقد تكون هذه السماكة خشنة فتمسك النور وتعطي الظل مما يضفي على الاشكال المرسومة بعض البروز.

وهكذا كان التصوير الزيتي واسع الامكانيات والانطلاق . فاستطاع الفنان التحليق في اجواء التعبير والايحاء ، بكل الاساليب والوسائل والالوان ، أي أصبح التكنيك الفني أداة طيعة لينة في يد الفنان ، بعد أن كان هو طوعاً له (التصوير الجداري) ، وحلت القوة والعنف والغموض محل التجسيم المحدد ، والقيود اللونية المفروضة ، والاسلوب التقليدي في طرق التصوير السابقة .

التصوير بالالوان المائية

Water Colour Painting : هو مزج الأصبغة

بالماء ثم نقلها الى الورق بشكل شفاف يسمح لأرضية الورقة البيضاء غالباً بالظهور عبر الطبقة اللونية ، أو ان تترك في الورقة بقع لايغطيها الصباغ تكون أساساً للنور . قد تكون الورقة ملساء فتبدي اللوحة مظهراً لونياً متجانساً ، او تكون خشنة فتسبب تجمع بقع الالوان في بعض المناطق المنخفضة منها وافتقار المناطق الأخرى البارزة اليها ، وهذا مايعطي العمل الفني تأثيرا رائعاً في التباين بين السطوح النيرة والأخرى القاتمة خصوصاً عندمايرغب الفنان في اظهار مثل هذا التأثير .

تتميز طريقة التصوير بالالوان المائية بأسلوب طبقة اللون الواحد أي أن اللون يجب أن يوضع لمرة واحدة فقط عدا بعض الظلال التي يسمح باعادة تلوينها مرة أخرى فقط . وبمعنى آخر ان الفرشاة يجب ألا تمر فوق الورقة الا لمرة واحدة في كل منطقة ومساحة . وبهذه الطريقة يمكن الحصول على طبقة لونية متجانسة شفافة وهي أهم ماتتميز به اللوحة المائية التي تعتمد – كما في التصوير الجداري – على أسس ثابتة من العفوية والحيوية .

يكون تخطيط الشكل ، على وجه العموم ، بقلم رصاص وخطضعيف ولا قيمة له هنا إلا كرشد للفرشاة ذات الاتجاه الواحد اثناء العمل كي يبقى اللون محتفظاً بصفائه الرائع بحيث تجيء اللوحة تعبيراً عفوياً بسيط الاشكال بصرف النظر عن الدقة والتحديد .

يمكن استعمال الالوان الكثيفة في هذا المجال ايضاً بمزج اللون المائي باللون الابيض الكثيف الذي يحل محل بياض الورقة في اظهار النور . وفي بعض الاحيان ترصف الالوان الظلية والشفافة جنباً الى جنب للحصول على ارتعاش لوني تماماً كما يحصل عند وضع الطبقات النيرة والداكنة في التصوير الزيتي بالطريقة غير المباشرة . والتصوير بالالوان المائية بعد ذلك يعطي اللوحة تناغماً وتطابقاً رائع التأثير والتعبير .

ان كل واحد من هذه الاساليب والطرق المذكورة ، فن قائم بذاته بكل امكانياته ومجالاته وقيوده ، وكل أسلوب وطريقة هنا تحددها ميول الفنان ورغباته ، غير انها جميعاً لاتخرج عن كونها نوعاً من انواع كثيرة ضمن الإطار الفني العام . وما من فن سبق ذكره ، الا وانتج الروائع الخالدة والتي تعتبر ثروة قومية للأمة التي تملكها . لكن هذه الخصائص والميزات التي هي صفة رئيسية أساسية للعمل الخالد ، لاتتوقف على المهارة والعبقرية وحدهما ، بل تتطلب الكثير من حساسية العين ، والخيال الخصب ، والعاطفة الفياضة ، وأخيراً .. سرعة التجاوب والتكييف .

كتاب جديد

محافظة حماه

ان تاريخ هذه المحافظة انما هو جزء لايتجزأ من تاريخ البلاد السورية المرتبط الى حد بعيد بتاريخ الوطن العربي الكبير الذي ظل لحقبة مديدة من الزمن مهداً لحضارات عديدة ، توازعتها في ازمنة متلاحقة اقطار كل من سورية ومصر وبلاد الرافدين . تلك الحضارات التي رافقت العهود الاولى من نشأة الحياة البشرية على الارض ثم تدرجت في معالم الرقي تاركة وراءها الكثير من الشواهد والاوابد التي لاتزال رغم اندثارها تنم عن عظمة الابداع في تكوينها لدرجة جعلتها تخلد عبر الالوف من السنين .

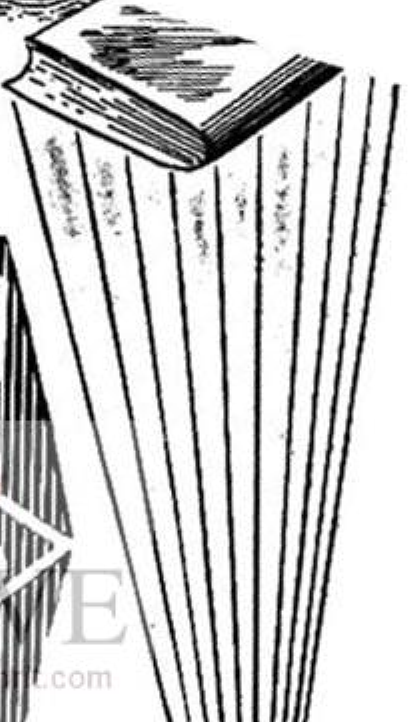
اما بالنسبة للبقعة التي تشغلها حماة فتشير الحقائق التاريخية الى انها كانت موطناً لاحدى المدنيات الكبرى التي قامت في الشرق في اقدم العصور على رقعة تعرف بسورية المجوفة وتمتد من منبع العاصي في جوار بعلبك حتى مصبه بقرب مدينة انطاكية وذلك اسوة بمعظم المدنيات القديمة التي قامت على اطراف الانهر الكبيرة .

(من كتاب « محافظة حماة » تاليف مؤيد الكيلاني ، مراجعة الدكتور صلاح عمر باشا وسيصدر قريباً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي) .

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية



ب الشهر



القديس والعبقري والبطل

كتاب للفيلسوف الألماني:

ماكس شيلر

عرض وتلخيص: صدقي اسماعيل

حين تفتقر الجماعات البشرية الى الاستقرار ، وتجد المشقة في التماس طريقها الواضحة الى العمل المنتج والتقدم ،تبرزمشكلةالقيادة في الحاحشديد. وعلى الرغم من اهتمام الشعوب بالظروفالسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتحكم بالمصائر ، فان في طبيعة الجماهير ان تلتفت الى العناصرالانسانية، ايضـاً ، الى الاشخاص « المتازين » الذين يستطيعون ان يكونوا طليعة تمسك بزمام الامور او تمثل معنى حضارياً جديداً يصبو اليه الجميع.

وفي كل مرحلة من مراحل اليقظة والنهضةفي حياة اي شعب ، تنحسر شروط الواقع عنافراد من هذا القبيل ، لايؤدون مهمة القيادةوالتوجيه فحسب ، بل يكونون قدوة للآخرين ، وبذلك يحملون اسم « النماذج » .

غير ان المحاذير الكثيرة التي تتكاثر في هذا المجال تحيط دور الفرد باطار من التساؤلالمريب، وتجعل مشكلة القيادة بذاتها ذات طابع ثانوي . فحيث تبحث هذه المشكلة ، يثار العديد منالقضايا التي تلعب فيهـا المشاعر الشخصية ووجهات النظر دورها الاول : من الذي يصنع التـاريخ الفرد ام الظروف ؟ هل البطل او العبقري رمز لبيئة ام حقيقة تتجاوز المجتمع ؟ الى اي حد يمكن ان تضفي الجماهير طابعالخرافة على البطل ، اوتنزلق في عبـادة الفرد او اسطورة الانسان المتفوق ؟ كيف يمكن ان يفهم المعنى الحقيقي لانقيادالجمهور وهل تتنافى هذه الظاهرة مع الحرية الانسانية ؟ وما الى ذلك . ومهما تكن الاجوبة على هـذه التساؤلات فانها لا تحجب حقيقة الواقع البشري : ان هنـاك افراداً لعبوا دوراً حاسماً في تاريخ شعوبهم او كانوا نقطة انطلاق في حياتها الثقافية والخلقية ، ومن ثم فان من الممكن ان يوجدوا في كل مرحلة .

وكثيراً ما يلتبس على الناس فهم هذه الحقيقة ولاسيا في المجتمعات التي تعـاني التخلف والقلق وتستسلم للانفعالات الطارئة والحماسة ، فيراودها حلم « المنقذ » أو « البطل » أو « العبقري » كما لو ان كل مهمتها ان تنتظر ، وهو ما يبـدو غالباً لدى الجماهير العربية في هذه الحقبة . فقلما تذكر ميادين النشاط الانساني : السياسة والفن والاخلاق ، والتنظيم الاقتصادي وغـيره ، الا ويلوح هذا الانتظار البعيد ... وكثيراً ماتحمل كلمات البطولة اوالعبقرية او العظمة او القداسة، الى اذهان الكثيرين صوراً سحرية خارقةتتجاوز الواقع البشري في معظم الاحيان . ويكون معنى « التفوق » تعبيرا عن ادانة جميـع الاخرين ، والاعتقاد بانهمقطعانقدرعليها التواكل والانقياد.

مع ان الافراد « المتميزين » هم اناسعاديون اتاحت لهم الشروط الاجتماعية والنفسية ان يمثلوا قيماً اخلاقية جديدة ، وبذلك كانوا قادرين على انجاز الاعمالالعظيمةوكانوا نماذج صالحةللاقتداء .

وهذه النظرة هي المحور الاساسي لهـذا الكتاب ، وتلك هي اهمية مثل هذه الدراسة في المجتمع العربي ،حيث تربط الجماهير بصورةعفوية بين مظاهر العمل في شتى ميادينه ، وبين الخلق الشخصي ...

وترجع هذه الدراسةالى السنواتالاخيرةمن حياة الفيلسوف الالماني ماكس شيلر (١٨٧٤ ـ ١٩٢٨) وكان قد انجز دراسات مذهبيـة

فذة عن القيم الاخلاقية وعلاقتها بالشروط الانسانية بالاضافة الى عدد من المؤلفات اشهرها « مكانة الانسان في العالم » و « معنى الألم » و « طبيعة التعاطف وصوره » .

وعلى الرغم من حرصه في هذا الكتاب على وجهة نظر معينة ترتبط بمذهبه الفلسفي الذي يضع فيه الشخصية الانسانيــة اساساً لكل اخلاق ، فان الحقائق التي يوردها في وصف ظاهرة القيادة والخصائص الرئيسية للنموذج في اشكاله المختلفة يمكن ان تبدد الكثير من الاوهام الدارجة حول هذا الموضوع ، الذي يبحث عادة في مستويات متباينة يصعب فيها التماس الموضوعية والنظرة الشاملة .

بين القائد والنموذج

يبدو النموذج لأول وهلة قدوة يحتذى بها دون أن نشعر بأننا نقلد او نذعن ، كما ان كون الشخص نموذجاً ، لا يقتضي ان يشعر هو بمدى تأثيره في الاخرين ، أما القائد فانه على العكس يجب ان يكون على جانب كبير من الوعي بهيمنته على الآخرين وقيادته لهم ؛ ذلك لأنه لا يستطيع ان يكون قائداً الا اذا أراد القيادة وأشعر بها تابعيه ، وهؤلاء التابعون لا ينصاعون للقائد الا اذا شعروا هم ايضاً بالعلاقة الطبيعيــة بين القائد والمقود . ان عليه ان يعرف وعليهم ان يطيعوا . والقائد بهذا المعنى هو صورة للسيطرة الواقعية . انه يقود في مهمة محدودة وأمر معين ، ومن ثم فهو لا يتعدى حدود الظروف التاريخية التي يوجد فيها . اما النموذج فهو حقيقة مثالية اكثر منه واقعاً اجتماعيا ، فقد يكون قيصر مثلاً أو المسيح وبوذا نماذج للانسان على الرغم من أنهم وجدوا في ازمان سالفة ، كما ان النموذج قد يكون ايضاً احدى الشخصيات الروائية : فاوست مثلاً او هاملت . أما القادة فلا بد ان يكونوا حاضرين لكي يمارسوا الهيمنة والتأثير ...

ومن ناحية اخرى يبدو القائد تجسيداً لواقع اجتماعي معين فلا يشترط ان يحمل قيمة اخلاقية . فكل جماعة تفرض وجود قائد ، ذلك هو القانون الطبيعي للحياة الاجتماعية ، وقد تكون القيادة لجماعة تمثل « العدد القليل » تمارس سيطرتها على الاكثرية ، ولكن الامر لا يختلف . فهناك فئة تأمر وفئة تطيع ، ومثل هذا القانون يجعل من القيادة امرا عاديا في جميع مظاهر العلاقات البشرية فهي تتمثل في اشراف الأب على اسرته ، او رئيس العشيرة او الحاكم او رئيس الجمعية الرياضية او الثقافية والرئيس ايضاً في عصابة من اللصوص ، وليس من الصعب ان نجد مظاهر اولية للقيادة في الجماعات الحيوانيــــة ، فقد لاحظ اسبينــــاس EsPinas ان في القطعان فئة تأمر وفئة تطيع مع ان العلاقة بينها لا تخضع للوعي ، بل انها عدوى انفعالية . ويذكر دي فريس De Vries أن تعلم سلوك جديد لدى بعض القطعان يبدأ بفئة محدودة من الحيوانات ، يمكن ان نطلق عليها اسم « الرواد » تفسر ما نسميــــه بالطفرات في السلوك الحيواني .

وعلى هذا النحو ، فان قانون الحياة الاجتماعية يحتم القيادة ؛ وقد قال العالم الاجتماعي النمسوي ويزر Wieser انه حيث يكون هنــــاك وعي

بوحدة الحياة الجماعية ، لابد من زمرة صغيرة تسيطر وذلك وفق قانون اطلق عليه اسم «قانون العدد القليل» . ولا مجال الآن لأن نبحث كيف يظهر هذا العدد وكيف يتصدى للقيادة ، وهل يرجع الى الوراثة ام الى الاختيار الحر ؟ غير انه ينبغي ان نتبين دائماً هـذه الصفة الاساسية في القيادة ، ونعني بها كونها ذات جذور في طبيعة الحياة ، اي لاتقتضي الارتباط بالقيم الاخلاقية .

أما النموذج فانه شيء آخر ؛ اننـا نقتدي بالنموذج دون خضوع مفروض . بل اننا نختاره لانه يمثل قيمة معينة ، انه في نظرنا تعبير عن الخير والكمال ، وكل ماينبغي ان يكون ، ومن ثم فاننا نذعن له في حب واحترام . اننا قد ننكر القائد احياناً ، اذا اقتصر على اصدار الاوامر . اما النموذج فاننا نحبه ابدا ، حتى لو كان سيئاً ، فاننا لانراه كذلك على الاطلاق . انه يجسد قيمة خلقية على الرغم من الطابع المعنوي الذي يمكن ان يضفى عليه ..

والحقيقة انه مهما يكن للنموذج من صفـة مثالية فانه لابد من ان يتجسد في الواقع ؛ وعندئذ نستطيع ان نطلق عليه اسم « النموذج ــ القدوة » وهو ليس مجرد شخص او قيمة ، بل كليهما معاً .

شروط الاقتداء

ان الصفة المميزة للنموذج هي التـأثير في الآخرين بتجديد القيم في حياتهم ، وحفزهم الى الافضل من اساليب الحياة ، وفي هذا التـأثير نوع من الانتقال . ان النموذج هو ناقل القيـم بين جيل وجيل . ويرجع الانتقال الى شروط موضوعية كثيرة يمكن ان نتبينها في ثلاثة اشكال رئيسية هي :الوراثة والتقاليدوالايمان بـ :

١ ـــ فالوراثة هي من القوانين الاساسية في الحياة ، ويمكن ان نراها في الوظيفة النوعية لدى جميع الكائنات الحية ، النزعة الى استمرار البقاء في كل نوع ، ويتحقق هـذا الاستمرار بالنسل ، وهو يرتبط بالغريزة الجنسية ، غير أن هذه الغريزة تأخذ صور متميزة في حياةالانسان لانها ترتبط بقيمة اساسية هي التزوع الى الجيل الافضل والاحسن ، ان هدفها لايقتصر على بقاء النوع البشري ، بل تنشد تكامل الاجيال وازدهارها . ومن ثم كان الحب بـين الرجل والمرأة ذا معنى يتجاوز حدود الوظيفة النوعية ، انه ارتبـاط بالمصير المشترك ، يحمل العديد من مشاعر التعاطف والتضحيـة والوفاء ... وهو لايعني بكثرة النسل مقدار مايعنيـه ان تتفتح الاجيال المقبلة عما هو أسمى من الامـكانيات البشريـة . ومنذ ان يتحول الحب عن هذا الهدف ، فانه يعود بالانسان الى الانحطاط ، كما هي الحال مثلاً في المجتمعات الرأسماليـة باوربا ، حين اختلط الحب بالمصالح الاقتصادية وخضع لقانون الكسب ، وذلك مايسميـه غولد شيد golds cheid بالانسان المزايد .

٢ ـــ وفي التقاليد يأخذ الانتقال شكلاًغير إرادي ، وان كان فيه مظهر واضـح للتعلم . فنحن نأخذ بوجهة نظر جديدة ، او نتبنىاسلوبا في الحياة ، او نقتبس عقلية معينة بتأثير التقليد ، ولكننا لانصر على ذلك . وهو مايميز النموذج

عن القائد في هذا المجال ، فالقائد يفرض مايريد ، اما النموذج فانه يوحي ويهمس ، انه اقرب الى ان يكون قدراً لابد منه ، لانه يمثل افضل التقاليد التي تصبو اليها . وكثيراً مايكون وجوده الفردي تجسيداً للتقاليد ذاتها . كما هي الحال مثلاً في شخصية محمد ، كما انه قد يكون رمزاً اسطورياً يعبر عن صورة الامة ، كما كان اوليس Ulysse واوريست Orestte عند الاغريق ، وابطال الاساطير الجرمانية ، اما في العصر الحديث ، فانه يتمثل في كائن واقعي يحدد ماينبغي ان يكون عليه الانسان في بيئة معينة ، كالمجتهدان مثلاً او الفنان او المغامر .

٣ — اما « الايمان » فهو في البداية نوع من الحب ، فنحن نقتدي بشخص لاننا نحبه اولا ، ولكنه حب مميز . فالآخر في هذا الحب هو شخصية انسانية كاملة . اننا لانعجب بشيء محدود من شخصيته اومواهبه ، كالخطابة مثلا او الصوت الجميل ، او التواضع ، بل نحبه لانه صالح للاقتداء في كل شيء ، وذلك مانسميه « الايمان ب .. » ان ارتباطنا بالنموذج بهذا الايمان ، يبدل حياتنا ، ويجدد كل شخصيتنا . ومن ثم كان الفرق بين النموذج وبين المشاهير الذين تحفل بهم الحياة المعاصرة ، كالفنانين ورجال الاعمال ..

النماذج والقيم

ان ارتباط النموذج بالقيمة التي يجسدها ، ويكون بها قدوة للاخرين ، يجعل تصنيف النماذج مرتبطاً بانواع القيم ، ولانستطيع ان نجد تحديداً نهائياً لهذه القيم الا من خلال المظاهر السلوكية في حياة البشر . ومهما تختلف المعاني الانسانية التي تنطوي عليها هذه المظاهر ، بالنسبة للمذاهب الفلسفية ، فان هناك اشكالا دائمة للقيم التي يستند عليها الواقع الانساني ، ونستطيع ان نتبينها على النحو التالي :

أولا — القيم المرتبطة بالحياة ، وقد أشار اليها ارسطو في معرض حديثه عن السعادة كغاية اخلاقية في وجود الانسان ، غير انها تشمل

١ ـ المتعة وتصدر عنها قيم الترف والابهة ،

٢ ـ المنفعة وتصدر عنها القيم الحضارية .

٣ ـ القوة وتتمثل في نزعة التقدم لدى الانسان والسعي الى ماهو أسمى وتصدر عنها قيم النبالة ...

ويمكن أن نطلق على جميع هذه القيم اسم « القيم الحيوية » ومن الواضح ان النبالة تمثل أسمى أشكالها وحين يجسدها « النموذج ـ القدوة » فانه يمثل البطل .

ثانياً — القيم التي تتجاوز بها مقتضيات الحياة ، وتبدو لأول وهلة في القيم الثقافية المحصنة ، وهي تتمثل في المعرفة والجمال والحق ؛ ونطلق عليها اسم « القيم الموضوعية » والنموذج الذي يمثلها هو العبقري .

ثالثاً — القيم التي ترتبط بنزعة الانسان الى ماهو ابدي يحمل القدسية والخلود ، وهي مانسميه القيم الدينية ، ويجسدها القديس .

البطل

البطل هو نموذج انساني يمثل القيم الحيوية . وفي هذه القيم مايمثل الاستجابة لاستمرار الحياة والمحافظة على منجزاتها خلال التجربة الانسانية ،

وهو ماتسميه بقيم المحافظة او القيم التكنيكية ، وتتجلى على نحو واضح في النزوع الى زيادة عدد السكان مثلا أو تحقيق السعادة للشعب، أو المحافظة على الثروة وتنميتها ، ويمكن ان تأخذ في السياسة مظهر الحياة الحزبية والديموقراطية وغايتها جميعاً صيانة العلاقات الاجتماعية الراهنة .

غير ان الحياة الانسانية تنطوي على قيم أخرى تهدف الى النمو والازدهار أو بتعبير آخر الى تجاوز الاوضاع المستقرة . وتتجلى مثلا في الحرص على تكامل الخبرات المكتسبة بالوراثة . وتحقيق القوة والنبل في الحياة الاجتماعيـة ، ونطلق على هذه القيم اسم « القيم الحيوية المحضـة » وهي تستخدم قيم المحافظة وتوجهها باستمرار من اجل الافضل من اشكال الحياة .

ولما كانت نزعة النبالة في طبيعة التجربـة الانسانية ، فان المجتمعات تلتفت الى النماذج التي تمجد هذه القيم . ومن ثم كان البطل حقيقة في كل مجتمع ، انه القدوة في تمثيل العنفوان الذي تحقق به الحياة تقدمها المستمر .

ويختلف البطل عن الاشخاص الذين يمثلون القيم التكنيكية كالاطباء مثلا والمهندسين واساتذة الاقتصاد ، انهم محسنون ، وهو قدوة .

ان البطل يمثل العنفوان الذي هو الارادة الانسانية في أعمق نزعاتها المؤمنة بجدارة الانسان، المتفائلة بمصيره ، وحين يتسرب ، القلق الى هذه الارادة يبدأ البطل بالانحدار وهو مايمثلـه **« بطل المأساة »** ـ الصورة المشوهـة عن البطل الواقعي الحق ، وهو نموذج ضعفت حماسته للحياة فأصبـح ضحية القدر ، وقد يبدو الضعف في رفض الالم أو عدم احتمال المشقة ، وعندئـذ يكون البطل السلبي ، كما يمثلـه نابليون مثلا أو كوتوزوف ، وقد يفقد النموذج نزعتـه المصممة وترتد ارادته وعندئذ يصبـح صورة كاريكاتورية للبطل ، وهذا مايحدث لدى الاشخاص الذين لايملكون الشجاعـة على ان يعيشوا مايؤمنون به .

ذلك ان البطل هو في حقيقته كائن واقعي ، انه نموذج من لحم ودم ، وكونه نموذجاً يقتدى به ، يحتم عليه أن يفعل ابداً . ان انجاز الفعل في تصميم وحرارة ، هو المعنى الحقيقي للبطولة ، وهذه الميزة ، تصدر عن صفة اساسية في البطل هي السيطرة على النفس : **ان يكون النموذج قوياً ابداً قادراً على التحكم** بمصيره ، ولكن قوة البطل لاتعني النزوع الى العنف . ان الصورة التي يبشر بها نيتشه عن البطل وتجعله مجداً لارادة القوة ، هي صورة خاطئة فنيتشه يرى هذه الارادة غايـة ، ويرى الانسان نفسه وسيلة ، ان ارادة القوة في حياة البطل هي عدم الاعتراف بالضعـف فالذين يخافون القوة ، انما يفعلون ذلك لشعورهم بانهم مهانون موتورون ، وان القوة قد اساءت اليهم دون ان يستطيعوا الرد ، ولذلك فهم يدينون كل قوة .

أما البطل فانه يمجد القوة باعتبارها الوجه الآخر للحق . فحين تكون الحياة الانسانية قوية تستطيـع ان تتجاوز نفسهـا الى ماهو

أفضل . ان تقدم الحياة وازدهارها هما رسالة البطل ، وكل هدف آخر تتوجه اليه القوة ، انما هو مظهر لتردي الحياة وانهيار المجتمع ، كما هي الحال مثلا حين يستخدم العنف للبطش بالآخرين من اجل افكارهم أو حين تبرر اراقة الدماء من اجل المصالح الخاصة اوبسط النفوذ .

ان التزام البطل بالقيم الحيوية التي يمثلها ، يجعله **مسؤولا عن الحياة الانسانية** ، وهي مسؤولية تشير الى انه يرى العالم حقيقة راسخة ويؤمن به ، ومن ثم فهو ينطلق اليه في شجاعة ويستهين جميع الاخطار في سبيل المهمة التي التزم انجازها في المجتمع ، وتلك هي واقعية البطل ، ان المبادرة الى العمل هي سبيله الوحيد ، ولذلك فان تجربته تتجسد في فعل معين . ولكي تتبين الملامح الحقيقية للبطولة ، لابد من رؤية البطل في واقعه العملي ، وعندئذ قد نراه في رجل الدولة أو القائد العسكري أو المغامر الحضاري ، فلنأخذ مثال رجل الدولة .

اذا اغفلنا النظرية الفوضوية التي تعتبر الدولة ظاهرة تاريخية زائفة ، وتجاوزنا المادية التاريخية (الماركسية) التي ترى في الدولة مرحلة عابرة ، او اداة لتحكم طبقة تزول حين تتطور العلاقات الاقتصادية وتمحي الفوارق الطبقية ، فان الدولة تبدو لنا واقعاً انسانياً لا سبيل الى إنكاره . والطابع الانساني للدولة يعني انها ينبغي ان تمثل القوة والحق، لقد اوجدتها شروط الحياة البشرية، ومن ثم فان وظيفتها ان تحمي القيم الحيوية من الناحيتين : المحافظة والازدهار ، ورجال الدولة العاديون يتولون الناحية الاولى (تأمين الحقوق وتحديد الواجبات ، والاشراف على الشؤون الاقتصادية وما الى ذلك ..) وهم الاشخاص الذين تضمهم المؤسسات الرسمية بما في ذلك المجالس النيابية ومظاهر الحياة الديموقراطية وغيرها .

اما حين يتاح لرجل الدولة ان يكون بطلاً فانه يتجاوز المحافظة الى الازدهار . وبذلك يمثل التقدم الحقيقي في حياة الشعب ، ولاريب ان تحقيقه لهذه القيمة التي تعتبر اسمى اهداف الحياة الانسانية يرجع الى **متانة الروح الخلقية** التي تتميز بها شخصيته ، وتجعله نموذجا وقدوة . وهو ماييزه عن جميع الآخرين الذين يتصدون للقيادة او يحاولون ان يلعبوا دوراً في مصير المجموع.

انه يشعر بالمسؤولية امام شعبه ومستقبل الانسانية ، ومن ثم فهو يلتزم النضال من اجل الامة ونموها ، كما لو انه يقوم بالواجب المقدس الذي هو كل مصيره ، وبذلك فهو يختلف عن محترف السياسة ، او الهاوي الذي يندفع الى العمل في طموح غامض يبرر له تبني المبادىء المتناقضة احيانا واستخدام شتى الاساليب .

ورجل الدولة يرفض كل مظهر للغرور لان القيادة بذاتها لاتستهويه وذلك ماييزه عن رئيس الحزب مثلاً او صاحب النفوذ السياسي الذي يجد من غاياته الاساسية أن يحقق دافع السيطرة والتعالي على الآخرين .

ومهما يكن في رجل الدولة من روح واقعية فانه لا يضع هدفه في النجاح مهما يكن شأنه ،

لانه يناضل في سبيل هدف ابعد من كل مرحلة، وذلك ما يميزه عن السياسي بصورة عامة ، وعن رجل الاقتصاد ايضا ، فالسياسي يسعى الى النجاح في تحقيق خططه مثلما يتوجه رجل الاقتصاد الى الربح ، وقد قال كارل ماركس عن رجل الاقتصاد إنه يحمل انجيل الزهد مادام يفضل بريق الذهب على المسرات الحقيقية . » وكان لينين يعتبر رجال الاقتصاد — في معرض حديثه عن السياسين الانكليز — رؤساء ورشات لا اكثر .

ومن ابرز الخصائص في رجل الدولة ان تكون له جذور حقيقية في قلوب الجماهير . ان روح الشعب تهيمن على سلوكه وتصرفاته ، لانه يجسد كل أماني الشعب . ومن ثم فهو يختلف عن الديماغوئي الذي يتملق الجماهير ويحاول استمالتها بشتى الاساليب ، وينقاد لانفعالاتها العابرة . ان البطولة تقود الشعب الى الحق ، وتكتفي بان توحي اليه الثقة ، ولا يعنيها ان تكتسب محبته بالدعاية والتملق .

وذلك هو ايضا مايميز رجل الدولة عن رجل المبادىء الذي يلوح بالشعارات لاستهواء الجمهور دون ان يملك القدرة على تحقيقها ، وقد وصفه بسمارك بقوله : إنه اشبه برجل يذهب الى الغابة بمجرفة طويلة تتعثر بالاغصان المتشابكة ... اما رجل الدولة فانه يعيش المبادىء ويوحي الاقتداء بها ، وبذلك يجعلها حقيقة انسانية .

العبقري

عندما يحمل النموذج قيمة موضوعية تنطوي على فكرة سامية محضة ، فانه يمثل العبقري ، ويمكن ان يبدو لنا العبقري في ثلاثة اشكال رئيسية ، تصدر عن الافكار الثلاثة : الجمال ، المعرفة ، الحق . بالجمال يكون العبقري فناناً ، وبالمعرفة يكون فيلسوفاً او حكيما . وبالحق يكون مشرعاً .

ولكن هناك من يوسع معاني العبقري ، فقد كان شوبنهاور ينسب العبقرية ايضاً الى المحاربين ورجال الدولة والمكتشفين ، وحاول جاكوب بوركهاردت ان يلصق اسم العبقري بمؤسسي المصارف ورجال الاعمال ومزارعي البطاطا .. غير ان « كانت » يضيق هذا المعنى ، فيرفض العبقرية عن العلم ، لان العبقري في نظره هو انسان يبدع اثرا اصيلا يتجاوز به كل قاعدة مألوفة ، اما العالم فانه يتبع القواعد في جميع اكتشافاته .

والواقع اننا نجد صواب هذا الرأي حين نلتمس النموذج في العبقري .. انه وجد لكي يؤثر في الآخرين ويدفعهم الى الاقتداء به ، ومن ثم فانه كلما كان محافظاً على طابع شخصيته فيما ينتج ، فانه يكون العبقري النموذج . صحيح انه لا « يريد » الا الاثر ، الانتاج . غير ان اخلاصه للعمل الذي ينجزه ، يبرز شخصيته على نحو اقوى ، مما يجعل التأثر به اعمق ، وتلك هي الأصالة ، وهي الطابع المميز للانتاج العبقري .

وتبدو الأصالة لأول وهلة وكأنها الطابع « الشخصي » الذي يستطيع العبقري ان يوحيه الى الاخرين خلال آثاره . فحين نقف امام احدى لوحات رامبرانت مثلا ، تهيمن علينا شخصية

رامبرانت اكثر مما تستهوينا اللوحة . اننا نشعر بان اللوحة هي الفنان وليست مجرد شيء من صنعه ، وهذه الهيمنة هي المظهر الاول لأصالة الأثر . وهي تشير الى ان العبقري يملك « رؤية جديدة » للعالم ، ويعبر عنها في آثاره ، وعن طريقها ينفذ الى كل نفس بشرية . وقد قال تولستوي في حديثه عن عبقرية الفيلسوف شوبنهاور انها ماترينا « العالم في واحد » وهـذا الشمول في تجربة العبقري هو الذي يفسر لنا لماذا يتجاوز العبقري مرحلته التاريخية المحدودة ، وكيف تستجيب له مختلف البيئات في شتى العصور ...

غير أن الأصالة بهذا المعنى ليست ظاهرة فوق الزمن ، بل انها تحمل جميع الشروط الاجتماعية التي تمثل الواقع البشري . فالعبقري هو كائن واقعي بكل ماتنطوي عليه هذه الكلمة من حدود موضوعية . ان فيه اشياء كثيرة لايمكن تفسيرها الا بعوامل البيئة الاجتماعية والشروط الاقتصادية (كارل ماركس) فما لاريب فيه ان « النبيل » الاغريقي القديم لايمكن ان يكون نحاتاً بسبب وضعه الطبقي ، كما ان « العبد » اذ ذاك لايمكن ان يكون رساماً بالفطرة ، لأنه لم يكن يملك الفراغ الذي يتيح له الاهتمام بالفن . وقد اشار (تين Taine) في كتابه « تاريخ الادب الانكليزي » ، الى ان العبقري يحمل دائماً طابع شيء ما « مما يرثه عن البيئة » وذلك مايقوله « نادلر Nadler » ايضاً .

والواضح من ناحية ثانية ان اشكال الاداء او الاساليب المتبعة في التعبير عن التجارب الذاتية لدى العباقرة هي من طبيعة اجتماعية عامة ، ومن ثم كان لنا ان نتحدث مثلا عن أطر اجتماعية تقليدية لاساليب الانتاج الادبي (الشعر الغنائي عند الشعراء الجوالين (التروبادور) فن الملحمة ، الرواية ، المسرح الاغريقي ، المسرح الحديث (شكسبير ، كالدرون) (المسرح البورجوازي الحديث) ..

ولكن هذا لايعني ان العبقري لايتجاوز الاساليب التقليدية . فليس لنا ان نعتبر رواية « الاخوة كارامازوف » مثلا صورة لفن القصص الشعبي في روسيا ، توسل بهـا دوستويفسكي ، او نحدد عبقرية موتسارت في « دون جوان » بقوة الاوبرا الايطاليـة ، والمعروف ان الفلسفة الطبيعية المادية قد صدرت عن الارستقراطية « الفرنسية » في القرن الثامن عشر ، وعن البورجوازية الصغيرة في المانيا ..

ومع هذا فان امتداد التجربة التي تصدر عنها الآثار العبقرية ، هو رهين الشروط الاجتماعية والتاريخية ، وذلك مانلمسه في تفاعل الثقافات بين الشعوب الغالبة والشعوب المغلوبة ، (الرومان والاغريق مثلا) .

غير ان العبقري هو نموذج ولذلك فانه يبقى ينبوعاً لاينضب بالنسبة للاجيال المتعاقبة ، انه يكتشف باستمرار ، وكل شيء فيه يمكن ان يبعث من جديد . وليس من الصواب ان نعتبره رمزاً منتهياً ، او مجرد تعبير عن فكرة تمثل مرحلة تاريخية ــ كما يقول هيغل ــ بل ان الآثار العبقرية تبث قوى محركة في بواعث الابداع كل

حين . وقد قال كانت عن افلاطون: «الفيلسوف على يفهم من الآخرين افضل مما يفهم نفسه» وهو ماينطبق على كل اثر فني ايضاً .

ولعل هذا مايجعل الآثار العبقرية ملكا للانسانية كلها في جميع العصور ، فهي يمكن ان تترجم الى جميع اللغات ، وتنقل الى جميع الشعوب لانها وجدت لكي تستوعب كل تجربة انسانية .

وفي هذه الحقيقة تكمن الميزة الرئيسية للأثر العبقري ، فهو مظهر للابداع ، وحيث يكون الابداع تنفتح البصيرة الانسانية على أفق جديد ، واذا كان العبقري حريصاً على هذه الجدة التي تميزه عن رجل العلم مثلاً أو رجل الصناعة ، فذلك لانه يمثل قيمة موضوعية تعني كل انسان ، وبذلك وضع « كانت » في اول شروط العبقرية ان تكون منزهة عن الغرض النفعي ، وبهذا المعنى شبه شوبنهاور غبطة العبقري في الابداع بسكون الحياة في اعماق البحار . انها راحة الارادة من حاجات الحياة .

ولكنه رأي سلبي ، لان العبقرية في الغالب ليست تحرزاً على الحياة ، بل انها كما يقول نيتشه « نداء عميق الى السعادة والفرح ، أو وعد بالسعادة الحقة » .

ان حافزاً يدفع العبقري الى الابداع ، ويجعل مصيره مسؤولا عن مصائر الجميع ، هذا الحافز هو الحب ، وهدف هذا الحب هو العالم بأسره ، ومن ثم فليس غريباً ان نجد في بداية كل حضارة مبدعة ، نوعاً من الاندماج الكلي بين الانسان والعالم ، وهو مايسميه (ديلتاي Deltay) بالحلولية المبدعة التي عبرت عنها تجربة جيوردو برونو مثلاً وكانت نقطة الانطلاق في عصر النهضة .

القديس

مهما يكن في القداسة من الجوانب الغامضة التي قد تتحدى واقع الحياة ، فان القديس هو انسان حقيقي ، ولكنه يمثل قيمة روحية تتجاوز حدود البيئة التي يعيش فيها وتمتد الى ماهو أبعد من الامة التي ينتمي اليها . وتلك هي طبيعة القيم الدينية وقد حاول شبنجلر ان يعتبرها مظهراً لثقافة أمة ما ، او تعبيرا عن روح حضارية معينة ، ومن ثم فان القديس يبدو بهذا الاعتبار شخصاً تاريخياً فحسب ، والحقيقة انه اكثر من ذلك فتجربة القديس تنتقل عبر الاجيال ، دون ان تستنفدها اية مرحلة تاريخية ، ومن ثم كان هذا الامتداد المستمر في تجارب المسيح وبوذا ومحمد وكونفوشيوس ولاوتسي . .

ويرجع ذلك الى ان القديس يحمل رسالة شاملة من هذا القبيل ، تحتم الاستمرار ، واستمرار القداسة يجعل من الذين يعتقدون بالقديس ، قديسين بدورهم ، وحين يفتقدون هذه الصفة يعتبرون متنكرين لقيم الدين .

وبهذا المعنى فان الصفة الاساسية في القديس انه حاضر ابداً في حياة الجميع ، وذلك ما يجعله مختلفاً عن العبقري أو البطل . انه يؤثر في الاجيال تأثيراً دائماً ولا يرجع هذا التأثير الى اعماله بل الى مجموع شخصيته التي تهيمن على النفوس في كل حين . وفي هذه الشخصية تكمن القداسة بمعناها

الواسع فالقديس لا يومن باعماله كما يفعل البطل ولا يكون قدوة بانتاجه وآثاره ، كما هو شأن العبقري بل انه يومن بوجوده الدائم انه لا يقول الحقيقة فحسب ، أو يعمل بها ، بل يكون اياها وفي الوقت نفسه يمكن ان تتوفر فيه صفات البطل وصفات العبقري غير انه يتجاوز البطولة والعبقرية بان يكون فوق العظمة والمجد ، لانه يحمل الحرية والسلام لجميع البشر .

ان الدرس الذي تعلمنا اياه القداسة هو الاخلاص العميق لما نؤمن به من قيم ان نحياها او كما يقول الشاعر « فردريك شيلر » ان النبالة الحقيقية هي ماتكون لا مانقوم به من افعال فحسب .



ميخائيل نعيمة يروي حكاية عمره

•
•

عرض وتحليل : حارث طه الراوي

أدب الاعترافات الشخصية وتدوين سيرة الاديب بقلمه لايعرفه الادب العربي الا عن طريق أدباء الفرنجة الذين تفننوا فيه وابدعوا أيما ابداع. وحسبك أن تقرأ « اعترافات جان جاك روسو » لتدرك مدى ماوصل اليه هذا الضرب من الادب من صراحة نادرة وصدق لاتشوبه شائبة الادعاء الكاذب والتبجح البغيض. ولست في معرض الحديث عن الاسباب التي جعلت هذا النوع من الادب يتنفس عند الغربيين بملء رئتيه ويموت عندنا اختناقاً. وحسبي أن أعترف، في هذا المجال، بحقيقة لايرقى اليها الشك وهي أن الحياة الاجتماعية عند الغربيين تساعد على كتابة ونشر وترويج مثل هذا الادب الصريح. في حين أن القيم الرجعية عندنا تحول ، في كثير من الاحيان ، دون ازدهار هذا الادب الصريح الذي لاعلاقة له بالادب المبتذل او الادب المكشوف. ولهذا فان كتب الاعترافات او كتب السير التي يكتبها الادباء عن انفسهم ، في شرقنا العربي ، مازالت تعد على اصابع اليد الواحدة ، وأهمها ، على ماأذكر ، كتاب « الايام » لطه حسين و « تربية سلامة موسى » لسلامة موسى و « حياتي » لأحمد أمين ..

وحسناً فعل ميخائيل نعيمة عندما كتب ونشر حكاية عمره. لأن حياة رجل موهوب مثل ميخائيل نعيمة جديرة بأن تكتب وتدرس ففيها متعة للقارىء وفيها فائدة للادباء والنقاد فقد عاش الرجل مغترباً عن وطنه لبنان ربع قرن أنفق أقله في روسيا واكثره في اميركا طالباً للعلم تارة وراكضاً وراء لقمة العيش تارة أخرى ، ومر ، خلال هذه المدة الطويلة في الاغتراب بتجارب عديدة لولم يكتبها وينشرها لما رأت النور يوماً ما.

وكتاب نعيمة « سبعون » الذي روى فيه حكاية عمره ، يقع في ثلاثة اجزاء كل جزء يمثل مرحلة من مراحل عمره. فالمرحلة الاولى تبدأ في سنة ١٨٨٩ ــ السنة التي ولد فيها ميخائيل وتنتهي في سنة ١٩١١ ــ السنة التي غادر فيها روسيا القيصرية مهاجراً الى الولايات المتحدة الاميركية. والمرحلة الثانية تبدأ من عام ١٩١١ الى عام ١٩٣٢ ــ العام الذي وضع فيه نعيمة

حداً لغربته عن وطنه وعاد الى لبنان وسكن في قرية آبائه واجداده « بسكنتا » أما المرحلة الثالثة فتبدأ في سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٥٩ ـ السنة التي بلغ فيها السبعين من عمره المديد ان شاء الله . ويقع كتاب « سبعون » باجزائه الثلاثة في ٨٦٤ صفحة من القطع المتوسط ،فتح فيها نعيمة النوافذ المغلقة عن شخصيته ودخائل نفسه ونزوات جسده وجميع مطامحه والاهداف البعيدة التي يسعى اليها . فكان ـ والحق يقال ـ صريحاً مخلصاً وأميناً في عرض بعض اموره الشخصية وكشف اسراره التي لايعرفها أحد . ولكن طموحه الهائل وشعوره المتبد بالتفوق والنبوغ ابعده،في بعض فصول الكتاب وسطوره عن الحياد التام الذي يفترض في الذي يتحدث عن نفسه أكثر من سواه . فقد كان يجمل به أن يقسو على نفسه في مواطن ضعفها مثلما عودنا أن يقسو على غيره في مواطن الضعف . ولكن ماأقل الذين نهجوا نهج « جان جاك روسو » في سرد الاعترافات التي تدين كاتبها في مرحلة من مراحل عمره بصراحة متناهية ، ولكنها لاتنزع منه صفة العبقري الذي يودع ، بمرور الزمن مرحلة في السفح ، ليستقبل المرحلة التي يصعد بها الى القمة ...

ان آراء ميخائيل نعيمة في ميخائيل نعيمة ليست قاطعة ينتفي معها الاستئناف والتمييز . وعليه فان الصورة الدقيقة الكاملة لنعيمة ـ كما هو ـ لن تكون بريشته هو وانما بريشة الذين يحسنون الاستفادة من المواد (الخام) التي هيأها لهم الرجل في كتابه الضخم الذي كتبه عن نفسه ..

ويجمل بي أن أشير الى أن صداقتي مع ميخائيل نعيمة ترجع الى عام ١٩٤٦ ـ العام الذي تعارفنا فيه عن طريق المراسلة ، ثم قويت عرى صداقتنا بمرور الزمن والتقينا في لبنان وجلسنا جلسات طويلة خلال الاعوام ١٩٤٩ و ١٩٥١ و ١٩٥٤ واستمرت صداقتنا حتى كتابة هذه السطور وستستمر ان شاء الله مادام كل منا يقيم للآخر الوزن الذي يستحقه بعيداً عن عوامل المجاملة الكاذبة والخداع البغيض . ولهذا فان ميخائيل نعيمة لم يكن لغزاً أمامي قبل أن يؤلف كتابه هذا . ولكنه ـ والحق يقال ـ فتح لي ولغيري من المعنيين بدراسة صفوة نوابغنا قديماً وحديثاً ، أبواباً لم تكن مفتوحة من قبل ، وأتاح لي ، ولغيري معرفة مواطن قوة الرجل ومواطن ضعفه اكثر من ذي قبل ...

وأقول ـ من غير مجاملة أو محاباة ـ ان مواطن الابداع والامتاع في كتاب « سبعون» كثيرة جداً . ذلك لأن ميخائيل نعيمة يجيد الوصف والتصوير ويجيد الفن الروائي اجادة تهز القارىء وتشده الى كتابه شداً وتنقله الى عالم من الخير والحق والجمال . فما اجمل وصفه لذكريات طفولته (ذكريات الطفولة ـ المرحلة الاولى ص ٢٦) . وما اروع وصفه لبسكنتا والشخروب (سبعون ـ المرحلة الاولى ص ٤٢) . أما وصفه للطبيعة فلا يضاهيه فيه الا كبار ادباء الفرنجة وحسبك أن تقرأ له فصل « في رفقة البحر ـ المرحلة الثالثة ص ٧ » لتدرك هذه الحقيقة بجلاء. ومن اروع فصول المرحلة الثالثة فصل (امتحان ـ

ص ٨٤) الذي تجسمت فيه النزعة الانسانية الصادقة الصافية والشهامة المتناهية عند ميخائيل نعيمة عندما لبى طلب اخيه المريض المرحوم نسيب نعيمة ، فقد طلب ، وهو على فراش الموت قطعة من ثلج صنين فلبى ميخائيل طلبه : « وفي مثل رفة الجفن كنت في طريقي الى صنين ، وعلى ذراعي معطف لايخترقه الماء كنت جلبته من نيويورك . فرأيت ان احمل الثلج فيه الى ان يقول : « بيني وبين اقرب بقعة من الثلج سير ساعتين ... » ثم يقول : « كنت امشي غير شاعر بالطريق تحت قدمي . وغير شاعر اني امشي ... » .

ومن روائع فصول المرحلة الثالثة : « ماتت التي ولدتني – ص ١٦٤ » الذي وصف فيه كيفية وفاة والدته رحمها الله . واذكر بهذه المناسبة – اني استمعت مع المرحوم والدي ووالدتي – حفظها الله – الى ميخائيل نعيمة وهو يتحدث عن والدته الراحلة بحديث « قلوب الوالدات » من اذاعة القدس في شهر ايلول عام ١٩٤٦ ، على ما اذكر ، وما كاد يقول نعيمة « ماتت التي ولدتني » حتى اغرورقت عينا والدي بالدموع واهتز للحديث من الفه الى يائه . ولكثرة ماقرأت هذا الحديث بعد نشره فقد حفظت منه وجهة كاملة عن ظهر قلب مازلت ارددها بين الفينة والفينة بين المعنيين بالادب الرفيع من اصدقائي ...

في كتاب « النثر المهجري – كتاب الرابطة القلمية – الجزء الثاني – لمؤلفه عبد الكريم الاشتر وفي حاشية ص ٢٤٥ منه سطور هامة من رسالة بعث بها ميخائيل نعيمة الى حبيب مسعود ، يهمني منها ، في بحثي هذا ، السطر التالي : « إن تكن للصداقة حرمة فللحقيقة وللفن حرمة اعظم واقدس ... » . وقد صدق ميخائيل نعيمة فالحرمة التي للحقيقة والحرمة التي للفن اعظم – عند كل محب للحقيقة – من الحرمة التي للصداقة . ولا تعني حرمة الحقيقة – بطبيعة الحال – شتم الصديق لصديقه وتعمد التقليل من شأنه . وعلى هذا الاساس اود ان اناقش محب الحقيقة ميخائيل نعيمة على بعض ماورد في كتابه من امور لابد من مناقشتها بصراحة تامة . فاذا اظهرت انوار الكتاب من غير ظلاله فان بحثي يكون ، عندئذ تبخيراً لا نقداً ...

١ – علاقات ميخائيل نعيمة مع النساء :

لايريد ميخائيل نعيمة ، كما يدل كتاب سبعون ان يكون رجلاً طبيعياً كباقي الرجال في علاقاته بالمرأة ، وانما يضفي على نفسه عندما يصف علاقاته الغرامية وشبه الغرامية بالمرأة صفة الملاك تارة وصفة الرجل ذى الارادة الفولاذية تارة اخرى. فما اكثر النساء في روسيا واميركا اللواتي ترامين على اقدام نعيمة عارضات عليه استغاثات الاجساد الجائعة ، ولكنه يأبى الاستجابة لهن اكراماً لمبادىء مثالية يؤمن بها . والذي عرفناه من خلال اعترافاته في « سبعون » انه مطارد (بفتح الراء) من قبل العذارى والمتزوجات واذا وقع في فخ واحدة منهن – وقلما يقع – فهو يستجيب لشهوته الجنسية مرغماً لامختاراً !!.

وبالرغم من ان نعيمة قضى فترة المراهقة

ـ وهي الفترة التي تجن بها الشهوة الجنسية في روسيا فهو يقول عن نفسه في تلك الفترة متصوراً ن القارىء سيصدقه من غير مناقشة : « لقد هامت بي اكثر من فتاة في ذلك الصيف . الا انني لم افتح قلبي ولا استسلمت لاغراء اية واحدة منهن . ولو شئت ان امثل دور « دون جوان » لمثلته بسهولة . ولكن في مزاجي وذوقي وخلقي وطبيعتي مايقرز من امثال « دون جوان » . ومن العبث بعواطف النساء ارضاء لشهوة عابرة ... »(١) . وللمؤلف مواقف عديدة من هذا القبيل منها موقفه مع « فاريا » زوجة احد الذين سكن عندهم فترة من الزمن في روسيا ، تلك المرأة الشهوانية التي تكره زوجها لأسباب عديدة والتي اندفعت نحو الفتى المراهق ميخائيل طالبة منه بكل ماتملك من الاغراء أن يلبي نداء جسدها الذي يئن تحت لفحات نيران الشهوة الجنسية ، ويشاء القدر أن يسوقها الى قبو مظلم لتحميض بعض الصور فتبدي هذه المرأة لميخائيل نعيمة استسلامها المطلق اليه وتريه ألواناً من الاغراء حتى تنجح في اثارة شهوته الجنسية فيعترف نعيمة قائلا « فالوحش في داخلي استفاق وراح يزمجر. ولكن زمجرته لم ترعجني على قدر ما أزعجتني بلبلة الأفكار والعواطف المصطرعة في رأسي وفي قلبي (٢) » . وبعد أن يقاوم ميخائيل ويسرف في المقاومة ويحلق الى قة المثل الاعلى لاهثاً خائفا من الوقوع في التجربة ، تهجم عليه « فاريا » وتنكب على فمه بشفتيها وينتهي هذا المشهد العنيف بالقبل فقط ، القبل التي تنتزعها المرأة من الرجل انتزاعاً !!.

وفي المرحلتين الاولى والثانية من كتاب « سبعون » مشاهد غرامية مماثلة لهذا المشهد ينتصر فيها ميخائيل نعيمة على شهوته الجنسية مذعناً للتسامي والمثل الاعلى . وليسمح لنا « ناسك الشخروب » أن نشك في أمر صموده العجيب أمام عواصف الغريزة الجنسية التي لايستطيع أن ينتصر عليها رجل اذا أثيرمن قبل امرأة . وكان يجمل بميخائيل نعيمة ألا يحيط نفسه بهالة من التقديس عندما يتحدث عن علاقاته الغرامية . ولعل شعوره الطاغي بالتفوق هو الذي دفعه الى ان يروي عن نفسه هذه الروايات التي يصدق العقل بداياتها ويأبى تصديق نهاياتها.. وما اكثر المواقف التي انتصر فيها ميخائيل على شهوته الجنسية في الحالات التي تنتزع العصمة حتى من الملائكة ...(٣)

٢ ـ موقف ميخائيل نعيمة من رفاقه وأصدقائه ونقاده :

يقول نعيمة في السطر السادس من فصل « العجين يختمر(٤) » مانصه : « انني في قضايا

---

(١) سبعون ـ المرحلة الاولى ص ٢٠٧

(٢) راجع فصل « فاريا » في المرحلة الاولى ص ٢١٣ .

(٣) راجع ص ١٣٥ في المرحلة الثانية

(٤) المرحلة الثانية ص ١٥١

الادب والفـن والذوق والحق لاأراعي اي انسان — حتى نفسي » . وأشهد أنه صادق فيما يقول ، ولدي من رسائله العديدة مايؤكد هذا القول ، وهو من المخشنين في صراحتهم — ان صح التعبير — حتى لتحسب نقده ، أحياناً ضرباً من التجريح ، فهو لايلتزم بما يليق وما لايليق ، اذا أراد أن يعلن امتعاضه من أمر من الامور . أما أنه لايراعي أي انسان حتى نفسه ، في القضايا التي ذكرها فمسألة فيهـا نظر . فالصديق الذي يمجد ميخائيل ويسلم بآرائه الغريبة في الكون والحياة والتناسخ تسليما مطلقاً ، فهو في مأمن من صراحة ميخائيل ، اي انه مشمول برعاية ميخائيل ومحبته التي تتغاضى عن مواطن الضعف والتخلف فيه . وليس أدل على ذلك من موقف ميخائيل نعيمة من صديقه المرحوم نسيب عريضة وأميل ضومط فهو يذكرهما بالخير دائماً وابداً ولا يمد اليهما مبضع نقده . فاذا تحدث عن أحدهما فكأنما يتحدث عن ملاك لاعن انسان . والسبب في ذلك هو أن المرحوم نسيب عريضة أخذ على عاتقه أمر الدفاع عـن ميخائيل نعيمة والتصدي لكل من يتصدى له في الصحف والمجلات . اما أميل جبر ضومط فقد أخذ على عاتقه أمر الترويـج لآراء صديقه ومعلمـه — كما يحب أن يسميه — ميخائيل نعيمة ،وذلك في الكتب التي يؤلفها أو المجالس التي يجتمع فيهـا بأصدقائه . ولا اذكر انني اجتمعت بهذا الصديق الوفي المتواضع إلا وردد آراء صديقه ميخائيل بشكل من الاشكال . وهو يدافع عن نعيمة كما يدافع الجندي الباسل عن وطنـه ، ويعتقد — وهو مخطئ فيما يعتقد — بأن صديقـه ومعلمه ميخائيل نعيمـة مصيب في كل آرائه ، ويكاد أن يكون معصوماً من الزلل !!

أما الصديق الذي يناقش ميخائيل نعيمة وينقد بعض آرائه ولا يستسيغ بعض تصرفاته فلا ينجو من نقمة ميخائيل ومبضع ميخائيل . وليس أدل على ذلك من موقف ميخائيل نعيمة من صديقـه وزميله أبي ماضي ،رحمه الله . فقد كتب ابوماضي في جريدته السمير مقالات عنيفة انتقد فيها كتاب نعيمة عن (جبران) . ومما قاله ابوماضي عن الكتاب المذكور : « الكتاب مزروع الحقول بالاشواك الحادة بعدما زرعت لجبران الورد حال حياتــه (١) » وقال أبوماضي ايضاً في هذا المجال : « اذا كان يعاب من يصلب حياً ، فما قولك بمن ينبش ميتاً من قبره ، ويمزق عنـه الاكفان ، ويعلقه على صليب من شوك ؟(٢)» وكان يجمل بنعيمة أن يرد على أبي ماضي حال حياته ، لا أن يتظاهر له بالصداقة والمودة حال حياته ، ثم ينتهز فرصة موته وينقض عليه انقضاضاً وينبش قبره ويعلق صديقه الميت على صليب من شوك !؟ متغاضياً لاعن حرمة الصداقة وحرمة الاموات فحسب بل عن حرمة الحقيقة ايضاً عندما وصف صديقه « أيليا ابوماضي » في المرحلة

(١) مجلة السمير العدد ١٨ سنة ١٩٣٥

(٢) السمير العدد ١٩ سنة ١٩٣٥

الثانية من كتابه « سبعون » ص ١٧٩ وصفاً لايخلو من الحقد والتجريح . فقد قال عنه مانصه :

(١) « في قيافته بساطة قروية تفتقر الى الذوق » .

(٢) « في صوته جفاف لاترطبه عذوبة» .

(٣) « لجوج في بلوغ مطامعه » .

(٤) « سريع الاقتباس » .

(٥) « واسع الحيلة في كسب رزقه » .

(٦) « متقلب في صداقاته وعداواته حسبما تمليه عليه مصلحته » .

(٧) « فيه شيء من طبيعة الحمامة وشيء من طبيعة العقرب » .

(٨) « صادق الريحاني زماناً ثم انقلب عليه فاتهمه بالتجسس للانكليز » .

(٩) « تهجم على جبران فكتب عنه مرة في « مرآة الغرب » في صدد الكلام عن مرضه وقال (العقل السليم في الجسم السليم) » .

ثم لا يكف نعيمة عن صديقه ابي ماضي عندما يتحدث عن ثقافة أعضاء الرابطة القلمية فيقول عنه (١) في معرض الحديث عن رفاقه « وهذا القليل الذي كانوا يعرفونه ساعد بعضهم ــ مثل أبو ماضي ــ على إقتباس بعض الموضوعات الشعرية من قصائد كانت تنشر في بعض الصحف اليومية » .

وأنا أسأل الصديق ميخائيل نعيمة ماذا بقي من أبي ماضي بعدهذا الوصف المشين . ماذا بقي من شاعرنا الانساني الحر الذيقال وصدق فيقوله:

حر ومذهب كل حر مذهبي
ما كنت بالغادي ولا المتعصب
إني لأغضب للكريم ينوشه
من دونه وألوم من لم يغضب
تأبى طباعي أن أميل الى الأذى
حب الأذية من طباع العقرب

على أن دفع التجني عن أبي ماضي وما لاقاه من الظلم والجور حياً وميتاً ليس هذا مجاله ، وسأقول فيه كلمتي الصريحة الشاملة في مجالآ خر وفي أقرب فرصة إن شاء الله .

أما ان ميخائيل نعيمة لا يراعي حتى نفسه ــ كما يقول ــ في قضايا الأدب والفن الخ . . . فهو زعم لايدعمه الواقع . فالذي قاله عن « جبران» في المرحلة الثانيةمن كتاب « سبعون » ص١٧٦ إنما ينطبق عليه كل الانطباق : « اذا جالسته وحادثته حسبته الغايةفي اللطف والصدق والدماثة. إلا اذا بدرت منك كلمة أو حركة أو إشارة يشتم منها مساً بكرامته ، أو حطاً من المقام الرفيع الذي يضع فيه نفسه ، فهو إذ ذاك بركان من الغيظ والنقمة . من هنا حبه للتبخير والتبجيل ، وكرهه للنقد ،مع التظاهر بالمسكنة واللامبالاة...» .

فهذا هو ميخائيل نعيمة كما راسلته وجالسته وخبرته عن بعد وعن كثب . انه يصف نفسه وصفاً دقيقاً . وبدلاً من أن يقول : هذا أنا

---

(١) « سبعون » المرحلة الثانية ص ١٨١

بحيري وشري ، يقول : هذا جبران . وقد يكون جبران كما وصفه ميخائيل ، والله أعلم .

وميخائيل نعيمة لا يتورع عن كيل المدح لنفسه في اكثر موضع في كتابه الضخم الذي يحدث فيه عن حياته اما صراحة واما ضمناً . من ذلك قوله عن نفسه في معرض حديثه عن والدته : « فما اكثر ما تتسع الأرحام — على ضيقها — لمواليد تضيق بهم الارض — على سعتها وتضيق بهم مدارك امهاتهم ! (١) » . وقد يستغرب القارىء إذا قلت له ان ميخائيل نعيمة يحب ، مع الاسف ، التبخير والتطبيل والتزمير ولكنه يؤاخذ غيره عليه بشدة ، وإلا فما معنى استشهاده بمقتطفات من رسائل منادين ومناديات مجهولين ومجهولات يتعالى تبخيرهم وتبخيرهن له الى عنان السماء (٢) . حتى بلغ به حبه للتبخير الى درجة خول لنفسه فيها نشر رسالة كان بعثها فايز الخوري ، الذي كان سفيراً لسوريا في لندن الى صديقه وصديق نعيمه اسكندر اليازجي الذي أهدى الى الخوري مجموعة من مؤلفات ميخائيل نعيمة . وتاريخ الرسالة ١٩٥٢/١١/٢٠ (٣) قال كاتب الرسالة : « حمل الي البريد قبل يومين رزمتين فيهما مؤلفات الاستاذ نعيمة . فعجبت كيف استطعت أنت حزم هذه المؤلفات ، وكيف استطاع البريد حملها على ما فيها من أفكار عميقة وآراء دقيقة يكفي واحد منها لتنوء به أعناق البشر ، وترزح تحته عوالم الكون . ولا أدري كيف استطاع المؤلف تسع حشر فلسفته في هذه الاوراق الضعيفة ، وأنا أحسب ان صفحات السماوات والارض لا تتسع لاستيعاب هذه الفلسفة وقد تصفحتها وأجلت الطرف بين سطورها فراعني ما فيها من عميق الفكر ونفوذ الرأي . **وسوف أحاول فهمها** ، وأجرب أن أكون رفيق صاحبها في علائه . **لكن أنى لي ذلك** وأنا غارق في غمرات الحياة المادية ، ومكبل في سلاسل الدنيا وأصفادها . ويا ليت لي روحاً مثل روحه فأفوز فوزاً عظيماً ... » .

وهكذا يهيم نعيمة بالتبخير والمدح الى الدرجة التي لا يتورع فيها عن نشر هذه الرسالة التي تضج بالتطبيل والتزمير . فكاتبها فائز الخوري يعترف أنه « سوف يحاول » فهم كتب نعيمة ويعترف أيضاً أنه لا يستطيع ذلك لأنه « غارق في غمرات الحياة المادية الخ ... » فالرجل لم يقرأ كتب نعيمة ولكنه أجاز لنفسه أن يصفها وصفاً هو من المبالغة والتهويل في ذروة شاهقة ...

٣ — بعض الأغلاط التأريخية واللغوية :

تبدو آثار السرعة على أسلوب نعيمة في « سبعون » ، فقد عهدناه معنياً بالبلاغة وقوة النسج في كتبه الاخرى مثل « البيادر » و« صوت العالم » و « النور والديجور » . وقد حدثني

---

(١) « سبعون » — المرحلة الثالثة ص١٦٧

(٢) راجع مقدمة « سبعون » — المرحلة الاولى

(٣) سبعون — المرحلة الثالثة ص ٢٢٠ — ٢٢١

صديقه وصديقي أميل ضومط « إن نعيمة كان يكتب فصول « سبعون » ويرسلها الى المطبعة حالاً من غير أن يعيد كتابتها وينقحها .. » .

فكان من نتائج هذه السرعة في التأليف أن جاء أسلوب الكتاب ، في بعض الفصول ،اسلوباً صحفياً لايرقى الى الاسلوب الادبي العالي الذي عودنا عليه نعيمة .

أما بعض الاغلاط اللغوية فقد تكون من نتائج هذه السرعة أو من قلة مراجعة نعيمة للقاموس . من ذلك ماورد في المرحلة الثانية ص ١٧٣ ـ السطر الثامن « قادري مواهبه » والصواب « مقدّري مواهبه » . ومن ذلك ماورد في المرحلة الثالثة ص ٩١ ـ السطر الحادي عشر « ألعله صوّن إنساناً من الحزن ؟ » والصواب « صان » . ومن ذلك ماورد في قصيدة نعيمة « من أنت ؟ مأأنت ؟ » التي خاطب بها الغرب قائلا :

وتسلب الرزق أقواماً لتمنحه
قوماًوإما شكوا ألقمتهم حجرا

والصواب : ألقمتهم . وورد في المرحلةالثانية ص ١٦٤ في البيت الثاني « وفضّح »بالتشديد. والصواب فضح بلا تشديد الضاد .

ومن الاغلاط التأريخية قول نعيمة في المرحلة الثانية ص ٧٣ عن قصيدته الشهيرة « أخي » ما هذا نصه:«فما ان ظهرت القصيدة في(الفنون) وبلغت الديار العربية حتى راحت الصحف تتناقلها. وكانت « الهلال » أسبقها فقد نقلت القصيدة بعد أن مهدت لها بكلمة لطيفة جداً من قلم صاحبها المرحوم جرجي زيدان . لقد أدرك مؤسس الهلال بفطرته السليمة ان نسمة جديدة أخذت تهبّ على الأدب العربي من بلاد « العم سام » » .

ولاندري كيف نهض مؤسس الهلال المرحوم جرجي زيدان من قبره ليطري قصيدة «أخي» ! ـ فقد نشر نعيمة قصيدته عام ١٩١٧ وهذه السنة مثبتة تحت قصيدة « أخي » في ديوان نعيمة « همس الجفون » . أما مجلة (الهلال) فقد اقتبست القصيدة من مجلة (الفنون) عام ١٩١٨ فقد نشرت قصيدة « أخي » في عدد (الهلال) الصادر في ابريل (نيسان) ١٩١٨ م ص ٥٥١ . أي بعد وفاة جرجي زيدان بأكثر من اربع سنين . ذلك لأن جرجي زيدان توفي في مساء الثلاثاء ٢١ اغسطس سنة ١٩١٤ حوالي الساعة الحادية عشرة كما ورد نعيه في مجلة (الهلال ـ اكتوبر « تشرين الاول » ١٩١٤) . اما الذي أطرى قصيدة « أخي » مع قصيدة « النهاية » لعريضة المنشورة بتوقيع « الف » فقد يكون اميل زيدان نجل الفقيد جرجي زيدان ...

فكان يجدر بميخائيل نعيمة أن يجشم نفسه عناء الرجوع الى المصدر ليتجنب هذا التوهم الغريب ، والغلط الواضح ...

* * *

واخيراً يجمل بي أن اقول : سبحان من لايخطىء . فكل اديب مهما كان كبيراً أو صغيراً معرض للهفوات في اسلوبه وللعثرات والنزوات والاهواء في تصرفاته . فلا يجمل به أن يلوم أو يجرح سواه من الادباء ، متجاهلاً حقيقة الضعف البشري . وقد قلت في احدى كلماتي الصغيرة التي نشرت في جريدة الزمان البغدادية قولا يجمل بي أن اختم به هذا البحث ألا وهو : « صعود الانسان الى ملكوت انسانيته أصعب من صعوده الى القمر ... » .

الدكتورة عاتكة الخزرجي
امام القضاء ..

كتاب صدر عام ١٩٦٢
في بغداد

تأليف : علي الشوبكي

عرض وتحليل : الشيخ جلال الحنفي

(الدكتورة عاتكة الخزرجي أمام القضاء) كتاب صدر سنة ١٩٦٢ .. ولكنه على صغر حجمه ترك أثراً رائعاً في تاريخ الكتب المؤلفة والرسائل المطبوعة .. على ان الكتب التي صدرت في بغداد تلك السنة كانت كثيرة وكثيرة جدا ..

اما هذا الكتاب او الكتيب الصغير الذي لم يبلغ عدد مافيه من صفحات « المئة صفحة » فانه على نحو مااستهللنا به القول كان قد ترك أثراً عميقاً في الفكر الحديث سنأتي عليه بشيء من التفصيل والتوضيح ..

وقبل ذلك نشير الى ان الكتيب موضوع البحث نمط جديد من التأليف والعرض العلمي ، خلط فيه المؤلف الأستاذ علي الشوبكي الجد والهزل ، وجمع بين الجديد والقديم ، فصنع بذلك صنيعاً لفت انظار قراء كثيرين ..

اما عنوان الكتاب فلم يكن بالشيء الذي يغري القراء ، الا من كان يعنيه متابعة مايكتب عن الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي ، وهي من شواعر العراق المحدثات .. ولكن مضامين الكتاب تتسع لأمور كثيرة وهي من الاهمية بحيث ينسى القارىء ان الامر يدور على شاعرة يقال لها عاتكة الخزرجي التي تحمل لقب الدكتوراه بين شواعر الجيل الحديث ..

وأنا شخصياً مع اعجابي بيسير من شعر الشاعرة دون الكثير الذي ينشر لها هنا وهناك لا أجد كبير أهمية لاسمها ان يرد عنواناً لكتاب من الكتب او ان تكون موضع عناية الدارسين والباحثين فهي ليست شيئاً مذكوراً يستحق كل هذا ..

ولكنني ارى المؤلف وفق على أي حال في خلق عنوان ما لكتابه الجديد .. ومن الحق ان

يقال ان وضع العناوين واختيار الاسماء للمؤلفات انما هو أمر حري ان يوصف بالفنية ، وكانوا يقولون قديماً « ان الكتاب يعرف من عنوانه » غير ان ذلك كان قولا قديما .. وانما يحق للمؤلف اليوم ان يغالط قارئه وان يوهمه كل الوهم في السطور والعناوين والمقدمات، والنتائج ليكون القارىء كالباحث في منجم عن معدن كريم ، وكالداخل في سوق يبتغي اقتناء حاجة يتخيرها بعد التجوال الطويل ..

وكالجريدة المحلية يجد فيها القارىء كل شيء..
وكذلك كان كتاب الشوبكي ، وعلى هذا يمكن ان تثبت للمؤلف درجة حسنة في مسألة اختيار العنوان .. وكنت يوماً ما اقرأ في كتاب من الكتب الضخمة وكان ذا عنوان عجيب لم استطع الاهتداء الى طبيعته ومغزاه حتى أتيت على صفحات الكتاب الكثيرة كلها ووجدتني أوقن انه كتاب يستأهل المطالعة والنظر ..

وكراس الشوبكي هذا واحد من هذا النمط.
ولقد استطاع الشوبكي ان يترك لنا نموذجا حسنا من النثر الرائق بما سجلته براعته في كتابه هذا من الوصف الدقيق ، والعرض السهل الممتع ، والأداء الجيد المستساغ ..

اما جوهر الكتاب فانه يقوم من مبادىء في البيان والادب والاخلاق .. وقد وفق المؤلف الى اقرار معانيه هذه في نفوس قرائه .

وقليل من الناس يعلمون اليوم ان الشوبكي استطاع ان يقضي بعدد من السطور في كتابه هذا على مسألة الشعر الحر اومهزلته قضاءا تاما..

وقد كان ذلك قصداً من مقاصد الكتاب بذل من أجل الوصول اليه جهداً غير يسير ..

فان كل تلك المحاكمات الشكلية واستنطاق هذا وذاك من رجال التاريخ وغيرهم واستغلال عاتكة الخزرجي في عنوان الكتاب وفي تمثيل بعض ادوار القضية انما كان هذا . .

أفلا يكون المؤلف موفقاً غاية التوفيق حين ينشر كتاباً ضئيل الحجم يحاول به دعاة الشعر الحر فيسفه احلامهم تسفيهاً عجيبا فيذرهم ينكسون على رؤوسهم ...

ان النماذج التي أوردها الشوبكي المؤلف في كتابه للشعر الحر أوضحت للقوم حقيقة ذلك الهوس والهواء والتخليط . . ورأيت غير واحد من انصار الشعر الحر يتداعى عنه .. وكأنما كان كتاب الشوبكي قد جاء حداً فاصلا في المعمعة التي طالت بين الفريقين من مؤيدي الشعر الحر ومن خصومه . .

ومن روائع الكتاب ان يستنطق المؤلف جمهرة من أساتيذ البيان العربي كالجاحظ البصروي العظيم ، وقد وصفه المؤلف عرضا بفولتير الشرق ونابغة العرب ..

ومما استنطقه فيه قوله (أي قول المؤلف منسوباً الى الجاحظ)

(وأعجب العجب يا سيادة الرئيس لو انك قلت لواحد من هؤلاء وانت تشير الى غراب من الغربان مثلا « انظر ما أجل هذا العقاب » لضحك منك وقال « انه غراب ابن غراب وليس عقابا ولا ابن عم عقاب » ولكنه لا يضحك من نفسه

ولا يرثي لحسه حين يسمي ما يتجشأ من هـذر وهذيان « شعراً » ثم ينعته بالجدة أو بالحداثة أو بالحرية) .

ثم يستنطق الجاحظ ليقول (ان الشعر انما سمي كذلك لانه شعور وعواطف ووجدان ، تترجمها قواف متساوقة وأوزان ، ولولا هـذه القوافي وهذه الاوزان لكان اقرب الى نثر الكتاب أو سجع الكهان ..)

وفي أكثر من مكان واحد يناقش المؤلف مسألة الشعر الحر مناقشة دقيقة رشيدة فمن ذلك ماجاء على لسان عاتكـــة الخزرجي (نصائحي للناشئين من الشعراء ان يطيـــلوا الوقوف أمام نفائس ادبنـا القديم وأرجو لهم ان لا يستهتروا بتراثنا المجيد لان من لم يكن له ماض فلن يكون له حاضر أو مستقبل ابــداً .. . كما أرجو من الشباب ان يخففوا من حـدة ثورتهم على الوزن والقافية اذ ان صعوبة الوزن والقافية لايشكوها شاعر مطبوع انمـــا هي عقبة كأداء في وجه النظامين المقلدين ..

وليعلم الشباب ان جمال شعرنا العربي آت من هذا الايقاع الموسيقي المنغم واعجاز شعرنا العربي آت من رصانة قوافيه واتساق أنغامـــه ... وليصدقني الشباب اذا اكدت له ان الشـــاعر الاصيل لا يلقى أي عنت في هذين .. انما تتسق له الاوزان من تلقائها وتأتيه قوافيه طيعة مختارة ...)

وفي مكان آخر من الكتيب نقرأ في مسألة الشعر الحر السطور الآتية :

(ان دعاة مايسمونه بالشعر الحديث إن هم الا نفر جرفهم تيار التجدد العابث فما رعوا حرمة لقديم ولا ابدعوا شيئاً من جديد ..

وهؤلاء نفر ممن استهتروا بأوزان الشعر العربي وقوافيه وحاولوا ان يقلدوا الشعر الغربي فلم يفلحوا فأضاعوا عليهم بذلك الشيئين ..

فقد عمدوا الى الرموز المبهمة او المجازات المغلقة وحشروها في كلام مطلق من الوزن حيناً ومن القافيـــة احياناً .. واوهموا انفسهم انهم استحدثوا في أدبنا جديداً وأنهم حرروا الشعر العربي من قيود ثقيلة يرزح تحتها ..) ومما اورده المؤلف من نصوص الشعر الحديث ماقاله احـد اقطاب هذه الدعوة وهو عبدالوهاب البياتي القائل:

(كأعين الموتى ، على طريق بغداد ، كانت اعين الأطفال ، تبكي وتبكي .. انه الربيـــع ، عاد الى بلادنا . عاد الى الحقول ، بلا فراشات بلا أوراد .. وفي بلادنا يصنعون الخمر من دموع ، امواتنا ومن دم الاطفال . ويصلبون الشمس في ساحات ، مدينتي الموصدة الأبواب .. الخ ..)

ومن المبادىء الخلقية الاجتماعية في الكتاب ما أشير الى فذلكة واحدة منها فاذا نظر القارىء في الصفحة (٢١) وجد النص الآتي :

(أنا لست ممن يؤمن بأن تسلم السيدة بيتها وطفلها بيد خادم تعنى بهما .. والا كان البيت بيت خادم ، والطفل ربيب حاضنة) ...

والكتاب مصبوب بقالب تمثيلي حواري .. وقد يكون الحوار فيه ظاهر الجودة والمتعـة أحياناً ، وأحياناً اخرى يلتصق بالجد التصاقاً فيكون أشبه بالتقارير العلمية التي لم يعرف بعد إركاضها في مثل هذا السن ..

ومن رقيق هذا الحوار وطريفه .. ان يسأل رئيس المحكمة المنتحل الشاعرة المتهمة :

ما الاسم بالخريدة الدهر ترى وما اللقب ؟

فترد عليه رداً بارعاً جذاباً :

سلوا عن الاسم القوافي أو سلوا أهل الادب .

انه من الحق ان يكون لهذا الكتاب أثره الذي أشرت اليه .. وما من شك في ان المؤلف اجتاز الامتحان النهائي في صناعة التأليف بجدارة ينبغي ان يغبط عليها ..

ومما هو حري بالتنويه ان نشير الى ان الشوبكي كان يهم بوضع اكثر من رسالة في الترجمة لعدد من الشخصيات الادبية على هذه الطريقة اي طريقة المحاكمة والاستجواب والاستنطاق ...

ولو فعل ذلك لتم به عن خفايا وأسرار ومعلومات ذات شأن وأهمية في دنيا الادب والتعريف بالادباء .

هذا وللمؤلف منا عاطر التهاني والتحيات ...



العقل طبيعة بذاته

تاليف لورين ايزلي

اشتهر العالم لورين ايزلي بمحاولته الدائمة لربط العلم بالمعرفة الانسانية ؛ وقد حاول في كل مؤلفاته أن يبين كيف انبثق العلم من المعرفة وما هي نقاط التلاقي بينهما في العصر الحديث . وهو في كتابه الجديد يحاول أن يربط بين العلم والمعرفة في مجال التاريخ الطبيعي للانسان (أنثروبولوجيا) ومن أجل ذلك اقتفى آثار سلوك انسان القرن العشرين من خلال تطورها الى عصور الخليقة الاولى ، بأسلوب علمي وشعري في آن معاً . وقد استطاع باستقصائه الدقيق أن يوضح مكتشفات الماضي وتعقيدات الحياة الحالية . وقد توسع العالم في بحثه الطريف عن التطور ليبرهن ان التطور لايعلل نجاح الانسان في التغلب على بقية المخلوقات . وهو يقول : « ان الدماغ البشري يتيح للانسان فرصة الفرار من قوانين التطور ، مادام جسده لم يعد قادراً على التلاؤم مع البيئة ليتابع الحياة بحسب تغيراتها . » وهو يقول عن الانسان حين يبحث في أصل الحياة : (كان الانسان مخلوقاً لم تعرف الطبيعة مثله من قبل – كان حيواناً حالماً – يستطيع أن يخلق في ذهنه عالماً من صنع أحلامه ويعيش فيه ولو بعض الوقت متشاركاً مع الآخرين في الأحلام نفسها .

وبذلك قدر الانسان على التملص من الوجود الازلي للحيوان في عالم الحاضر ، وتمكن بفضل أحلامه من ادراك الماضي وتمييز المستقبل .

ويرى العالم ايزلي أن العقل غامض غموض الطبيعة ، وأن الحدس العقلي يملك صفة الاختبار التجريبي الذي تجريه الطبيعة على المخلوقات . وهو يؤكد ذلك بقوله : « السر الذي يحيرني هو أن عجبي يزداد كلما نظرت الى العالم . ان الطبيعة في اتجاهها العملي الفظ لاتدري أن هناك عالماً آخر يتألف بأكمله من الهواجس » .

ويشير المؤلف الى أن فهم طبيعة التطور الانساني يضيء لنا عدة زوايا معتمة في الحياة ؛ فهو يبحث مثلا في القول السائر : « إن البقاء للأقوى ، أما الشفقة والعطف فهما من علائم الضعف » . ويعلق عليه بقوله :

« الحقيقة أن الانسان عطوف بالفطرة ،

لاتقل شيئاً

تاليف : جيمس هانلي

هذه الرواية لم تكتب لامتاع القارئ، بل لا رعابه . فجيمس هانلي الذي تجاوز الستين لم يحظ بالنجاح بين القراء . وانما اقتصر عدد المعجبين به على دائرة تتألف من النقاد والمثقفين فقط ، ومن هؤلاء الناقد الشهير هربرت ريد الذي ألف عنه دراسة بعنوان « الواقعي المظلم » وبينهم أيضا س.ب سنو الذي كتب عن انتاجه « إنه يملك قوة لا يشاركه فيها أي كاتب معاصر . » .

وقد رسمت شخصيات الرواية بجدة وصرامة. وهي تعيش في « بيت محافظ ، وفي مدينة مغلقة، حيث يبدو الليل عميقا مظلما كليل الكهوف ، وحيث يفقد ضوء النهار مقدرته على خلق الظلال. » وقد كتبت الرواية بنفس طويـل من الصمت المحكم والضجيج الفظ ، بأسلوب حاد متقطع .

وترتبط شخصيات الروايـة بعضها ببعض بصلات معقدة من الحب والكره . إن جوشو يتز وأختها ويفرد تتشاحنان طيلة الوقت ، وتتجسس احداهما على الاخرى بغية ايقاع الاذى بهـا . ومع ذلك فان أحد الطرفين لايجد في نفسه القوة والحزم ليغادر البيت وينشئ حياة

ولو لم تكن شفقته على أبنـاء جنسه تكمن في أعمـاق قلبه حيث يفيض الحب سمحاً غريزياً ، لمزقت كلاب أفريقيا عظامه ونثرتها في السهوب حيث بدأ الانسان مغامرته الكبرى في التحول الى كائن عاقل . إن الطفـل الانساني يأتي الى العالم عاجزاً كما كان قبل عشرة آلاف عام .

ولولا ارادة المحبة عند العاقل الراشد لماأنفق السنوات الطوال وهو يمرض ويرعى ويربي أبناءه. ودون المحبة يمحي وجود الانسان . »

وحين يراقب النجوم يتساءل عما اذا كان التطور قد أوجد الحياة على الكواكب الاخرى. ويختم تأملاته قائلاً : « ربما توجد في ظـلام الكواكب ثمة حياة . ولكن سواء أكانت حياة خلايا صغيرة أو مخلوقات عالية ، فانها لن تأتي على صورة الانسان . فهذه الصورة نتاج تطور غريب وطويل الامد من خلال الغابات الكثيفة السامقة.. وإن مهاوي الذلـل تفوق فرص النجاح بمرات لا تحصى بحيث لا يمكن أبـداً أن يأتي ما يشابه الانسان مرة ثانية . ولا أستريب مطلقاً أن توجد في مكان ما من الفضاء حياة قد تمتلك القوة أو الحكمة ، وربما تكون في هذه اللحظة تنظر إلينا مثلما ننظر اليها بلهفة وتوق ؛ ولكن مع ذلك ، فان في طبيعة الحيـاة نفسها ، وفي صميم مبادىء التطور نجد جواب تساؤلنا عن امكان وجود انسان آخر في الكواكب . إن مثل هـذا الانسان لم يوجد ولن يكون .

جديدة تنمّ ماض مأساوي يشدهما الى بعضهما البعض . اذ أن جوشوا يتز تغوي توم بمجرد أن يعلن خطبته على أختها وينفريد وسرعان مايموت توم بعد ذلك بقليل .

وفي كل صلاة تكفر يتز عن خطيئتها فتذهب الى المقبرة عوضاً عن الكنيسة ، فتصيح وينفريد باختها يتز من جانب القبر « انزعي هذا الصليب عنه » فتصرخ يتز في وجهها : « ابكي ايتها الكاذبة . ابكيه.. » وفي اثناء ذلك تقوم زوجته جوشفوا ، بحفر جوانب القبر . وحين يعودان يمضيان الاسبوع بالخصام والمشاجرة لأن يتز ترفض أن تشاركها أختها وينفريد بالسكن في بيت واحد . والتوتر النفسي الذي تعانيه يتز ويضغط على أعصابها ناشيء من تأملها بالموت . وهي تعرض فكرة الموت عرضاً عاطفياً حين تناجي نفسها فتقول : فكري يا يتز في اليوم الذي تتحولين فيه الى تراب .. إنك لن تكوني شيئاً آنذاك .. لن تكوني شيئاً ! » .

ثم تؤجر الاسرة احدى غرفها لطالب وحيد. ولا يلبث هذا الطالب أن يرتاع من العزلة التي تفرضها يتز على نفسها ، ويتساءل دهشاً عن كنه ذاك البيت الذي لاتصل اليه الجرائد ولا يحوي مذياعاً ، ولا يفتح نوافذه للشمس بل يحتم على ساكنيه أن يغلقوا الشبابيك ويقفلوا الابواب . لكن مسز يتز تجيب على هذا التساؤل قائلة « اننا نعيش داخل ذواتنا . ولن يستطيع أي انسان أن يدخل الى نفوسنا وينتزعنا منها. »

وبعد جهد جهيد يستطيع المستأجر أن يقنع السيدتين باصطحابه الى نزهة خارج المنزل، لكنهما تتشاجران في الطريق وتعودان لتعاقب احداهما الاخرى ويستأنفا الخصام رغم انهما تتوقان من خلال هذا الظلام الى حياة أفضل . أما المستأجر الجديد فانه يعجز عن مغادرة المنزل رغم أنه يضيق ذرعاً بجوه الكئيب . وهو يعلق على وضعه الجديد بقوله : « لست وحيداً في تشبثي بهذا المكان . ان اي انسان يأتي اليه يفقد القدرة على مغادرته . »

ولعل بطل الرواية لايتحدث عن شعوره تجاه هذا البيت فقط ، بل يتحدث عن الحياة بأجمعها ...



رسالة العراق

من علي الشوبكي

صدر في بغداد :

● القصة العراقية قديماً وحديثاً : تأليف : جعفر الخليلي ــ مطبعة الانصاف ــ ١٩٦٢م.
عالج المؤلف في الفصل الأول منشأ القصة وتاريخها ، وأثر كليلة ودمنة في القصة العربية. ثم تكلم عن قصة ألف ليلة وليلة، والمقامات ، وعلى القصة في كل من مصر وسوريا ولبنان والعراق . وتكلم في الفصل الثاني عن أربعة من القصاصين العراقيين بعد عرض لطابع القصة العراقية واركانها .

● رسالة الكندي في عمل السيوف : تحقيق : الدكتور فيصل دبدوب ـ أصدرته وزارة الارشاد ــ مطبعة العاني ــ ١٩٦٢ م .
ألف الكندي هذه الرسالة للمعتصم بالله .. تبحث الرسالة في « اتخاذ جواهر الحديد للسيوف وغيرها من الاسلحة وسقيها » .. قدم لها فضيلة الشيخ بشير الصقال .

● فتح القسطنطينية : تأليف : برناردين كلتي ــ ترجمة : الزعيم الركن المتقاعد شكري محمود نديم ــ مراجعة : الدكتور جعفر خصباك ــ نشر وتوزيع مكتبة النهضة ــ مطبعة دار التضامن ــ ١٩٦٢م .
هذه قصة تاريخية ممتعة ، ترسم للقارىء صورة واضحة عن فتح مدينة القسطنطينية التي كانت اعظم عواصم الدنيا بعد حصار دام (٥٣) يوماً .

● **لبيد بن ربيعة العامري :**

تأليف : يحيى الجبوري — مطبعة المعارف — ١٩٦٢م.
درس المؤلف حياة لبيد في الجاهلية والاسلام ، ثم تكلم على شاعريته وآثاره والاغراض التي نظم فيها .. الكتاب مزود بفهارس للاعلام والامكنة والملل والنحل ...

● **مقالات :**

تأليف : الدكتور علي جواد الطاهر — مطبعة اتحاد الادباء — ١٩٦٢ م .
يتضمن الكتاب مقالات سبق أن نشر المؤلف معظمها في الجرائد والمجلات ، وهي خطرات في النقد والقصة ، وتعريف ببعض الكتب .

● **أخوان وهديتان :**

ترجمة : عبد المجيد النعيمي — تصوير : ترودي متلمان — انتاج مركز وسائل الايضاح بوزارة المعارف — ١٩٦٢م.
في هـذا الكتاب قصتان قصيرتان للاطفال ، الأولى : (الأخوان) ، وهي ذات مغزى يحث على المحبة والايثار .. والثانية (الهديتان) ومغزاها يحبب للاطفال الكرم ومساعدة الآخرين .. الكتاب يؤلف الحلقة الخامسة من سلسلة «المكتبة المدرسية لقصص الاطفال .»

● **احمد والجمل :**

ترجمة : عبد المجيد النعيمي — تصوير : متلمان — انتاج : مركز وسائل الايضاح — ١٩٦٣ م.
وهـذا الكتاب هو الحلقة السادسة من سلسلة المكتبة المدرسية لقصص الاطفال .. يتضمن قصة طريفـة موضحة بصور زاهية جذابة .

● **استقلال الجزائر :**

تأليف : عبد اللطيف الدليشي — مطبعـة التضامن — ساعدت وزارة المعارف على نشره — ١٩٦٢ .
الكتاب رواية تمثيلية ذات ثلاثة فصول تمثل جانباً من كفاح الشعب الجزائري البطل في سبيل الاستقلال .

● **الرصافي في أوجه وحضيضه :**

تأليف : الشيخ جلال الحنفي — مطبعة العاني — ساعدت وزارة المعارف على نشره — ١٩٦٢ .

يتناول الكتاب استعراض قصائد الجزء الاول من ديوان الرصافي على أساس غربلتها وبيان غثها من سمينها .

● **الامثال البغدادية :**

تأليف : الشيخ جلال الحنفي — مطبعة أسعد — ساعدت وزارة المعارف على نشره — ١٩٦٢ .

يتضمن هذا الكتاب الامثال البغدادية الشائعة مقرونة بشرحها وتوضيح مضاربها .. في الجزء الاول هذا (١٦٠٠) مثل تنتهي بحرف الكاف (أي ٢٤ حرفاً) ، أما الحروف الباقية فستصدر في الجزء الثاني الذي ساعدت على نشره وزارة المعارف ايضاً .

أخبار ثقافية :

● غادر بغداد الى القاهرة الشيخ محمد رضا الشبيبي لحضور الاجتماع السنوي لمجمع اللغة العربية هناك .. وقد أعد الشيخ الشبيبي بحثاً عن « العلاقات بين مصر والعراق في القضايا الثقافية » استعرض فيه تاريخ العلاقات المذكورة بين البلدين منذ فجر الاسلام الى يومنا هذا .. كما أعد بحوثاً اخرى عن « المؤتلف والمختلف » ، ودراسة عن « الشعر الحر » اضافة الى الملاحظات التي سجلها حول قوائم المصطلحات التي أقرها المجمع .

● اقامت « لجنة دراسة تكوين المهندس » في مقر نقابة المهندسين في بغداد ندوة علمية بعنوان « رفع كفاية الجهاز الهندسي في الحكومة » .. قدم الندوة المهندس محمود حسن جمعة مفتش الري بوزارة الزراعة .

● جاء في النشرة الشهرية الاخيرة لمكتبة المتحف العراقي أن عدد المجلدات الموجودة فيها قد بلغ (٤٠٢٩٨) مجلداً .

● يعكف الاستاذ مصطفى علي وزير العدل السابق على اخراج « ديوان الرصافي » بالشكل الذي يليق بمكانته بين شعراء الامة العربية .

● يصدر الدكتور اكرم فاضل مدير الارشاد والصحافة العام بالوكالة قريباً ترجمته لكتاب « ماسنيون » عن اللهجة البغدادية .

● صرح المربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري بانه سيشرف في الصيف المقبل على طبع مذكراته « عشرون عاماً في خدمة العراق » ، كما انه سيعد الجزء السادس من « حولية الثقافة العربية » .

● تعمل الشاعرة مقبولة الحلي على طبع ديوانها الجديد « الحب الكبير » .

● اكتشفت البعثة الآثارية العراقية التي تعمل في منطقة (الحضر) في لواء الموصل ـ لاول مرة ـ بعض التماثيل الافريقية ، وينتظر أن تميط دراسة هذه التماثيل اللثام عن جوانب هامة من تأريخ العراق في تلك المنطقة .

● علم في بغداد أن المجمع العلمي العربي بدمشق قد قرر طبع ديوان الشاعر الشامي «ابن النقيب» الذي قام بتحقيقه وشرحه الاديب العراقي عبد الله الجبوري .

● انتهى الاستاذ احمد مطلوب ـ المدرس في كلية الآداب ـ من تحقيق رسالة « فوح الشذا في مسألة كذا » لابن هشام الانصاري .

● انجز علي الشوبكي اعداد «ديوان بغداد» الذي كلفته وزارة الارشاد باعداده بمناسبة المهرجان الالفي لبغداد والكندي .. يضم الديوان كل ماقيل في بغداد من شعر منذ تأسيسها حتى الآن .

● وجهت « جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين » كتاباً الى اعضائها تدعوهم فيه الى الاسهام في الموسم الثقافي الحالي بتقديم مالديهم من انتاج ادبي في الشعر والقصة والنقد .

● سألنا الاستاذ الدكتور مصطفى جواد السؤال الآتي :

ماراَيكم فيما تنشره بعض الجرائد على صفحاتها الادبية من شعر ركيك معتل الوزن تافه المضمون بحجة تشجيع الناشئين ؟

فأجاب : لايجوز نشر مثل هذا الشعر قبل أن يهذبه المشرف على الصحيفة الادبية بحضور الناشيء ليبين له مواطن الضعف ويرشده الى الصواب ، والا كان المشرف « ركيكا » كشعر الناشيء .

● يصدر قريباً للشيخ جلال الحنفي « معجم اللغة العامية البغدادية » في ٤٠٠ صحيفة تتضمن حرف الالف .

● صرح الاستاذ طه باقر مدير الآثار العام بأن سيتم قريباً تنفيذ البرنامج الخاص بتبادل القطع الآثارية بين العراق وسورية ، حيث سيتلقى المتحف العراقي بعض القطع المكررة من اكتشافات « تدمر » مقابل بعض مكتشفات « الحضر » التي ستهدى الى متحف دمشق .

أخبار فنية

● أدلى عميد المسرح العراقي الاستاذ حقي الشبلي بحديث الى محرر جريدة « الايام » البغدادية قال فيه : لقد تعرفت على فرقة «الفنون الشعبية السورية » في أثناء وجودي في دمشق خلال أشهر الصيف ، وقد أعجبت حقاً بتنظيمات هذه الفرقة ومناهجها ، اذ ان الفن الذي تقدمه عربي أصيل ، جدير بأن يفخر به وبأن يقدم على مسارح العالم المختلفة ، وان للفرقة مواهب فنية ممتازة الى جانب مايتمتع به كل فرد من أفرادها من خلق كريم وثقافة فنية ..

وقال الاستاذ الشبلي انه هو الذي اقترح على السفير الاديب الدكتور ناصر الحاني أن تزور هذه الفرقة بغداد ، وقد رحب سيادة السفير بالاقتراح وعمل على تنفيذه ، فكانت مناسبة سعيدة أن

يتحقق هذا التعاون الفني بين القطرين الشقيقين.. ثم اقترح الاستاذ الشبلي في ختام حديثه تأليف فرقة عراقية للفنون الشعبية على غرار الفرقة السورية .

● تستعد فرقة التلفزيون التمثيلية لتقديم رواية عنوانها « أيام ضاعت » ، من تأليف « عبد الجبار ولي » مدير البرامج والمشرف الفني على الفرقة .

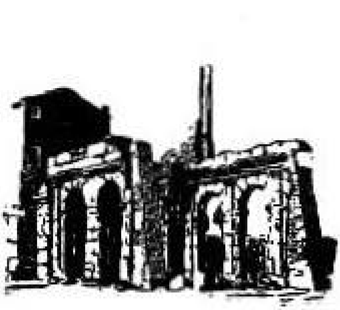
● يجري العمل على قدم وساق للانتهاء من تصوير فلم « أوراق الخريف » الذي يخرجه « حكمة لبيب » ويمثل فيه « حامد الاطرقجي » و « سليم البصري » و «موريس» و «سعدون العبيدي » ..

● يتدرب طلبة معهد الفنون الجميلة في بغداد على تمثيل مسرحيتي « القلب الارعن » و « دنيا المصالح » لتقديمها في القريب العاجل .

● رفضت وزارة الشؤون الاجتماعية الطلبات التي قدمت اليها بشأن الحصول على اجازات لتأسيس فرق تمثيلية جديدة . . ونصحت أصحاب تلك الطلبات بالانضمام الى الفرق العاملة حالياً والتي يبلغ عددها (١١) فرقة .. وقد أعدت الوزارة دراسة خاصة تناولت فكرة تشجيع الفرق التمثيلية العاملة من الناحية المادية فرصدت لها مبلغ خمسين الف دينار في ميزانية السنة الجديدة .

● تم انجاز أول فلم وثائقي فولكلوري عن فن الصياغة ، والفلم من اعداد نوري الراوي واخراج فكتور حداد وتصوير عاطف الطاهر وانتاج مصلحة المسرح والسينما في وزارة الارشاد..

● ستعقد منظمة اليونسكو مؤتمراً دولياً في بغداد للموسيقى الشعبية يكون خاصاً بالموسيقى الشرقية .. وتعمل وزارة الارشاد مع الجهات ذات العلاقة للتهيؤ لعقده ، وقد علم أن منظمة اليونسكو ستقيم في بغداد أيضاً متحفاً للآلات الموسيقية المستعملة في شتى انحاء العالم .



فنون

يقدمها : حسن كمال

معرض الرسم الهنغاري

•

افتتح في التاسع والعشرين من شهر كانون أول ١٩٦٢ في المتحف الوطني بدمشق تحت رعاية وزارة الثقافة والارشـاد القومي معرض الرسم الهنغاري والمعرض المذكور يضم في حقيقته نسخاً عن اللوحات الفنية المنتشرة في متاحف هنغاريا والتي رسمها فنانون هنغاريين وغير هنغاريين من هولنديين وافرنسيين ... واللوحات المذكورة هي نسخ أمينة تم اخراجها بطرق كيميائية حديثة انفردت بها الجمهورية الهنغارية ولا شك ان هذه الطريقة الفنية الناجحة أتاحت لجمهورنا ولجمهور الدول التي عرض فيها التمتع بروائع الفن العالمي اذ من المتعذر اخراج تلك اللوحات النادرة والتي لاتقدر بثمن خارج البلد الذي يضمها .

ويمثل المعرض المذكور انتاج ثلاثة قرون من الفن تبدأ في القرن الثامن عشر وتنتهي في عصرنا الحاضر وعلى هذا فقد مثلت فيه مدارس فنية مختلفة وكان أبرزها المدرسة الرومانيـة والمدرسة الانطباعية وهذه الأخيرة برز فيها فنانون هنغاريون ابدعوا كل الابداع وكذلك فنـانون آخرون وتعتبر هذه التظاهرة الفنية من أنجح التظاهرات التي أتاحت لجمهورنا الاطلاع عن كثب على أروع الانتاجات العالمية . وقد لقي المعرض نجاحاً كبيراً وزاره جمع غفير من المواطنين . وخاصة طـلاب المدارس ، وقد اعارته وزارة الثقافة والارشاد القومي ووزارة الاعلام اهتماماً كبيراً .



امرأة وطفل

للفنان بروتسكي اشتفان

الفنان

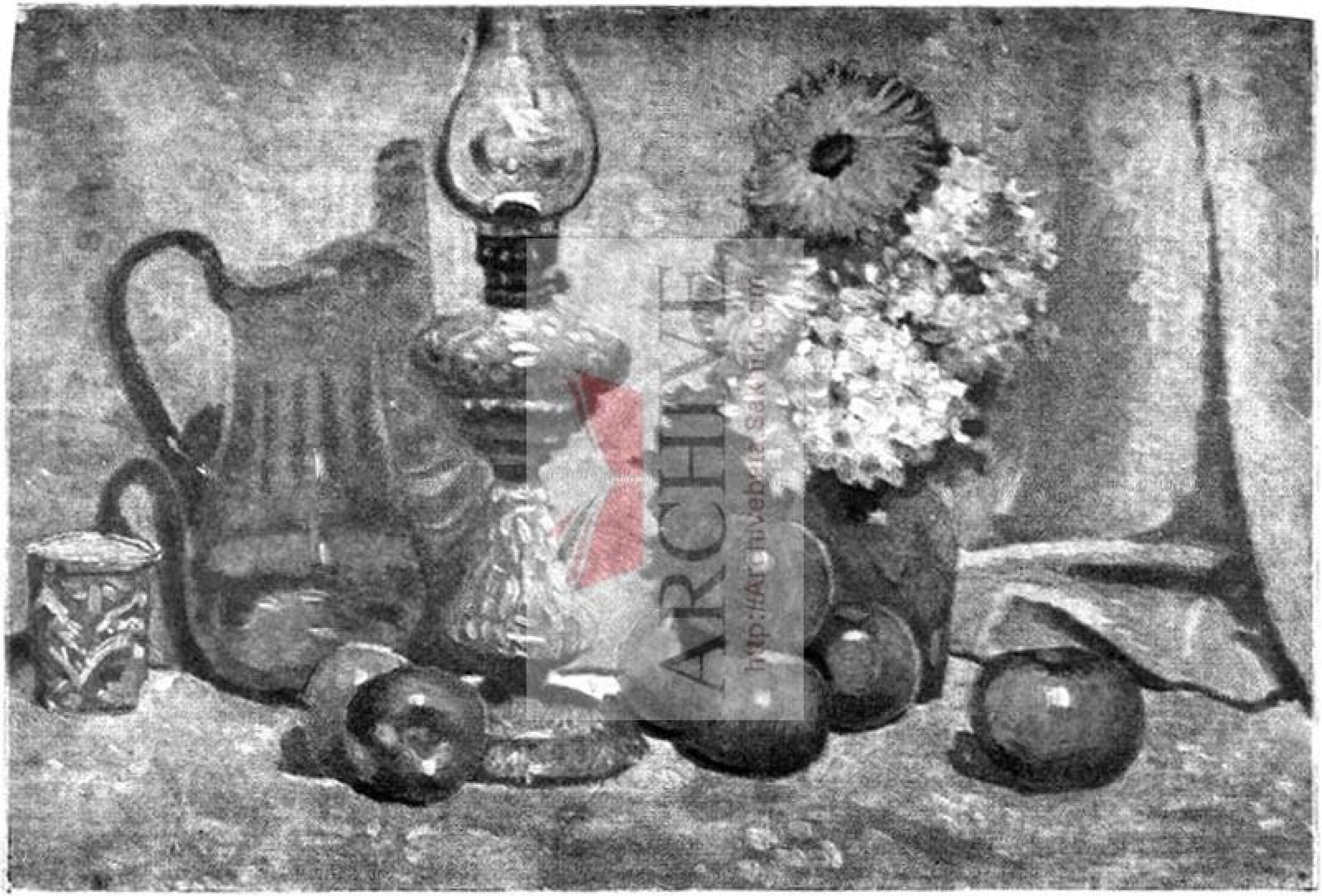
صبحي شعيب

● ولد عام ١٩٠٩ ، وساهم في أكثر المعارض الفنية التي اقيمت في سورية منذ فجر النهضة الفنية ، وقد نال الجائزة الأولى في المعرض الرسمي عام ١٩٥٠ على لوحته (العودة الى القرية) وقد أقتنيت لوحاته من قبل عدة مؤسسات رسمية ، يعمل حالياً كمدرس للفنون في ثانويات حمص ، وقد كلف بالاشراف على مركز الفنون التشكيلية الذي انشيء حديثاً هناك .

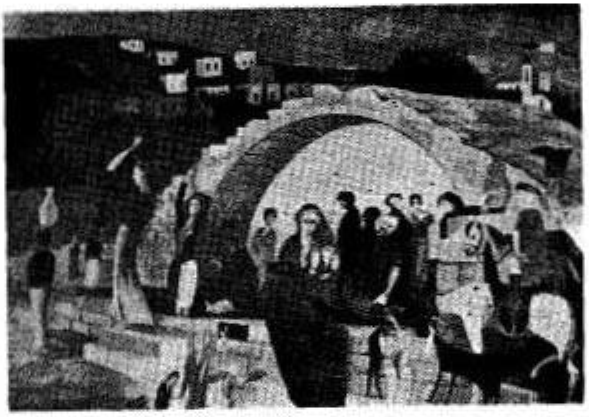
اللوحة

طبيعة صامتة

● قياس اللوحة (٥٠ × ٣٠) ويتجلى فيها بوضوح تأثره باستاذه (توفيق طارق) ، وهي لاتختلف عن لوحاته الأخرى من حيث الأسلوب وإن كان موضوعها بعيداً عن المواضيع التي اعتاد معالجتها ، إذ اشتهر كفنان واقعي يطرق دوماً المواضيع الاجتماعية .



طبيعة صامتة ـ صبحي شعيب



بئر العذراء في الناصرة

للفنان : تشونعادي تيغودور

صورة في المعرض الهنغاري بدمشق

●
●
●

دمشق ـــــ المتحف الحربي

يبدو أن المتحف الحربي فيدمشق الذيأسس منذ عهد غير بعيد في طريقه الى استكمال اطاره العسكري الوطني وهو بين الفينة والفينة يفاجئنا بقاعاتجديدة فبالأمس القريب افتتح فيه قاعة الثورة والسيوف ... وهو في طريقه الى اعداد قاعات أخرى منها قاعة الاعلام والرايات العربية، قاعة الجيش السوري والتي ستعرضفيها وثائقعن مولد أول جيش عربي في سورية منذ عهد الملك فيصل وتشكيل أول حكومة مستقلة حتى يومنا هـذا مع ايضاح كافة المراحل والتطورات العسكرية والوطنية التي مرت على البلاد .

فالى جيشنا الباسل ومتحفه الحربي نتمنى ازدياد القوة والتقدم .

كوبا ورومانيا

كان من نتائج التبادل الثقافي القائم بين كوبا وجمهورية رومانيا الشعبية أن أرسلت كوبا في الاسابيع القليلة الماضية معرضا للفن الكوبي أقيم في بخارست والمعرض المذكور يضم عدداً من لوحات الفنانين المعاصرين وقد عبر الفنانون في لوحاتهم عن مختلف النشاطات الحاليـة في كوبا ولقد تم المعرض المذكور في بخارست بنجاحات كبيرة وأقبل الرومانيون المتذوقون على مشاهدته باعداد كبيرة لما اتسم به الفن الكوبي من القوة والاجادة .

فرنسا

وأخيراً برت وزارة الثقافة الفرنسية بوعدها



الجوكندا

فأتاحت الفرصة الخيالية النادرة للشعب الاميركي للتمتع بمشاهدة لوحة الجوكندا في قلب أميركا وكان وزير الثقافة الافرنسية مالرو قد وعد ابان زيارته لأميركا منذ شهور أن يبذل قصارى جهده لاعارة الاميركيين لوحة الجوكندا وتساءل الناس يومئذ من افرنسيين واميركيين عما اذا كان من السهل تحقيق ذلك الوعد وذلك الحلم ، وتحققت المعجزة وخرجت الجوكندا من متحف اللوفر في نزهة شتوية عبر الأخطار التي حملت شركات النقل والتأمين في أوروبا على رفض نقل اللوحة بأي ثمن كان وأخيراً وافقت احدى الشركات على ذلك وتم نقل اللوحة من باريس الى واشنطن تحت رقابة مشددة وقد عرضت اللوحة هناك تحت حراسة قوية وما زالت تعرض . وتعتبر هذه الظاهرة الفنية لظاهرة رائعة ولكنها محفوفة بالخطر لما تتمتع به اللوحة من المكانة الرفيعة في عالم الفن وبالنظر لما تعرضت اليه من أخطار عبر القرون الماضية ومن الجدير بالذكر أن اللوحة المذكورة كانت قد ثارت حولها في الشهرين الماضيين ضجة كبرى مفادها أن المؤرخ الفني الروسي غروكوفسكي يرى أن لوحة الجوكندا التي تتجول في أميركا اليوم ليست هي اللوحة الأصلية وانما الجوكندا الأصلية هي اللوحة التي تأخذ مكانها في متحف الارميتاج في لينينغراد تحت اسم « كولومبين » .

تشيكوسلوفاكيا - براغ

معرض الفنان فرانتيشيك تيشي

١٨٩٤ — ١٩٦١

يعتبر معرض الفنان تيشي حدثاً هاماً في ميدان الفنون التشكيلية في براغ لهذا الموسم وقد كتبت الصحافة العالمية الشيء الكثير عن الفنان الذي أحب الحقيقة فأبدع في تخليدها ومجد الخيال فأجاد في التحليق في اجوائه العالية .

كان تيشي يعيش بعيداً عن الفنانين قريباً من الجمهور لذا فقد جاء انتاجه حاملا طابعه الشخصي فهو لم يقلد الآخرين في انتاجهم ولم يكرر ما كان معروفاً عند غيره وانما كان بحاثاً مجدداً لم تطأ



الفارس

للفنان فرانتيشيك تيشي

قدمه أرضاً سبقها اليه أحد وانما كان سباقاً في الابداع والاكتشاف والتجديد بل وحتى لم يكن يفتش عما يرضيه أو يرضي الآخرين وانما كان يسعى لتجاوز الصعاب والعقبات للوصول الى ماهو جديد بديع .

عالج الكثير من المواضيع ولكن ظل اكثر تطوراً وحساسية في ميدان صور الاشخاص لقد عمد في اشخاصه الى سبر غورها ومعرفة مايجول بخاطرها وغالى — باجادة طبعاً — في التعبيرعن حركتها .. عاش مع الناس أزماتهم وشاركهم افراحهم . لذا جاءت رسومه فيها الحقيقة وفيها الخيال .

الاتحاد السوفييتي

يبدو أن التيارات الفنية الغربية بدأت تأخذ طريقها الى أوربا الشرقية التي بدأت تتقبل تلك التيارات بصدر رحب فقد أقيم فيموسكومؤخراً معرض فني تشكيلي اشترك فيه كبار الرسامين والنحاتين السوفييت .

احتشد هواة فن الرسم والنحت لزيارة المعرض الذي تميز لاول مرة بوجود بعض اللوحات الانطباعية والتي تنتمي لمدارس فنية غربية لكن الطابع العام الذي غلب على اللوحات والتماثيل كان طابع الالتزام ولجأ بعض الرسامين الى تخليد الثورة الكوبية وكفاح كاسترو في لوحات فنية تميزت بالقوة والعمق في التعبيرمماجعلها تستأثر باعجاب زوار المعرض .

ولقد لاحظ النقادالفنيون أن التيارات الغربية في الرسم بدأت تغزو قلب موسكو بالذات ووجدت لها انصارا ومؤيدين بين المحترفين والهواة والمتفرجين على حد سواء .

وهنا لابد لنا من التساؤل فيما اذا كان سيكتب للتيارات الاكثر تطرفاً كالدادائية والتجريدية الدخول اليها ؟ ان الأيام القريبة كفيلة بالاجابة على هذه التساؤلات .

الولايات المتحدة الامريكية

المعرض الدولي لعام ١٩٦٤ - ١٩٦٥

بات من المقرر أن يؤتى بمخطوطات البحر الميت الى الولايات المتحدة الاميركية وذلك لعرضها في المعرض الدولي لعام ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ كما تقرر أن تقوم المملكة الاردنية الهاشمية بعرض المخطوطات محفوظة في متحف الآثار بالقدس .

وليس هناك من يجهل الأهمية البالغة التي تتمتع بها تلك المخطوطات . ويرى المختصون الاميركيون ان هذه الفرصة الذهبية لاتفوت وان في تحقيقها الكسب العظيم للشعب الاميركي ويعكف المسؤولون عن هذا المعرض منذ الآن لاعداد العدة لاستقبال تلك المخطوطات وغيرها من الآثار الهامة التي يساهم فيها عدد كبير من دول العالم ، وفي اعتقادنا أن المسؤولين في بلدنا لن يفوتوا هذه الفرصة على بلدنا الغني في آثاره وفنونه خاصة وبلدنا يطفح بروائع الآثار والفنون التي تخرجها ارضنا الخيرة يوماً بعد يوم .

منظمة اليونسكو

مشاريعها في ميدان الفنون لعام ١٩٦٣ — ١٩٦٤

ضمت مؤسسة اليونسكو في برامجها لعام ٩٦٣؟ ــ ٩٦٤ مشروعات شتى تتعلق بالفنون العالمية وضرورة العناية بها وبسطها بين ايدي سائر الشعوب وخاصة منها الشرق وذلك ضمن مشروعها المسمى (الشرق والغرب) .

وتمشياً مع مبدأ « حق الجميع في المساهمة في الحياة الثقافية » ستجهد منظمة اليونسكو في وضع روائع الفنون التشكيلية والموسيقية رهن اشارة الجماهير عن طريق التوسع في استخدام تقنيات الاستنساخ الآلي الزهيدة الكلفة التي تتحسن يوماً بعد يوم وعلى سبيل المثال ان مؤسسة اليونسكو ستصدر خلال عامي ١٩٦٣ ــ ١٩٦٤ طبعات جديدة بثلاث لغات لمجموعتي مستنسخات الرسومات الملونة التي يرجع عهد اولها الى ماقبل ١٨٦٠ وتضم ثانيها الرسوم التي رسمت عام ١٨٦٠ حتى يومنا هذا كما أنها ستصدر ستة كتب جديدة من المجموعة المعروفة باسم « مجموعة اليونسكو من الفن العالمي » كما ستنشر مؤسسة اليونسكو ثلاث جديدة من مجموعات اليونسكو للشرائح الزجاجية التي تمثل الآثار الفنية واعداداً ضخمة من مجموعات كتب الجيب الرخيصة التي تتناول فنون مختلف البلاد وذلك بمعدل اربعة مجلدات كل عام وذلك بالاضافة الى المعرض المتنقل الجديد التي ستفتحه بعنوان الفن والكتابة وسيقدم مجلس الموسيقى الدولي الى هيئات الاذاعة بالمساعدة في اختيار مقطوعات موسيقية جديدة ستعرض في المنبر الدولي لمؤلفي الموسيقى ومما لاشك أن مشاريع العامين ٦٣ ــ ٦٤ هي مشاريع خيرة مفيدة فيما لو تحققت جميعها راجين ان يفيد بلدنا منها خاصة

ونحن نمر في مرحلة بناء مرحلة تحتاج الى العديد من الاطلاعات الواسعة التي تعهدت اليونسكو بتحقيقها للشعوب التي تبدي رغبة اكيدة في الاستفادة منها .

المانيا الاتحادية

عرض في قاعة المؤتمرات في برلين الغربية في اواخر العام الماضي معرض كبير ضم انتاج الرسام الالماني الشهير اميل نولد في حقل الرسوم المائية والحفر الرائع في المعرض المذكور أنه تضمن خلاصة تجارب الفنان خلال مراحله التطورية اعتباراً من اول القرن العشرين الى مابعد الحرب العالمية الثانية .

والفنان نولد له انتاج خصب في ميدان الاتجاه التعبيري ويعير الوانه اهمية كبرى لتكون ذات تأثير عميق على نفوس الشاهدين ويقول النقاد الفنيون ان معرض نولد كان اكثر المعارض تأثيراً في نفوس المشاهدين بين العديد من المعارض التي عرضت في الخريف الماضي في برلين .

النمسا

يعرض اليوم في متحف الزختنا في وارسو معرض الرسامين النماويين الحاليين الذي يضم سبعين لوحة ، ساهم في تقديمها عشرون فنانا نمساويا يمثلون المدرسة الفينوازية ويعتبر المعرض المذكور نتيجة من نتائج المعاهدات الثقافية المعقودة بين البلدين .

الدول السكاندنافية

يعد المسؤولون عن شؤون الثقافة والفنون الشعبية في بولونيا معرضا يمثل الفنون التشكيلية الشعبية لارساله الى الدول السكاندنافية التي تعد العدة لاستقبال هذه التظاهرة الفنية والمعروف أن الفنون الشعبية البولونية تتمتع بمكان مرموق بين الشعوب الاوربية .

بولونيا

أقيم في كل من مدينة وارسو وكراكوف بمناسبة المؤتمر العالمي لتاريخ الطب أقيم فيمعرض في يضم الانتاج الفني لبعض الأطباء المنتمين الى دول وعصور مختلفة ومن جملة العارضين فرانسوا رابليه ، فريدريش شيللر ، فرانسوا مورياك ، كوسافكي ، وادم غروكا وقد بلغ عددالوحات التي أرسلها الأطباء الايطاليون (٢٠٠) لوحة والأطباء الافرنسيون (١٠٠) لوحة وهناك لوحة على جانب من الاهمية لصاحبها لويس باستور .

ايتاليا

أقيم في الشهر المنصرم في بور دوفيرا بايطاليا معرض للكاريكاتور ساهم فيه ست عشرة دولة آسيوية واوربية وأميركية وقد نالت المجموعة المسماة « عفاريت العالم » اعجاب النقاد الفنيين بما تضمنته من النقد اللاذع لآفات المجتمع العالمي .

سجل النشاط السوري

الفني

لعــام ١٩٦٢

كان عام ١٩٦٢ عاماً مثمراً في ميدان الفنون، تميز بنشاط كبير أبرز ملامحه :

١ — نضوج الفرق الرسمية وسوية جيدة في برامجها .

٢ — رقم قياسي في عدد الحفلات والمتفرجين لم تعرفه سورية من قبل .

٣ — مهرجانات كبرى في النطاق السوري.

٤ — مشاركة قوية في المهرجانات التي عقدت في النطاق العربي .

٥ — افتتاح مسرح القباني.

٦ — اكتمال مشروع مسرح دمشق الجديد.

٧ — رصد الاعتمادات وتهيئة الدراسات لافتتاح معهد موسيقي في حلب .

٨ — توطد المعهد العربي للموسيقا في دمشق.

٩ — نشاط ملحوظ للفرق الفنية الاهلية والفرق الاجنبية الزائرة .

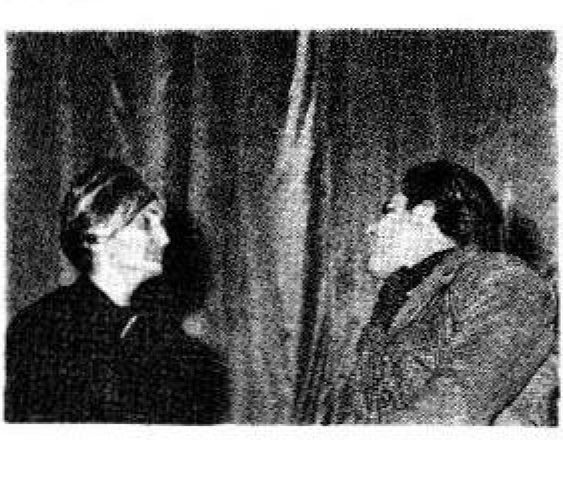
١٠ — عدد كبير من المعارض .

ومن المفيد أن نعرج على كل من هذه النشاطات بنبذة موجزة .

الفرق الرسمية

في سورية من الفرق الرسمية المسارح التالية:

المسرح القومي ، لغته الفصحى ، قدم في ١٩٦٢ روايات « الاشباح » تأليف إبسن، و « المفتش العام » لغوغول ، و « رجل القدر » لبرنارد شو ، و « مروحة اللادي وندرمير » لاوسكار وايلد ، و « الفخ » لروبرت توماس و « البرجوازي النبيل » لموليير . وحضر في



مشهد من مسرحية الاشباح

نفس الوقت روايتين للموسم المقبل هما « جاز » لمارسيل بانيول و « لعبة الحب والمصادفة » لماريفو .

مسرح العرائس ، وقد قدم عدد روايات بعضها طويل كساحر الغابات وعلاء الدين والفانوس السحري ، وبعضها اقصر مثل المريض ، والحطاب ، وهيأ رواية السمكة الذهبية لبوشكين . نظم مسرح العرائس دورة لتعليم معلمي المدارس الابتدائية تحريك الدمى ، تمهيداً لنشر مسرح العرائس في النطاق المدرسي بحيث يكون المعلمون والاطفال هم الذين يحركون الدمى . وقد عمل مسرح العرائس في مسرح القباني ومعرض دمشق وباشر جولته في المدارس يقدم فيها كل يوم حفلتين لخمسمئة طفل بسعر رمزي لبطاقة الدخول هو عشرة قروش سورية لاتستوفى من الفقراء .

المسرح الشعبي وقد قدم في موسم ١٩٦٢ رواية « بيت للايجار » وهي كوميديا شعبية لحكمت محسن . وهيأ رواية « الصلحة » المقتبسة من تورغنيف ، وقام بجولة في المدن السورية وفي المناطق العسكرية والجبهة وقدم حفلات في السجن المدني ضمن برنامج مديرية السجون لتحويل السجون الى مدارس .

مسرح الفنون الشعبية بالتعاون مع

المسرح الغنائي ، وقد قدم عدداً من الحفلات في دمشق وحمص وحلب والسويداء والقنيطرة ، كما قدم ثماني حفلات في تونس في مدن طبرقة وصفاقس وسوسه والقيروان وتونس ونال الجائزة الاولى في مهرجان عيد المرجان وقدرها ألف دينار تونسي . ثم اشترك بثلاث حفلات كبرى في العيد الالفي لبغداد والكندي واستقبل استقبالاً حافلاً من الجمهور والنقاد واعتبر أحسن فرقة اتت الى العراق ، وكان الجمهور يتابعه بمئات الالوف عن طريق التلفزيون السوري والعراقي والاذاعة التونسية .

المسرح العسكري وقد قدم عددا من البرامج الناجحة بعضها من تأليف محلي وبعضها الآخر مقتبس عن المؤلفين الاجانب وطاف ببرنامجه القطعات العسكرية والمدن السورية بالاضافة الى ماقدمه في مسرحه الخاص .

فرقة الفنون الشعبية في التلفزيون

وقدمت عدداً من البرامج في دمشق وحلب كانت محل الاعجاب لما تضمه من عناصر ممتازة في كل الفنون التمثيلية والغنائية والراقصة .

فرقة الهواة في المركز الثقافي في حمص

وقدمت عدداً من المسرحيات الشيقة الناجحة المبشرة بمستقبل كبير خاصة وان حمص ستزود بمسرح ضخم في مركزها الثقافي الذي يجري بناؤه حالياً .

عدد الحفلات والمتفرجين

كان عدد الحفلات التي قدمتها مختلف الفرق الرسمية قياسياً اذ زاد على ٣٠٠ حفلة في عام ١٩٦٢ ، شهدها مباشرة مايزيد على ١٥٠ الف متفرج . وتحقق للفرق المسرحية في وزارة

الثقافة دخل قياسي لهذا العام مما يشعر بأن الجمهور بدأ يشارك باقباله وبثمن البطاقة في نفقات النهضة المسرحية .

ومن المأمول على ضوء ماتقدم ان يبلغ عدد الحفلات في ١٩٦٣ مايقرب من الف حفلة تقدم في مختلف المناطق السورية والعربية .

المهرجانات

قدمت فرق الفنون الشعبية المؤلفة في القرى — وهي غير فرق الفنون الشعبية الرسمية المشار اليها سابقاً وعددها خمس وعشرون فرقة — برامج شيقة في مهرجان الجلاء في دمشق وفي مهرجان القطن في حلب والشمندر في حمص والكرمة في السويداء والتفاح في القنيطرة ، وهي ظاهرة تبشر بانطلاقة قوية للفرق الاهلية في القرى والمدن السورية .

مسرح القباني

وهو مسرح صغير فيه ٢٥٨ مقعداً ، ومنصة عرضها المستخدم ستة امتار بعمق خمسة أمتار ، ولكنه يضمن رؤية ممتازة وسماعاً ممتازاً لكل المتفرجين ، وكان المقر لنشاط المسرح القومي ومسرح العرائس وللحفلات الموسيقية ولحفلات الهواة من طلبة المدارس ، اقيم في هذا المسرح منذ افتتاحه في أول ايار حتى نهاية العام مايزيد على مئة حفلة ، وكان يمكن ان تكون اكثر لولا عدم اكتمال التبريد والتدفئة فيه ، وقد استدرك لهذا العام وعما قريب يصبح كامل التجهيز بحيث يعمل في كل ايام السنة بلا انقطاع .



لقطة من الحفلة الفنية التي اقامتها وزارة الثقافة والارشاد القومي على مسرح سينما الحمراء ، وحضرها رئيس الوزراء ، والوزراء .

الفرق الزائرة

وجاءت الى دمشق فرق موسيقية من المانيا ، وعازفون افراد من المانيا وفرنسا ، وفرقة مسرحية المانية هي فرقة الجسر (دي بروكه) وأخرى فرنسية هي مسرح الفن الباريسي باشراف صوفي لورانس ، وفرقة ثالثة لبنانية تمثل بالفرنسية هي المسرح الجامعي اللبناني ، وطافت فرقة جوك السوفياتية في دمشق وحمص وحلب ، كما قدمت فرقة باليه روبرت جفري حفلاتها في دمشق ، وجاءت فرقة عرائس تشيكوسلوفاكية (عرائس

كارلوفي فاري) وغيرهـا من الفرق الزائرة بالاضافة الى ان برنامج معرض دمشق أتاح للسوريين أن يشهدوا معجزة فنية تشيكيـة هي اللاترنا ماجيكا ، وقد سبق ان قدمنا عنها دراسة موجزة في مجلة المعرفة .

٣٢ معرضاً فنياً

واقيمت في دمشق معارض للتصوير والنحت انكليزية وبولونية ورومانية وهنغارية ومعارض وطنية أبرزها معرض الربيع والخريف والفنون التطبيقية ومعارض لفناني الافراد ، وكان عدد المعارض الكلي اثنين وثلاثين وهو رقم قياسي اذ يعني أنه يوجد في كل عشرة أيام تقريباً معرض ، وفي العادة يدوم المعرض حوالي هذه المدة ، فلم يكن يخلو يوم تقريباً من معرض فني .

واقيمت طائفة من هذه المعارض في المدن السورية الاخرى كما تابعت مراكز الفنون التشكيلية لتعليم الرسم والنحت للهواة عملها الناشط في دمشق وحلب وحماه وفتح مركز رابع في مدينة حمص .

ونشطت الدراسة في المعهد العالي للفنون الجميلة وقبل فوج جديد من الطلبـة ، ونال الرسامون السوريون جائزة اولى في ايطاليـا وعدداً كبيراً من المداليات .



اعداد قلم التحرير

- العلوم – لبنان
- الفكر – تونس
- النعمة – سورية

العلوم – بيروت

نشرت « العلوم » في عددها الممتاز « كانون الثاني » بحثاً قيماً للكاتب العراقي أنيس زكي حسن بعنوان « الثورية مدركة وعمياء ومزيفة » فحدد فيه معنى الثورية الحقيقية وأوضح ظواهرها .. وقسم الثورة الى ثورية عمياء وثورية مدركة وثورية مزيفة ..

وبعد هذا الشرح المطول وصل الكاتب الى غايته فقال : لدينا ، في المجتمع العربي المعاصر ، عناصر متناقضة : لدينا الثورية في اشد حالاتها ، مطبقة في الواقع الفعلي اومفترضة فيدنيا الفرضيات والنظريات ، ولدينا الثورية في أضعف حالاتها في أسوئها ، تتمثل في جوانب من هذا المجتمع نكاد نعتبرها ميتة ، كاسطوانة الحاكي التي تتحرك وتعلن عن وجودها وعن حركية هذا الوجود ولكن برتابة غير منقطعة واستمرارية جامدة تدور حول نفسها . وفي هذا كله نجد ميزات هذه الثورية ايضاً : فلدينا القليل القليل من الثورية المدركة ، والكثير الكثير من الثورية العمياء والاكثر الاكثر من الثورية المزيفة. وقد لايكون في وسعنا ان نجزم بأن هذا الوعي مبتور ناقص واقف عند حد معين . اية نظرية ، مهما كانت ، يمكن أن تأخذ بيد هذا الوعي المبتور الناقص في طريقها الخاص بها ، مضللة اياه ، أو موجهة ومسددة لخطاه ، حسب طبيعتها ، واهم من ذلك، حسب الظروف ، ففي معظم الحالات لايكون ذلك بسبب الوعي نفسه، وانما لان الصدف وضعت هذه النظرية او تلك في طريق ذلك الوعي المبتور فاذا به يتحول الى عاطفة كاملة يضيع فيها ويتلاشى حتى ذلك الوعي المبتور ، ثم تتحول الى عقيدة عمياء وهذه هي اسوأ نتائج الثورية العمياء ، لان الثورية دائمة مستمرة ، وهي تلد النتائج الجديدة

دائماً . وهذه النتائج تميل دائماً الى التقولب في عادات واشكال ثابتة ، اي في عقائد . وغالباً ما تكون نتيجة الثورية العمياء عقيدة عمياء ، وهذا هو جوهر مانعانيه . العقائد العمياء . وربما يرجع ذلك الى العاطفة العربية ، الى طبيعة متأصلة فينا كامنة في نفوسنا ، الى افراطفي الذاتية يؤدي الى افراط في التجمع الذاتي — الاجتماعي بشكل أعمى وبحيث ان صفة الذاتية التي يمكن ان يوجه اليها ، إصبع الاتهام بسهولة تتلاشى في بوتقة اجتماعية وتتولد صفة عمومية لاتقل خطأ وعماء ، ولكنها تكون بعيدة عن الشك والاتهام بحكم صفتها الاجتماعية . ونحن ، في ثوريتنا ، مهما تحددتاعن الخطوط المرسومة ، والوعي الكامن ، والاتجاه الواعي ، فاننا نرى بقليل من التجميع .. ان الارتجال هو الصفة الغالبة ، وان الخطوة التالية هي دائماً خطوة عمياء ، وان النتيجة المرتقبة هي دائماً طوبائية بمجرد مقارنتها مع الواقع السائد . ونجد ايضاً ان ثوريتنا هي دائماً كالاخطبوط ، لها معان كثيرة . الا ان المشكلة فيها هي انها لايمكن ان تقنع . لفترة معينة ،وفي وضعية معينة ، يد واحدة من هذه الايدي ، فلو كان هنالك وعي ثابت لكان هنالك اتجاه ثابت ، ولاتجهت الايدي الى هدف ثابت ، او لامتدت يد واحدة لتحقيق هذا الهدف ، بينما تمتد الايادي الاخرى لتحقيق ذلك الاهداف الاخرى ، ويحدث ان العقائد العمياء التي تولد ثورة عمياء ، تظهر بمظاهر مختلفة ، وسرعان ماتتلاشى الحقيقة الواحدة التي تضم تلك العقائد في عقد واحد ، وسرعان ماتقتل الحقيقة نفسها بنفسها .

الفكر — تونس

في العددالثالث من السنة الثامنةلمجلة « الفكر » التونسية نشر الاستاذ مصطفى الفارسي بحثاً بعنوان « اللاقصة .. ثورة في الادب القصصي الحديث » قال فيه .. يدفعنا الى تقديم هذاالبحث شغفنا بالادب الاوروبي المعاصر وخاصة ما سمي منه « اللاقصة » أو نفي القصة في الفن القصصي . أقول شغفنا وما هو في الحقيقة بشغف بل هو نوع من الحيرة الممزوجة بالاعجاب أمام ثورة أدبية عارمة ظهرت بوادرها في فرنسا ثم انتقلت منها الى انكلترا وستنتقل حتما ككل آفة وككل موضة الى ماوراء البحار .

ويقول الكاتب : ان لأدب اللاقصة قراء كثيرين .. فنوع هذا الادب كما يتوقع بعسر فهمه واستيعابه على القارىء العادي ولا يستميل الا قلوب النقاد ، بل طبقة من النقاد هي طبقة المتهافتين على كل جديد يطرأ على الادب اي طبقة النقاد المحترفين وهم قليل . لكن باستطاعتنا ان نجزم الان ان هذا النوع من القصة بدأ ينتشر انتشاراً كبيراً مما يخول حق الاهتمام به ودرسه والبحث عن مقاصده واهدافه كما باستطاعتنا ان

نجزم من الآن أن جمهرة النقاد في مجموعهم في حيرة من امر هذا الادب القصصي الذي يرمي الى انتاج قصة خالية من العقدة القصصية ومن الشخصيات التي تقوم عليها القصة عادة لذلك سموا هـذا الادب الغريب « اللاقصة » أو نفي القصة في القصة . فما هو تركيب القصة في مدلولها الحديث هذا ؟ يمكننا ان نلاحظ هنا أمرين أو قطبين يرتبط بينهما هذا الادب فهو اولاً ادب المحسوس يصور الاشياء تصويراً نكاد نقول حرفياً ، انه يعتمد لا على الاساليب البديعية المعروفة ، بل على نوع من الالهام الفني الهندسي يبعد عن الادب المعهود بصورة ملحوظة ، اما القطب الثاني فيكمن في الخالق الفني نفسه ، في خلق الابهام والتفاني في ابرازه بشتى الوسائل للوصول الى المفاجأة . ومن هذه الوسائل انعدام الشخصيات التي يمكن أن يتعرف عليها القارىء ويتتبع حركاتها في حالات معينة مضبوطة ، ثم انعدام الفترة الزمنية او اختلاطها قصداً ليخرج جو القصة العام من عالم الزمان المضبوط الى عالم الزمان المنحل او عالم الابهام ، ذلك لأن مؤلف القصة يرفض ان يتقيد بالزمان الذي هو في نظره من صنع البشر لايمت الى الواقع بصلة .

وبعد ان يشير الكاتب الى المعطف الذي يلفاه كتاب القصة الجديد يقول : نلاحظ اولا ان الادب بصورة عامة يمر الان بأزمة لاتختلف عن الازمات التي تمر بها الازمات السياسية والاقتصادية والفنية والدينية . كما نلاحظ ان هذه الازمة ليست من صنع شرذمة من الادباء المهرجين الطائشين يدفعهم الى خوض غمارها دافع التظاهر او غلو في الابتكار او تهافت على الشذوذ . فالازمة أخطر من أن تقف عند حد بعض المهرجين وخطورتها في قلبها لوضع كامـل رأساً على عقب . فهي ترمي اول ماترمي الى نفي كل المقاييس التي ابتنى على اسسها الفن القصصي في جوهره وفي كنهه وكيانه نفسه منذ بروز هذا الفن في اوروبا الى يومنا هذا . فمن المعلوم ان الفنون تمر بمراحـل من التطور الطبيعي تكسبها قوة ومتانة وتنوعا فهل تطور القصة التي اصبحت اليوم « اللاقصة » يمكن أن يعد مرحلة طبيعية كالمرحلة التي قطعها الادب من البارناس الى الرمزية . أو من الرومنطيقية الى الطبيعيـــة ؟ فأزمة الادب الحديث لاتقتصر على الاشكال والمظاهر ... بـل هي تجتاح العناصر الاساسيـــة التي كونت الى حـد اليوم هيكل الانتـــاج الادبي وابرزته في القالب الذي نعرفه له . مما يجعلنا نتساءل عن أمرين : هل سيكون حظ الادباء التقليديين الذين يرفضون ان يتبعوا هذا السبيل الجديد هو مثل حظ الكثير من الـكلاسيكيين المتخلفين الذين ابوا أن ينساقوا مع التيار الرومنطيقي فلم يحفظ لهم التاريخ أثراً وكان مـآلهم النسيان والاهمال ، لايمكن بأية حال ان نتنبأ بما عسى أن تكتب التاريخ لارباب الادب القصصي الحديث فليس من شأننا ان نحكم لهم او عليهم في محل قراء المستقبل ، فهم سيتولون ذلك بأنفسهم كما ليس من شأننا أو بمقدورنا أن نجزم من الآن ، بخلود جانب من هذا الادب الحديث اوبعدم خلود الجانب الآخر .. لكننا رغم ذلك على يقين من أمر آخر هو وجود أدب تقليدي الى جانب هذا الادب الجديد لايقل عنه شبابا ولا عنفوانا . ادب لم تنضب مناهله ولم تخمد أنفاسه ولم تبد عليه آثار التدهور والاضمحلال ..

تحت عنوان « العلم والحرية » كتب فؤاد صروف في العدد الخامس والعشرين من مجلة « النعمة » يقول : العلم والحرية قوتان غالبتان من قوى العصر الحديث ، وهما ابدا قوتان متفاعلتان . فالعلم بمناحيه النظري وتطبيقه العملي، يتيح للحرية ان توسع من نطاقها وترسخ من اركانها ، وتعمم من نعمها . والحرية تهيء للعلم التربة والجو اللذين يزكو فيها غرسه ، وينضر ورقه ، وينضج ثمره . اما العلم والاستبداد فقوتان ابداً متنافيتان . فالاستبداد يتخذ من نتاج العلم اداة لتقييد العلم وكتم انفاسه ، وهو يأبى القيد ، واما ان يهجر الارض التي يلقاه فيها ، واما ان ينحني ، ويروح تحت عبئه ثم يذوي ، ولا ينتعش الا بعد مشقة وتمهد طويل! وقد عني كاتب اجتماعي ايطالي كبيرمنذ ربع قرن بتصنيف كتاب عنوانه « امتحان الاستبداد » وطلب الى طائفة من كبار الكتاب ان يكتبوا فصوله . وهي عشرون فصلاً او تزيد ، فكتب اندريه موروي فصلا في « الاستبداد والرجل العظيم » واميل فندرفلد الاشتراكي البلجيكي ، فصلا في « الاشتراكيين والاستبداد » وغوليلمو فريرو المؤرخ الايطالي فصل « الاستبدادفي روما القديمة » وسائر الفصول على هذا النمط . وهي تتفاوت طولاً من خمس صفحات الى ثلاثين صفحة أو أربعين .. وطلب المصنف الى العالم اينشتين ، ان يكتب فصلا في « العالموالاستبداد » فكتب فصلا في عبارتين اثنتينولم يزد. قال : «الاستبداد يعني كم العقول والافواه فالعاقبة الضمور والهدم. واما العلم فلا يزدهر الا في جو من الحرية » وقوله فصل الخطاب لأن قائله هو من هو ، ولكن لأنه لخص في عبارتيه حكمة ايدتها دهور متوالية من تاريخ الارتقاء الانساني .

ذلك بأن سر الصلة ، بين العلم والحرية من جهة ، ثم بين العلم والاستبداد من جهة أخرى، هي صورة الحرية ومنزلتها في الاجتماع البشري في ارتقائه الفكري . وفي تطور نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية جميعاً .



المراكز الثقافية العربية في سورية

دمشق

● تحدث الفنان فاتح المدرس في ندوة فنية عقدت في قاعة المركز عن مدرسة الفارس الازرق الفنية .

● « الديمقراطية وسيادة القانون » عنوان المحاضرة التي القاها الدكتور فؤاد شباط وحضرها جمهور غفير .

● والقى الاديب المغربي الاستاذ عثمان الكعاك محاضرة تحت عنوان « مشكلات الثقافة في المغرب » .

● تحدث الاستاذ صلحي الوادي في ندوة موسيقية عن الكونشرتو الاولى لبرامز .

حلب

● القى المهندس راتب جابر محاضرة تحدث فيها عن القطن في سورية في الماضي والحاضر .

اللاذقية

● احيت غادة السمان امسية قصصية في المركز فألقت قصتين من قصصها الاولى بعنوان « الرجل ذو المانتين » والثانية بعنوان « لعنة اللحم الاسمر » وقد حضر الامسية عدد كبير من مثقفي اللاذقية والساحل .

حمص

● القى الاستاذ عثمان الكعاك محاضرة قيمة بعنوان « حاضر اللغة العربية في المغرب ومستقبلها »

● قدم على مسرح المركز مسرحية كتبها الاستاذ مراد السباعي وهي بعنوان « ضابط عثماني » ومثلتها فرقة مسرح حمص .

● « المجتمع المدرسي في حمص » عنوان المحاضرة التي قدمها يوسف الجندي .

حماة

● « الصلات بين المشرق والمغرب العربيين » عنوان المحاضرة الثالثة التي القاها عثمان الكعاك في سورية وذلك في قاعة المركز بحماة .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها فؤاد الشايب

— بين السوق الأدبية والسوق المشتركة .

— جولة مع حارس الليل في باريس تنتهي مع حارس (الشارع المرح) في بروكسل .

— الصاروخ الاوروبي المتعدد المراحل . ولقاء نابليون وبسمارك في بروكسل .

— هل التجمع الأوروبي، محاولة لاحلال التسلط الاقتصادي بديلاً عن التسلط العسكري ؟!

— ماذا يقول المثقفون الانكليز في السوق الاوربية المشتركة .

نشاط المنتديات خلال شهر

جمعية الادباء

● عقدت جمعية الادباء اجتماعها الثاني في قاعة المركز الثقافي العربي لمناقشة مشكلة تشجيع الكتاب السوري.. وقد اتخذت بعض المقررات التي ستوزع على ادباء سورية لابداء رأيهم فيها ثم العمل على تنفيذها.

الندوة الثقافية الانسانية

احيت الاديبة سميرة عزام ندوة قصصية في قاعة الندوة الثقافية الانسانية حضرها جمهور غفير.

منتدى سكينة الادبي

● وفي منتدى سكينة قدمت سميرة عزام ندوتها الثانية بدمشق قرأت اربع قصص عن قصصها الجديدة وحضرها جمهور غفير.

كما القى الدكتور عبد السلام العجيلي في قص الاسبوع حديثاً فيها بعنوان «اسأل المجرب» وكانت على شكل رسالة بعث بها اليه احدالوزراء السابقين..

المنتدى الاجتماعي

● وفي المنتدى الاجتماعي القى الدكتور عبد السلام العجيلي محاضرة علمية قيمة وهي بعنوان «كلية الام وكلي غيرها» وقد حضرها عدد كبير من وجوه المدينة.

نادي الضباط

● اقيمت في نادي ضباط حامية دمشق مناظرة ثقافية بين الوية الجيش العربي السوري.

نادي الحقوقيين

● القى الأستاذ زكي الأرسوزي محاضرةقيمة بعنوان «تجربة العروبةفيلواء الاسكندرون».

حلقة التكامل الاجتماعي

● «المتحف.. نشأته.. ورسالته» عنوان المحاضرة التي القاها الاستاذبشير زهدي وحضرها عدد كبير من الجمهور المثقف.

جمعية الوعي العربي

● في البرنامج الثقافي والاجتماعي لوزارةالشؤون الاجتماعية والعمل لمكافحة التشرد وجنوح الاحداث القى عدنان السيعي محاضرة بعنوان «نحن واطفالنا».

صالة الفن الحديث

● اقيمت في هذه الصالة ندوة قصصية شعرية برعاية الدكتور يوسف شقرا امين عام وزارة الثقافة والارشاد القومي قدم فيها اسكندر لوقا قصة بعنوان «سر المهنة» وقدمت سلوى شحادة بعض قصائدهاثم اختتم الندوة وليدمدفعي بقصته الظل.

النادي العربي

● استمع المجتمع الادبي والثقافي في دمشق الى الاديب الدكتور عزت الطباع الذي القى محاضرة

فكرية تحدث فيها عن طائفة من الشعراء العرب الفحول الذين تركوا اثراً لا يمحى في حياتهم.

النادي العربي في حمص

● رعى الاستاذ عبد الحليم قدور وزير الاعلام مهرجانا ادبيا وفنيا اقامه النادي العربي في حمص في قاعة المركز الثقافي العربي اشترك فيه الاساتذة فوزي صفوة واسكندر لوقا وادوار حشوة وجان الكسان ونور الدين فارس حيث قدموا نماذج من انتاجهم القصصي والادبي والشعري.

كتب جديدة اهديت للمجلة

● « ارضنا الجديدة » عنوان الكتاب الجديد الذي صدر لخليل رامز سركيس وقدقدم له رينيه حبش .

● « النافذة » مجموعة قصصية صدرت للكاتب العراقي محمود الظاهر .

● « الدكتورة عائشة الخزرجي امام القضاء » عنوان الكتاب الذي صدر لعلي الشوبكي.



مشروع جولة

كنت منسجماً مع فضولي اتسكع وراء الجوائز الأدبية في فرنسا ، انشد الجديد في الأدب والفن ، يطلع به على الناس مسرح المفاجآت ، كل عام ، مع هتافات الجمهور ، وقرع الأجراس ، وثرثرة كتاب الريبورتاجات الأدبية . كنت اهيم وراء قانصي الصور ، ومسجلي التصريحات ، ومسلطي الأضواء على النجوم ، اتسقط كلمات الفائزين ، حاملي براءات الانتساب الى جوائز غونكور ، وفيمينا وانترأليه ، وميديسي ، ورينودو ، وجائزة الاكاديمية الفرنسية للرواية ، والجائزة الوطنية للآداب ، ماذا يقولون ؟! ماهي انطباعاتهم ؟! لماذا نجحوا ؟ : ماذا يقول النقاد في ادبهم وخيالهم الروائي ـ كلهم روائيون ـ وفي الطريف من ابداعهم ، وانشائهم ، وتصورهم الحياة ، ونظرتهم الى الكون ، كأن العالم ، مجهول ، ثم مكتشفوه ، والحياة لغز ، هم وحدهم حلالوه ، أو كأن لم يغمس في الحب قبلهم قلم ، ولا جرى دمع على حبر ، ولا سفح على صخور الحقيقة خيال .

وبعد أن مشيت وتسكعت طويلاً ، أشهد أن غبطتي ، قد انقبضت وعصرتها الوحشة ، ورأيتني امضغ قشوراً ، واشرب من عض اصابعي ! ياالخسارة الجولة في ضباب السين ، والدنيا صقيع صقيع !

الأدب من خلال النقد

يكاد القارىء ، أن يصاب بالغثيان ، فانعدام القابلية ، ـ مرحلة فمرحلة ـ لكثرة مايبتلع على جوع من حلوى الأدب الروائي الجديد ، ـ الساغاني خاصة ـ ثم لايشبع فمه ولا عينه ، ويبقى كتلة اعصاب مهتاجة ، تشتهي الكثير ، ولا تستطيع هضم القليل . انما الحالة هذه في بعض اطوارها ترسو على مايشبه دور النقاهة من مرض القراءة ، ترتاح اليه النفس ، بعد هياج ، وتسكن بعد اضطراب ، ولا يعود للنفس من شاغل بعد سوى ماتقدمه لك الايدي البارعة من اطباق النقد المتنوعة ، تحمل فيما تحمل خلاصات او عصارات ، من خيالات ناسجي الحكايات ، وخاطراتهم ، وكبودهم ، مرشوشاً عليها بعض البهار الحار اوعصير الليمون المر ، وفي هذه الأطباق حبة صالحة ، لاولئك الذين يأكلون ولا يشبعون .

وعندما كنت اتابع على مسرح الجوائز الأدبية في فرنسا ظهور النجوم الفقاقيع ، في دوار من الحيصبيص ، وجدتني مستسلماً فعلاً ، لأيدي هؤلاء الجهابذة النقاد ، يأخذون بي وراء تلك الانفاق الملتوية التي يحفرها الروائيون في اللامتناهي ، لينعموا بمتعة الضلال والتضليل . والنقاد في العالم الذي نتحدث عنه ، وعلى الأخص نقاد الأدب الجوائزاي ، لايرمون ثقل اقلامهم عادة ، على النجوم الفقاقيع ، وكثيراً مايداورون نشوءهم ، ويرحمون طفولتهم ، بل قد يطبلون ويزمرون في حفلات المولد ، ليتجاوبوا مع الشعور العام الذي يرحب بالجديد ، ويبسط له سهله ، فلا يقال أن الامة قد عقمت ، كما قال منذ شهور أحد الكتاب النقاد من باريس ،

مطالباً بحجب الجوائز عن المرشحين ، لأنه لم يبق هناك من هو جدير بها ، في حضيض التفاهات !

ومهما راوغ النقاد الأصلاء ، ولا يدخل الحلبة ناقد غير أصيل ـ في العالم الذي نتحدث عنه ـ ومهما جاملوا طرافات المحاولات الابداعية، لأنهم اولاً واخيراً يعيشون منها وعليها ـ فانهم ليتورعون عن الملق ، وكل مديح فاخر كاذب ، **بل لتلقام مع الفائزين ، في تشاد مع انفسهم بين كفتي ميزان ، صعوداً وهبوطاً ،** يقولون رأياً ، أو يعرضون ملاحظة ، على هامش الاثر الادبي الفائز ، تصور بكل اختصار ودقة ، تحفظاً ، أو عتباً ، أو عجباً ، أو التواء شفة ! وكثيراً مايلتوي نجاح مسموق ، في ظل التواء شفة لناقد ! انهم لايصرخون . ولا يولولون وينفشون شعورهم ، في حلبات النقد ، **لأنهم ليسوا مصارعين ، ولا ملاكمين ولا ندابين بأجرة ، بل قضاة حكاماً ، يؤتون في بيوتهم ، في حقولهم التي دعوا الناس اليها ، ويعلمون انهم مؤتمنون ، والالوف وراءهم ، رائدين لايكذبون أهلهم ، احياناً ادلة ، وهم اذ ارتقوا ورثوا ، أئمة !** يقرأون لئة ، ليقفوا عند واحد ، ويهدرون نور العين على عشرة آلاف صفحة ، ليلقوا نور اليقين على بضع كلمات في صفحة واحدة ! وانها لحرفة دونها مشقة حرفة عمال المناجم ، ومنظفي المداخن ، ودافعي المراكب بالحبال على السواحل ، لايبتلى بها سوى كل ذواق صابر ، عظيم الاحتساب ! فاذا شهدت هرجاً ومرجاً وتجريحاً وايلاماً في مشادة ادبية ، ففتش عن السياسة وراءها ليس إلا . !

أراني اذهب ، في هذه الجولة ، مع النقاد وفن النقد ، مستطرداً ، لاقاصداً . وحسبي وأنا اعايشهم اليوم ، في الجو الجوائزي أن اذكر أن هؤلاء وأسلافهم من قبل ، كانوا الأكف التي عرضت فيها اللآلىء لأول مرة قبل ان تتخاطفها ايدي العالمين ، وهم لم يكتشفوا المؤلفين أنفسهم فحسب ، **بل قد كشفوا في المؤلفات ما لم يخطر في بال المؤلفين ،** كما قال ذات يوم (فاليري) في بعض ناقديه ومحلليه . ففي الناقد الاصيل شخصية ذات نواتين توأمين : شخصية **المكوّن ، وشخصية محلل دقائق التكوين . شخصية الفنان والعالم معاً . شخصية رائد الفضاء ، وصانع اجهزة الصاروخ عابر الفضاء .** واعظم مافي هذه الحرفة واوجعه ، أن المجد غالباً مايكتب لرائد الفضاء ، أما الصانع ، فقد يموت متسمماً في المخابر المكتومة ، كما تموت فئران التجربة ، اذا لم يتح له ان يكون رائداً ، برغبة منه ، او خارجاً عن ارادته .

... وحديث النقد ، والناقد في منتهاه وسأعود اليه .

عدول عن الجولة الأدبية

كان موضوعي في جولة الشهر مع التيارات الفكرية العالمية ، أن اعرض لقارىء المعرفة ، ماجرى

على مسرح الجوائز ، وكله ادب روائي ، من انتاج اثنين ـ لغونكور ، ورينودو ـ وحفنة ذكور للبقية ـ ولكن النقاد الذين كانوا ادلتي ، نصحوا لي بالعدول عن المغامرة الشاقة ، ورأيتني مثلهم اقف متسائلاً : ماذا من جديد لقارىء عربي ؟!

ماذا لدى السيدة (آنا لانغو) ، رابحة غونكور — مثلاً — في روايتها (أحمال من رمل) Bagages de sable ـ. قصة فيموضوع ساغاني عتيق : فتاة صغيرة تحب رجلا فاته الشباب، شيخاً ! وتدور الحروف في الفراغ ، لتعض على جسد حي في حياة الحب،فلا تكاد تستقر إلا على اشلاء يجمعها الفن في صورة جسد وحياة،ماذا؟: لعل الغونكوريين اعجبوا بعصبية امرأة تكتب بمرارة وحزن وصريف اسنان ، بينما تعالج (ساغان) مثل هذه التجربة ، بهدوء من يعاشر خمرة معتقة في ليل طويل ! فليركض الجمهور وراء الدليل الكونغوري ! قد تنتشر الرابحة هباء وضياعاً ، بعد مرور عام على الجائزة ، كما هلك كثيرون من الرابحين . وقدلا ! وبالانتظار لنتل! ان الجمهور يحب هذه المسرحيات ، ولو لم تعش في العين والخاطر سوى بضع ساعات !

وخيل إلى الكاتبة التي ربحت جائزة (رينودو) مؤلفة رواية حارس الليل Le veilleur de nuit ـ سيمون جاكار ـ أنها تجترح حدثاً في خلقها شخصية الحارس العجيبة. رجل يعيش تحت الأرض، ويحفر في ترابها . يعثر على بئر فينبشها ، ويستمر في خرق انفاق طويلة في بستانه حول بيته، وحتى تحت حدائق الجيران ، ويقتنص فتاة ساذجة ، ويستدرجها إلى منزله ، ليغلق عليها في كهف تحت الأرض ، ويعلم جيرانه بأمره وبما يريبهم منه ، فيسوقونه الى القضاء . ماذا يعني ذلك ؟! قيل ان الروائية الفائزة(جاكيار) تقلد (كافكا). تحدثنا عن أساطير غامضة ، لايكشف الفن البارع عن غموضها ، لتبعث في النفس رعشات عميقة ، واشواقاً واقفة ابداً بانتظار وترقب !!

وللروائية (جاكيار) اسلوب استدراجي يفرض على القارىء المشقة والعناء في مرافقة صفحات القصة ، وهو عناء أصبح زياً رائجاً في تأليف (الرواية الجديدة)،انتقاماً من الوضوح المقذوف بالسطحية والتفاهة . . لعل غير المفهوم، يبدو بلاغة ، وإتقاناً فنياً ! ويقول الناقد البيريس Alberes في نقد (حارس الليل) ان في هذا الفن مزاودة على اللامعقول ، غير مجدية ! ونشعر ان الناقد يأخذ برفق ، سيدة (رونودو) ويكاد لوضغط بالقلم ،أن يجدع انف مجدها الطري !

خروج من الضباب

. . ! وفي هذا الضباب ، على شاطىء السين، في ليال باردة ، شعرت بالوحشة — كاقلت — وبعبث ما اجني لجولة الشهر ، فانكفأت راجعاً. وكنت اراقب السبعة الناجحين بجوائز هذا العام ، عن كثب ومنذ أيام ، وفي نفس الوقت، اتابع حدثاً جديداً يتكون في ضمير اوروبة العتيقة،وعلى سطحها اللاحب واظن انه قد طفح عن

الاناء الاوروبي ، ليملأ العالم ، ويشغل انسان العصر الحديث ، في منعطف النصف الثاني من القرن العشرين .

وهنا ننتقل من التجريـــد ، واللامعقول والانفاق الملتوية ، الى سطح الارض بترابها واسمنتها وحديدها ، والى الفكر الواضح والعزم المسدّد . هنا يعرف الانسان طريقه ، ويستحضر بقدرة قادر مستقبله وغيبه امامه . انه ليس (حارس الليل) المأخوذ بغرائزه القنفذية ، ينبش في حطام بئر ، وينهك لذاته في كهف نفق ، ويلهث أعياء وراء ميتافيزيكيـة الرؤى والاحلام . بل هو الرجل المقدود بذكاء من صلب الارادة الانسانية ، التي تستجيب للتحدي ، تحت طائـلة الهزيمة ، والضياع ، وتشحذ نفسها على الشدائد ، سكينا على سكـين ، وفولاذاً على فولاذ . انها ارادة البقاء ، بل اكثر ، ارادة التفوق ، لأن البقاء ان لم يكن استمراراً صاعداً ، ضاع ووهن في حوضه البدائي الحيواني القميء .

مع الحدث الاوربي الجديد ـ ليس ما نرافقه ، مجرد ابخرة عائمة في التيار العالمي ، بل هو حركة عنيفة في تيارات الفكر والثقافة ، والقيم الحضارية . وانما لا نرافقه ، هذا الحدث ، كسياسة فحسب بل كنشاط ثقافي ممتلىء منفجر ، يناطح العظائم من احداث الكون ، ويكابدنا نحن ، مكابدة واقعية ، ويجابهنا مجابهة مادية وروحية ، اساسية غير جانبية .

إنـه ليس القمر الروسي ، ولا الصاروخ الأمريكي . بل اكثر خطراً ، وألصق بحياتنا جانباً **انه التجمع الأوربي ، في السوق الاوروبية المشتركة** . قبل انه الصاروخ الحقيقي المتعدد المراحل الذي تعتز بـه اوروبة الاقتصادية ـ اوروبة العسكرية سابقاً ـ وتفاخر به مخترعي عجائب الفضاء ، لأنه سلاح الأرض الباقية الخالدة .

نزهة في بروكسل

ومن ضباب باريس ، ونفق حارس الليل ، نمضي الى أرض مشرقة ليست ببعيدة ، في بروكسل ، ونقف في الشارع العريض المسمى (بالمدخل المرح) لنتلع الاعناق نحو بناء فخم جميل ، اقرب شبها بمكتبة جامعية منه بسراي دولة ، حيث تستقر لجنة السوق المشتركة ، وجهاز موظفيها (الاوروقراطيين) ـ كلمة منحوتة من (اوروبة وبيروقراطية) ـ برئاسة شاب شغيل **في الواحدة والستين من عمره** ، يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم ، الماني الأصل يدعى (وولتر هالستاين) .

لقد ادخل نجاح السوق الاوروبية ، رجلين اثنين من ابواب التاريخ الواسعة . احدهما فرنسي (جان مونيه) مخترع (السوق) وواضع حجرها الاساسي ، وثانيهما ، الماني ،(وولتر هالستاين) مدير السوق ومحركها ، ورئيس دولة جديدة في اوروبة .

تقول امريكا في هالستاين انه **قوة محركة أولى في العالم** . ويقول فيه الاتحاد السوفييتي انه **زعيم الكتلة الاحتكارية الاستعمارية في اوروبة** ويقول فيه سواهما انه واحد من اكبر رجال الدولة في العصر الحاضر .

ومع أن لجنة السوق الاوروبية المشتركة التساعية ، ليست حكومة ، ولا دولة بعد ، ولا زعامة ، بل مجرد ادارة ، فان اربعين دولة في العالم ، ارسلت سفراءها لديها ، في بروكسل . وقبل غداً اذا ما انضمت اليها بريطانيا ، والدول الاسكندينافية ، كما هو مخطط — على الأقل في بريطانيا وامريكا — فان حجم سكان السوق الاوروبية المشتركة ، سيغدو مائتين وخمسين مليونا من السكان ، بدخل يعادل ضعفي الدخل السوفييتي ، وباحتياطي من الذهب والدولار ، يعادل احتياطي الولايات المتحدة الامريكية نفسها .

ان عملنا ليس التجارة فحسب — يقول هالستاين — بل السياسة ايضاً . وهذا الرئيس الاستاذ الجامعي سابقاً ، هو الذي اطلق على (السوق) اسم الصاروخ المتعدد المراحل . فالمرحلة الاولى ، وحدة جمركية تجمع الدول الست (المانيا الغربية ، فرنسا ، ايطاليا ، ودول البنلوكس (بلجيكا ، هولاندا ، اللوكسمبورغ) وهي مرحلة تمت . والثانية وحدة اقتصادية على المدى الواسع ، صناعياً ، وزراعياً ، ومصرفياً ، ومالياً ، يرتقب انجازها عام ١٩٦٧ . وأما المرحلة الثالثة ، فوحدة سياسية جامعة ، موعدها في ضمير المستقبل .

وقد دلت عملية احصائية واسعة ، قام بها خاصو الارقام مؤخراً ، على أن المواطن الأوروبي قد ولد فعلاً ، **وهو يعيش بوعيه الكامل ، حلم المستقبل الكبير** . ففي المانيا ٨١ بالمائة من الالمان مع اوروبة ، وفي فرنسا ٧٢ وفي ايطاليا ٦٠ ، وفي بلجيكا ٦٥ ، وفي هولاندا ٨٧ بالمئة ، كذلك اعلنت الاحصاءات أن دخل الفرد في كل من دول السوق قد ازداد في الاعوام الاخيرة بين ١٥ بالمئة و ٢٥ بالمئة . كذلك قد قفز حجم التبادل التجاري بين دول السوق من ٢١ بالمئة الى ٧٣ بالمئة ، وازداد أجر العامل ٢٦ بالمئة **وتهتز الاسلاك التي بدأت تتشعب وتمتد في صميم الحياة الأوروبية المشتركة بشعارات الوحدة الاوروبية ، والثقافة الاوروبية ، والنسب الاوروبي ، ويطلق**

على البضائع والمنتجات ، اسم اوروبة وحدها في كثير من الاسواق ، وتتدرج لفظة (الرجل الاوروبي) الى الاسماع والمفاهيم ، وميادين التداول، تماماً كما تدرج لفظ (الرجل الامريكي) في رحاب الولايات المتحدة خلال القرن الثامن عشر . أما الاجيال الاوربية الجديدة ، التي لم تع احداث الحرب العالمية الثانية ، فانها تكاد تعيش بلا عصبية ، ولا عقدة ، ولا تكاد تشعر بالحرج اذا هي انتسبت الى الوطن الاوروبي فوق البلدة والقرية ، والوطن الصغير . يبقى القول أن التنظيم العلمي الهندسي الذي يضع خطوطه وينفذه جهاز اوروبي ذكي ، يتوفر له علماء ،ومؤمنون — كالجهاز الناعي في بروكسل وسواه — **هو المعول عليه في خلق محطات الالتقاء الكثيرة بين الوعي الشعبي ،والتعبير عنه والتجاوب معه** بعلم وفهم ،**وذكاء وصبر .وان تكن السياسة الاوروبية اليوم ، عن طريق فرنسا والمانيا ، تحاول أن تعزز التنظيم العلمي ، بهزات وجدانية عاطفية ، تسهل مرور السياسة في ضمير الشعوب الاوروبية ، فليست العاطفة مطل السياسة الاوروبية على مستقبل العمل المشترك . ولابد أن تدعم السياسة والتنظيم الاقتصادي المصلحي بقناعات فكرية ثقافية ، مستمدة من واقع تلك الشعوب في مواجهتها اخطار امشتركة، ونشدانها مصالح مشتركة ، تفرضها جغرافية وتاريخ ، وتطور سريع متلاحق الاحداث متداخلها .**

ولعل اهم هذه القناعات الفكرية كامنة في هذه الخطوط العامة ، التي حفر بعضها في حياة فرنسا انتصار ثورة الجزائر ، وان لم تبلغ بعد اعماق التفكير الاوروبي،وهي بتلخيص:

١ - غروب الاستعمار بالتسلط العسكري

ويبقى أن نعلم ، نحن الذين افلتنا من مناطق التسلط الاستعماري العسكري في هذا الشرق ، هل التنظيم الاوروبي سيسيل الى فرض تسلط اقتصادي ، بديلا عن التسلط العسكري . وهل هذا التسلط وراء مناهج العمل الاوروبي المشترك؟! ولعلنا نجيب على جانب من هذا التساؤل فيما سنعرض من آراء .

٢ - نشوء الدول المستقلة في آسيا وافريقيا ،وقد كانت الى الماضي القريب مستعمرات ومحميات ، ومناطق نفوذ ، واسواق مواد اولية ،وبضائع اجنبية .

مع الاشارة دائماً الى أن هذه الاوطان الناشئة، **بحاجة ماسة الى الحرية ، مثلما هي بحاجة ماسة الى العون في تطوير اقتصادها** ودفع ركب التقدم في بلادها ، حتى لتمد يدها الى الد اعدائها بالأمس القريب، دون حرج ، وبكثير من رجاحة عقل ورحابة صدر . فهل في حساب التنظيم الأوروبي،

أن يستقل الحاجة الثانية ، على حساب الحاجة الاولى ؟! وهل من ضرورة للتأكيد من جديد، بأن الانسان المتحرر ، في حذر وريب شديدين ازاء (الانسان المتمدن) بحيث لايضع فوق قيم الحرية ، اية قيمة ، بأي ثمن !

٣ ـ تنازع القوتين الرئيستين في الولايات المتحدة الامريكية ، والاتحاد السوفييتي مناطق النفوذ والسيادة ، والزعامة الروحية والثقافية ، في الشرق وفي الغرب على السواء . ولا تخرج اوروبة المستضعفة عن مناطق الصراع بين الدولتين الكبريين .

ومما لاريب فيه ، ان حافزاً نفسياً عميقاً ، مع الحافز السياسي والاقتصادي ، كان وراء التنظيم الاوروبي ، للخروج بالاوروبيين من مناطق الصراع على النفوذ . ولطالما اعلن السياسيون والمثقفون عن حلمهم بانشاء **قوة ثالثة في العالم** . تتكافأ اقتصادياً مع القوتين الاخريين أو تزيد . وان لم يكن بالامكان تحقيق التكافؤ العسكري، فلا أقل من أن يحبط التنظيم الاوروبي ، سحر التفوق العسكري من أي جهة شرقاً وغرباً .

٤ ـ رابعاً واخيراً ، فان فاجعة فرنسا في هزيمتها الجزائرية ، وفاجعة المانيا في تمزيقها ، هما في صميم الحوافز العميقة الى التنظيم الاوروبي .

في هـذا التنظيم تلتقي روافد قوى خفية متحدرة من التاريخ ، هي بقايا ، من طموحات نابليون الفرنسي ، وبسمارك الالماني وكلاهما كان يدعو الى وحدة ما في اوروبة وفي قمتها فرنسة نابليون ، أو المانية بسمارك . وليس دوغول واديناور اليوم سوى هذه البقايا من القوى المتحدرة ، وقد ذهب منها صخب الاندفاق وزبد الغرور ، فتلاقت وانسجمت في مسيرة واحدة ، تسودها على كل حال سمة العسكري الطموح ، والسياسي الداهية ، وقد نزعا اظفارهما وتشابكت اصابعهما ، وقبلا بكل روح عصرية عاقلة ، أن تكون (اللوكسمبورغ) دولة مؤسسة في بناء المستقبل الاوروبي ، ذات كرسي ، وصوت ورأي ، في المنظمات الاوروبية المشتركة ، في لجنة السوق ، ومجلس الوزراء ، والبرلمان ومحكمة العدل ، سواء بسواء .

المثقفون في السوق

وتدفع اوروبة جهازها الاقتصادي دفعاً حثيثاً في مراحل النمو ، وتحقيق المغانم ، وتتلاصق الكتلة الأوروبية ، يوماً بعد يوم ، فما يزيدها العداء الا تلاصقاً وتشابكاً . وتؤكد السوق الاوروبية انها قد كتبت فعلا صك تحريرها الاقتصادي ، من امريكا ، وروسيا ، فلا تلبث بعد اعوام أن تصبح قارة مستقلة ذات كفاية وسيادة وقيادة . وتبقى بريطانيا ، على هامش السوق ، مترددة حائرة ، يشدها مجدها الامبراطوري وشعبيتها الأوروبية . واذ هي تعزم على دخول السوق ، عن طريق حزبها الحاكم ، تحاول ان توهم الأوروبيين انها بريطانيا العظمى، وأنها تفرض

شروطها ، وتفتح دفاتر حسابها . ويبدو ان الاوروبيين لن يسمحوا لها بالدخول . إلا صغيرة صغرى . ومن الابواب الصغيرة ، بلا قيود ولا شروط ولا مواكب .

وتهيب بريطانيا بمثقفيها وتناديهم وهذه ميزة بريطانيا ، في تلازم السياسة والثقافة في تاريخها : أن هل تخسر بريطانيا شركتها في الكومونولث ، لتنضم بعظمتها وجلالها ، عضواً . غير مؤسس في شركة السوق الأوربية؟! هل تدخل السوق أم تبقى في الجزيرة منعزلة ، شامخة . مترفعة !؟

ويلبي النداء اكثر من ستين أديباً ومثقفاً ، وجامعياً بين شاعر ، وناثر وفيلسوف ، وعالم ، ممن قد يكونون قد ألموا بعلم الاقتصاد ، اوممن لم يقرأوا فيه وفي السياسة حرفاً ، ويجيبون على السؤال بكل صراحة وجرأة ، وبكل سخرية ـ احياناً ـ من عقدة العظمة والشعور بالتفوق البريطاني .

اكثر من خمسين بينهم اجابوا بدولتهم أن تسارع الى دخول السوق . واقل من عشرة ترددوا ، وحذروا من ان تفقد بريطانيا شخصيتها ، وسيادتها ، وبريطانيتها ، وبين هؤلاء اديب يعترف بأن بريطانيا المنعزلة **هي بريطانيا الفقيرة ، ولكنه يفضلها فقيرة وصغيرة ، على أن تفقد اباءها وكبرياءها !**

اني اشفق على هذه الأجوبة البارعة من التلخيص ، والضغط في صفحات معدودة من حقل هذه الجولة . لأنها اجوبة لاتقتصر على تحليل الموقف البريطاني الفكري من السوق ، واوروبة . والوحدة الاوروبية ، بل هي اثمن من ذلك بما تلقيه من اضواء على طبيعة اوروبة وتنظيمها ومستقبلها وما وراء التنظيم من اهداف ، أو مايراد له منها . **وفي بعضها دروس قيمة في فلسفة التاريخ ، وفي استجابة القوميات لروح العلم ، وفي تبدل الاحكام بتبدل الازمان ، وفي أثر العامل الاقتصادي في التعاون او التنابذ العالمي ، وفي تقرير مصير الديمقراطية ، مع التجمع الاوروبي ، وفي موقف الشعوب الملونة من السوق الاوروبية .**

وسوى ذلك من قضايا ومواقف ، على الصعيد الفكري والسياسي الثقافي ، يسوق اليها السؤال الكبير : هل تدخل بريطانيا السوق المشتركة ؟!

ماهي السوق ، وماهي بريطانيا ، وما هي اوروبة ؟! وما هو هذا العالم الذي يتحدى اوروبة فتنهض له داعية الى الوحدة ، بنظام هندسي علمي ، يؤلف حدثاً سياسياً وفكرياً من طراز الاحداث الكبرى في تاريخ البشرية !

سنعود الى الموضوع في الجولة القادمة . ولعل لنا معه اكثر من جولة واحدة .

ختام السنة الاولى

نلحق بهذا العدد الممتاز ، الثاني عشر ، الذي يختم السنة الاولى من المعرفة ، فهرساً عاماً ، بموضوعات الاعداد الاثني عشر ، مع اسماء الكتاب الذين ساهموا مساهمة قيمة في انجاح المجلة وابلاغ رسالتها الفكرية. وبذلك يتاح للقراء العرب ، ممن لم يتيسر لهم الاطلاع على اعداد (المعرفة) او على بعضها خلال العام المنصرم أن يحيطوا بقليل من الصفحات في هذا الفهرس العام ، بالجهود الذي بذلته أسرة التحرير تحقيقاً لما أخذته على نفسها من عهد منذ صدور العدد الاول عندما قررت وزارة الثقافة والارشاد القومي ، أن تضع جزءاً من طاقتها تحت تصرف المثقفين العرب ، لتكون المجلة مجلتهم ، ورسالتها رسالتهم ، ونجاحها نجاحهم هم انفسهم .

وان اسرة التحرير ، بلسان الوزارة ، ليسرها أن تعلن نجاح الخطوة الاولى التي خطتها (المعرفة) في عامها الاول ، بتأكيد العدد الكبير من القراء العرب الذين كانت رسائلهم المتواصلة من شتى ارجاء الوطن العربي ، والمهاجر في الامريكيتين واوربة ، وبعض البلاد الشرقية ومصادر الاستشراق ، خير حافز للعاملين في خدمة هذا العمل الفكري لان يضاعفوا الجهد ، ويجتازوا المراحل بلا وناء ، نحو الاحسن والافضل ابداً .

وبالحق ، فأن مشروع عمل نشري فكري ، على مستوى جدي

وصين ، لم يكن من المتوقع له أن يلقى رواجا لولا اليقين السائد لدى نخبة من المثقفين ، اشتركوا في حمل الوزارة على اصدار هذه المحاولة النشرية ، بأن القاريء العربي الواعي كثير عديده ، وأن الكاتب العربي المنشود على مستوى فكري راق ، موجود ومطلوب وجوده ، وانه لا ينقص القاريء او الكاتب ، سوى وسيلة النشر التي ان توفرت ووفرت لنفسها العدة اللائقة بجمهورها ، على ما تلقاه من مشقة وعناء من اسباب المواصلات والتوزيع في المحيط العربي ، بلغ النشر الفكري الراقي اهدافه المادية والمعنوية ، بلوغاً محموداً ، جديراً بأن يكافىء أهله ، ويطمئن قلوبهم ، ويمسح جباههم .

بهذا اليقين السمح المنعم ، نقبل على عامنا الثاني ، وقد زادتنا التجربة ومظاهرة الاصدقاء ، يقيناً وعزماً . وسنعنى عناية اوسع ، بالعلم وبالبحث العلمي ، وسيكون المعالجة الفكرية العميقة لقضايا عربية اجتماعية ، نصيب وافر من المتابعة والاهتمام ، وستحتل ترجمات المختارات من روائع الفكر العالمي ، مجالات واسعة في صفحات (المعرفة) وسنحاول اصدار اعداد ممتازة خاصة تفرد لمواضيع ادبية وفنية ، وثقافية عامة ، يؤلف العدد الواحد بصفحاته منها كتاباً ثميناً .

فالى جميع الاساتذة ، كتاب المعرفة ، الذين بفضلهم نشرت المجلة الفين وثلاثمائة وخمسين صفحة ، خلال عام واحد - والى الأصدقاء الافاضل الذين ما برحوا ايراسلون المعرفة ويسدون لها باهتمامهم وملاحظاتهم وآرائهم ، اجل اليد واصدق العون تحية الشكر والتقدير وعرفان الجميل .

(رئيس التحرير)

فهرس السنة الاولى
من مجلة المعرفة

العدد الاول

المعرفة

العلوم الاجتماعية

الفنون

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

صفحات العدد الأول ١٧٦

العدد الثاني

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر — عرض الكتب — اخبار الادب والفن — محاضرات — جولة الشهر

الكتاب الاسود للجوع	
لجوزيه دوكاسترو	تلخيص وتحليل أديب اللجمي
القصة المغربية الحديثة	
لصادق المغيلي	عرض وتحليل الدكتور زكي المحاسني
الصناعات الشامية	= = سامي الكيالي
تاريخ الأدب العربي	
العصر الجاهلي	عرض وتحليل خليل الهنداوي
من الشعر اليوناني الحديث	
المطران الياس سوس	عرض وتحليل خليل هنداوي
ضمير الذئب	
قصص لمظفر سلطان	عرض وتحليل عدنان بن ذريل
مستقبل الانسان على الارض	
محاضرة لفؤاد صروف	عرض وتحليل اديب اللجمي
البينالي الثالث للتصوير	ترجمة قلم التحرير
مع القراء	قلم التحرير
جولة الشهر — مع تيارات الفكر العالمي	فؤاد الشايب

صفحات العدد الثاني ١٧٦

العلوم الاجتماعية

المعرفة

الآداب

الفنون

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر ـ عرض الكتب ـ اخبار الادب والفن ـ محاضرات ـ جولة الشهر

صفحات العدد الثالث ١٧٤

العدد الرابع

المعرفة

العلوم الاجتماعية

الآداب

الفنون

صفحات العدد الرابع ١٨٧

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر ـ عرض الكتب ـ أخبار الأدب والفن ـ محاضرات ـ جولة الشهر

ثورة الجماهير

لاورتيغااي كاسيه **عرض وتحليل الدكتور غسان الرفاعي**

الثقافة ووسائل نشرها

محاضرة للدكتور يوسف شقرا **عرض وتحليل اديب اللجمي**

دراسات في الشعر العربي المعاصر

لشوقي ضيف **عرض وتحليل الدكتور زكي المحاسني**

ابو القاسم الشابي

لعبد اللطيف شرارة **عرض وتحليل خليل الهنداوي**

الخريف ـ لوحة فنية ـ **الفنان نصير شورى**

الاسلام

المستشرق هنري ماسيه **عرض وتحليل مهدي العبيدي**

الحب والوحل

رواية لانعام مسالمة **عرض وتحليل اسكندر لوقا**

القديسة العارية

قصص لعبد الله الشيتي **عرض وتحليل ياسين رفاعية**

نرسيس

رواية لأنور قصيباتي **عرض وتحليل ياسين رفاعية**

في المكتبة العالمية **قلم التحرير**

رسالة من لبنان **غسان كنفاني**

جولة الشهر ـ مع تيارات الفكر العالمي **فؤاد الشايب**

صفحات العدد الخامس ١٨٢

المعرفة

العلوم الاجتماعية

الآداب

اقوى من القنابل الذرية	**جلال فاروق الشريف**
نكبة ابن رشد ـ مسرحية ـ	**خليل الهنداوي**

الفنون

الصورة الذاتية لهيلين هوك	**ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني**
تأملات في آداب النقد المسرحي	**نجاة قصاب حسن**
أثر الشرق العربي في الفن الاوروبي	**عفيف البهنسي**

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر ـ عرض الكتب ـ اخبار الأدب والفن ـ محاضرات ـ جولة الشهر

رواية الشياطين لدستويفسكي	**عرض وتحليل صدقي اسماعيل**
صدى ونور ودموع ديوان الصيرفي	**عرض وتحليل سامي الكيالي**
تاريخ الأدب العربي لريجيس بلاشير ـ ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني	**عرض ونقد محي الدين صبحي**
عطشان ياصبايا قصص لسليمان فياض	**عرض وتحليل زكريا تامر**

العدد السابع

المعرفة

العلوم الاجتماعية

ثقافة الأطباء العلماء	الدكتور عبد الرحمن الكيالي
متمردان وزاهد	الدكتور عبد السلام العجيلي
خلق المحامي لموريس غاريسون	ترجمة اديب اللجمي
تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية	الدكتور خالد الصوفي
تجارة الرقيق عمل اوروبي مهد للاستعمار في افريقيا	نعيم قداح

الآداب

النقد الادبي بين القديم والحديث	انيس الخوري المقدسي
طبيعة الأدب	الدكتور سامي الدروبي
المؤلف بين الرواية والمسرحية	الدكتور ابراهيم الكيلاني
اجمل الاشياء قصة لالبرتومورافيا	ترجمة عيسى الناعوري

الفنون

مشكلة ربع الصوت في الموسيقى العربية	صلحي الوادي
شكسبير والسينما للوينسك	ترجمة قلم التحرير
لمحة عن تاريخ الفن العربي	فهد جباصيني

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر ـ عرض الكتب ـ اخبار الأدب والفن ـ محاضرات ـ جولة الشهر

صفحات العدد السابع ١٧٧

المعرفة

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

العدد التالي

المعرفة

العلوم الاجتماعية

الآداب

الفنون

-

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر ـ عرض الكتب ـ اخبار الأدب والفن ـ المكتبة العالمية ـ جولة الشهر

شعراء نجد المعاصرون

لعبد الله بن ادريس — عرض وتحليل زكي المحاسني

من وحي الف ليلة وليلة

لفاروق سعد — عرض وتحليل عبدالرحمن بدرالدين

كفاح الشعب العربي السوري

لاحسان الهندي — عرض وتحليل قلم التحرير

مجموعة لشعراء من افريقيا — عرض وتحليل خليل الهنداوي

القصاص كفيلسوف

كروكشانك — قلم التحرير

اثوار مروا بيتنا

قصص لعادل ابوشنب — عرض وتحليل زكريا تامر

الحزن في كل مكان

قصص لياسين رفاعية — عرض وتحليل الياس الفاضل

سورية في مهرجان السينما العالمي

الثاني بيروت — صلاح دهني

المبادىء الحديثة في عمران المدن

محاضرة لجيفولسكي — عرض وتحليل قلم التحرير

وراء القضبان ـ

لوحة فنية ـ — الفنان ادهم اسماعيل

رونيه هويغ

يحاضر في دمشق عن الفن — قلم التحرير

جولة الشهر مع تيارات الفكر العالمي — فؤاد الشايب

صفحات العدد العاشر ١٩٥

مجلة المعرفة مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر ـ عرض الكتب ـ اخبار الادب والفن ـ المكتبة العالمية ـ جولة الشهر

الحق الطبيعي — **الدكتور مهدي الجم**

حول منع الحرب

لجون ستراشي — **قلم التحرير**

ديوان البزم — عرض وتحليل : **خليل هنداوي**

اصابعنا التي تحترق

رواية لسهيل ادريس — عرض وتحليل : **م . ص**

يحدثونك من القلب

قصص لقدري العمر — عرض وتحليل : **خليل هنداوي**

السمكة والبحار الزرق

قصص لعدنان الداعوق — عرض وتحليل : **اسكندر لوقا**

العالم المسحور

قصص لمحمد حيدر — عرض وتحليل : **ياسين رفاعية**

مع الصحافة الادبية — **قلم التحرير**

السينما والثقافة العربية — **صلاح دهني**

عربة كارو ـ

لوحة فنية ـ — **الفنان ممدوح قشلان**

جولة الشهر مع تيارات الفكر العالمي — **فؤاد الشايب**

صفحات العدد الحادي عشر ١٧٤